
روايات الهلال
حجر السرائر
نبيل سليمان
جمال عبد النبي

حجـــر السـرائـر

رواية

نبيل سليمان

رقم الإيداع : ٢٠١١/٢٢٠٢٢

الترقيم الدولى :I . S . B . N X 977-07-1518-2

إهداء

إلى

ونسة نورى وحورية المرهج

من أجل حرية الاعتقاد..

الفصل الأول

1

غادر الأستاذ رمزى الكهرمان منزله صباح الأحد متأخراً على غير عادته. ولعله لم يكن ليغادر قبل أن يسترضى درة، لولا أن عليه أن يقدم مرافعته فى العاشرة والنصف.

كان الرجل قد أزاح ستارة النافذة، وشرع يتمطى ويوحد الله، شأنه كل صباح، حين بادرته درة، وهى تتملّى شعثها فى مرآة الخزانة:

– احسبْ حسابك يا رمزي. والله والله لن أقضى هذا الصيف فى بعلبك حتى لو هبطت السماء على الأرض.

لملم رمزى نظراته عما تُظهِر النافذة من الأسطح والمآذن، واستدار لتمسح نظراته ظهر درة، وتمتم:

– يا فتاح يا عليم!

فهدرت درة ساخرة:

– قالْ صيّفى ببعلبك قالْ!

ولابد أنها كررت معزوفتها الصباحية المسائية منذ أيام: بعلبك حبس. حضرته بيرمينى بالحبس كل صيف حتى يخلو له الجو. حبيبى اتركنى بالشام واسرحْ وامرحْ على كيفك. يا سيدي: وصيف شتا، الله يهنيك.

ولابد أن دهشة رمزى مما تبدل من زوجته منذ الصيف الماضي، قد عاودته مضاعفة، شأنها منذ أيام، فألجمته مثلما أطلقت صراخه، أو مثلما جعلته ينهى حلاقته بجرح فى نهاية السالف، وبآخر فى وهدة الذقن، وكانت نديدا وابتهال قد أفاقتا هلعتين.

لكن ذلك ليس مهماً، وليس مؤكداً، على الرغم من أن الأستاذ رمزى هو من رواه لشقيقه الأكبر والوحيد: الدكتور عبد الواسع، شاكياً ونادماً على أنه خرج من البيت دون أن يسترضى درة، وهو مالم يفعله من قبل!

أما ما هو أهم وأكبر توكيداً، فليس غير حضور خطيب ـ ابن عم درة ـ فى غياب زوجها: الأزعر يحضن ابنة عمه، يأمر أصابعه أن تتهجد كالعادة، ترتجف الأصابع النحيلة وهى تنسرب فى فرجة القميص ثم تتوه فيما تتلمس: حبات العقد هذه أم وهدة النهدين؟ ثلاث حبات من الكهرب ـ هو يقول: كهرب، فتضحك وتقول: كهرمان ـ تتوسط الصدر الساطع، بينما شفتا خطيب تبسملان بحبات الكهرمان حبة حبة، قبل أن تنفلتا حيث يمكن لهما أن تبلغا من خدى درة ومن عنقها، وهى تتمنع عليه، كعهدها منذ رمته بجملتها الباترة:

– خلّصنا من الأفوكاتو.

ربما كانت الجملة قد أرعدت الشاب الذى بلغ العشرين للتو. لكن الجملة أيضاً هى ما جعلت شهوته سعاراً، ما دامت درة التى تكبره بعشر سنين فقط، تتمنع وتفح منذ أكثر من شهر:

– خلّصنا من الأفوكاتو.

– قولي: الله يرحمه.

صدح خطيب هذه المرة مبتسماً، وتشامخ وهو يشهر مسدساً فى وجه درة التى شهقت واربدّت وخرست، قبل أن تبلع ريقها، وتلتفت عن المسدس إلى باب الغرفة الموصدة على نديدا وابتهال، ثم تهمس:

– الله لا يرحمه.

غير أن الأستاذ رمزى الكهرمان قاد سيارته الستودبيكر ضحى الجمعة إلى مزرعة شقيقه عبد الواسع فى عمق الغوطة الشرقية.

كانت نديدا لابدة فى المقعد الخلفى كمن يدارى سوءاً. وكانت كف ابتهال تتهجى ملاسة جلد المقعد، بينما انزوت درة بجوار رمزي، تسترق نظرة خائفة منه، فنظرة مبهمة من صفوف الحور التى تطبق على الطريق الترابى الضيق. وبعد ما حسبته درة دهراً، طارت نديدا إلى حضن الجدة، وطارت ابتهال إلى البركة التى يزركشها سرب البط والأوز. وجلجلت الجدة أمرة الخادمة السوداء زهور بالإسراع فى تقديم الفطور.

بعد لقمتين وكأس الحليب نهض رمزى مستأذناً أمه وشقيقه:

– أمامى غداً اجتماع مهم للجنة الدستور. عليّ أن أكمل كتابة المذكرة التى سيدور حولها الاجتماع. أخشى أن النهار كله لن يكفيني.

ونظر إلى درة كأنه يلومها على ما أخذ يتواتر من تأخره وارتباكه فى عمله. ونظرت إليه كأنها تتوعده بعقاب شديد، ليس فقط جزاء على انسحابه، ولا جزاء على إصراره على سفرها مع الصغيرتين يوم الأحد إلى بعلبك، فلماذا إذن؟

استدار رمزى ليختصر الطريق إلى مكتب أخيه، بينما وقف عبد الواسع يسأل:

– ما موضوع المذكرة؟

قال رمزى وهو يلوح لابتهال ولسرب البط والأوز:

– الخصومة والجريمة. الخصومة السياسية والجريمة السياسية فى القانون.

تساءل عبد الواسع ساخراً وهو يلحق بأخيه:

– القانون الفرنسى أم القانون السوري؟

قال رمزى ساخراً أيضاً:

– ستقرأ ما أكتب. أريد رأيك.

– الرأى رأيك ورأيها.

- من هي؟

- لجنة الدستور يا أبو الدستور.

التفت رمزى مبتسماً، وفجأة غيبه الباب يلاحقه دعاء أمه. وفجأة أيضاً سمع صوته يأمر الخادمة السوداء زهور بأن توافيه بكأس الشاي. لكنه ما كاد يغلق باب غرفة عبد الواسع - كبرى غرف البيت الريفى الكبير - حتى أخذت يداه ترتعشان. وما كادت جلسته تهدأ خلف طاولة عبد الواسع حتى بلغت الرعشة ساقيه.

فوق المجلة التى تتوسط الطاولة ثبت كفيه هنيهة قبل أن يدفعها يميناً، ثم يساراً وهو يحدق فى الغلاف: المجلة الحقوقية. وتساءل وهو يفتحها عما يجعل أخاه يعود إلى هذا العدد القديم. وبعسر قرأ: حقوقية بوليسية انتقادية روائية فكاهية تبحث فى علم الحقوق والشئون العدلية والحوادث القضائية.

وبعسر استمهل الرعشة حتى قدمت الخادمة كأس الشاى وانصرفت. عندئذٍ تلفت يبحث عن الملفات. لكن الرعشة أرعدته إرعاداً، فانتظر حتى هدأت قبل أن يصب لعناته على النسيان والسيارة والملفات: أنت السبب يا درة، همهم، وحاول أن ينهض، ولم يصدق عجزه، فشبّ لاعناً درة، ولغا:

- ما بك يا رمزي؟

فإذا بالسؤال يقعده، واندفعت كفاه تعصران معدته عصراً، وفجأة صرخ:

- سكاكين ببطنى يا درة.

وعندما لحق به أخوه، كان قد تهاوى على السجادة.

بعد دقائق، بعد ربع ساعة، وربما بعد نصف ساعة، أطبق عبد الواسع جفنى رمزى مردداً الشهادة.

لم يطلق خطيب حفظى إذن رصاصة واحدة، لأن درة رمت بجملتها الباترة، وهى تعقص شعرها العقصة التى تطير بلب خطيب:

- صوت الرصاص فضاح يا ابن عمي.

عجز ابن العم عن أن يكتم حسرته على ما بذل من الجهد والمال كى يحصل على المسدس وعلى تسع طلقات، فرمته درة بنظرة باترة جعلته ينصرف مطأطئاً. وبعد يومين تسلل إلى بيت ابنة عمه التى لم يعرف من النساء سواها، وأشهر الخنجر ذا الحدين المدببين: لماذا؟

سألت درة وهى تخطف الخنجر وتقلبه على خديه اللامعين كعينى خطيب، فقال:

- الحد المدبب يا بنت عمي يجعل أذى الطعنة أكبر. هكذا يتهتك لحم الأستاذ رمزى و...

ولم يكمل خطيب، لأن درة ارتدت مجفلة، ولأن الخنجر سقط بين قدميها.

للمرة الأولى يطرق اسم الأستاذ رمزى سمعها منذ جهرت بالتخلص منه أمام مرآة الخزانة أو أمام خطيب: ما الفرق؟

كانت تقول: الأفوكاتو، فيقول خطيب، مثله مثل المرآة: الأفوكاتو، لكأن الثلاثة: هو، درة، والمرآة، يعنون شخصاً آخر. ولعل ذلك ما جعل درة تأمر خطيب أن يلتقط الخنجر. وبعد قليل أمرت أن يفكر فى أداة أخرى. ولأن خطيب حرن، أو بهت، بلعت درة ريقها بعسر، ثم قالت وهى ترخى شعرها من عقصته:

- الطعنة فضاحة يا ابن عمي، وقد لا تكون قاتلة.

تحلّب ريق خطيب على شمّة من الشعر الأشقر الذى غطى كتفى درة. وأخذت أصابعه تتقلص لائبة على الكتفين المتلئتين. وربما كانت شهوته ستتفاقم وتدفعه إلى أن يحمل درة من وسط الصالون إلى أقصى السرير

النحاسى العريض المرصع فى غرفة النوم، كما فعل فى نهارات كثيرة، لولا أن درة سألت ببرود:

- كيف يمكن أن تتخلص منه دون أن تترك أى أثر؟

وحين همّ خطيب بالكلام، أردفت:

- يجب أن ينتهى بعيداً عنك، بمفرده، دون أن تراه.

ولأنها كانت تخاطب نفسها، وليس خطيباً، لبث هو واقفاً ومذهولاً. وأصغى لصوتها - مثلها - يأمره بأن يحضر من الصيدلية سماً يقتل الأفاعى التى تملأ مزرعة الدكتور عبد الواسع. عندئذٍ فتح خطيب فمه ببلهٍ أضحكها. وربما كانت تلك ضحكتها الأخيرة لعشرين سنة قادمة.

بعد أقل من عشرين سنة بقليل، ضحكت لئلة القدر لدرة للمرة الثانية.

قبل ذلك بخمس سنوات كانت الضحكة الأولى، وكان قد مضى على درة فى السجن خمس عشرة سنة وتسعة عشر يوماً، أى إنها كانت قد بلغت الخامسة والأربعين.

كان كل من فى السجن من قدامى السجينات والشرطة والضباط، قد ألفوا أن يروا السجينة الأقدم درة حفظى فى أى مكان من السجن: صوتها لا يكاد يُسمع، خصلة شقراء واحدة - على الأقل - من شعرها تنفلت دوماً من تحت غطاء رأسها الأبيض الناصع، حاجباها رفيعان جداً، ويبدوان دوماً مرسومين بعناية، كأنْ لا عمل لدرة إلا أن تنتفهما، خطواتها قصيرة ومتزنة، وربما كان ذلك كله يضاعف غموض الغواية التى تشيعها درة أينما حلت.

وكانت درة تدرك ذلك، وتلجم تلذذها حين تلمح أثراً له فى نظرة أو همسة من رجل، إلى أن التقطت فى مكتب مدير السجن الكابتن مرقص العميا، ما سوف يتردد ملء السجن، عالياً فأعلى، عن سجين على بعد نَفَس، حيث يُحشر الرجال بعيداً جداً أو قريباً جداً من محشر النساء.

إنه المقدم حسنى الزعيم الذى قد يقال له بعد ساعة: إفراج، وقد تغادر درة نفسها السجن قبله، على الرغم من أن عليها ألا تغادره إلا محمولة على آلة حدباء.

قيل: هذا هو من طُرِدَ من الجيش، وحُكِمَ عليه بالحبس إلى أمد غير معلوم، جزاءً على ما لهط مما ائتمنه عليه الفرنسيون، وربما لذنب أكبر.

وقيل: المقدم حسنى نظيف اليد، وصعب المراس، وفى مثل عمر درة. مسرف فى كرمه وفى شربه العرق كل ليلة، سواء فى مكتب الكابتن مرقص العميا، أم فى ركنه الفسيح النظيف فى محشر الرجال.

كانت درة تتردد على مكتب مدير السجن بين يوم ويوم، تضع لمستها فى تهوية أو كنْسٍ أو مسحٍ أو ترتيب، وتختفي. كانت تختار دوماً المصادفة الغامضة التى يخلو فيها المكتب من الزوار. وفى واحدة من المرات النادرة التى أخطأت فيها، شاهدت هذا الذى ستحفظ التماعة صلعته وذقنه، كما ستحفظ بدانته وفجور نظراته ووقع صوته المؤثر: المقدم حسنى الزعيم.

فى المصادفة الثانية التى لم تتأخر، اقترح الكابتن مرقص على درة أن تتولى غسل ثياب المقدم، فرحبت ابتسامتها وحركة يديها والنظرة التى رشقت المقدم بها. ولم يتأخر بعد ذلك تخفيض الحكم عليها من الإعدام المؤجل إلى السجن المؤبد.

فى المصادفة الثالثة التى تأخرت كثيراً، أثنى المقدم حسنى على صلابة هذه المرأة التى واجهت الحكم بالإعدام، والحكم بالسجن المؤبد. وأسعد درة أن الرجل لا يصدق أن هذه المرأة الحلوة اللطيفة الضعيفة، يمكن أن تكون قاتلة، ولمن؟ لزوجها المحامى الأستاذ رمزى الكهرمان، أبو الدستور، الشهيد: ردد المقدم حسنى بجلال عندما التقى درة أول مرة.

صبيحة عيد الفطر رفضت درة ما مدّ به المقدم يده من أجر على غسل الثياب ومن عيدية، وخاطبه الكابتن مرقص:

- قلت لك لن تقبل. أنا أعرفها جيداً.

فخاطبها المقدم حسنى بعزم وبمودة:

- اسمعى يا درة حفظي: عندما أحكم سوريا، سأعفو عنك. أقسم بشرفى العسكري.

لم تنبس درة بحرف، بل بدت كمن تنتظر هذا الوعد طوال عمرها، وتصدقه. ولن ينسى المقدم حسنى من بعد نظرة درة العميقة الشغوفة التى رآها تقرّب اليوم الذى سيحكم فيه سوريا. وكما فى المنام رآها تتضرج وتقطر شهوة، فخفق فؤاده خفقاً مروّعاً، والتهبت أنفاسه، فناشدتها نظراته أن تطير إلى حضنه، لكنها كانت تلتفت عنه وهى تأمر بالانتظار، ثم تختفي، ربما لغمضة عين، وربما لساعة بطولها. ولما عادت كان الكابتن مرقص قد غادر مكتبه، وكان المقدم حسنى مسمراً كما تركته، سوى أن ظلال غيظ وبَلَه تحوم فوق وجهه، فابتسمت وكفها المضمومة تقترب من وجهه، ثم تنفتح، فتغشى عيناه بسواد مزرقّ أو بزرقة مسوّدة، بينما درة تهمس:

- احتفظْ بهذه الحبة يا سيدي. معها تبلغ مرادك بإذن الله. معها لن يكون للخوف طريق إلى قلبك.

فأغمض عينيه مستسلماً لقشعريرة راحت تسرى فيه، حتى إذا استولت عليه، باعد جفنيه، وتأمل الحبة التى لبدت فى كفه، وراحت تتلون كما شاء لها الضوء الذى سطع فجأة.

- ما هذه يا درة؟

سأل بصوت ذاهل، فقالت:

- عمرك ما شفت الكهرمان يا سيدي؟

- تقصدين الكهرب؟

سأل متردداً، فخيل إليها أن صوت خطيب يترجع فى فج عميق من روحها، ومن زمن سحيق، فحارت بين أن تبتسم وبين أن تزورّ، وأسرع صوتها:

- قل: الكهرمان. كله واحد.

وأسرعت أصابعها إلى ياقتها لتسحب بتؤدة خيطاً أسفر فجأة عن حبتين صفراوين، وقالت:

- الله سبحانه وتعالى هو الحامي، لكن حبة الكهرمان حمتنى من يوم رمونى فى هذا الحبس.

وصمتتْ ريثما تأمّل الحبّة فى كفه، وفرك عينيه، ثم تابعت:

- افركها وشمّ وصلّ على النبي.

وانتظرت حتى شمّ وتشمم وهللّ وصلّى على النبي، ثم تابعت وهى تمسك حبتى عقدها:

- كانت الحبة التى معك تتوسط هاتين الحبتين من يوم تزوجت. هدية حماتي.

وأعادت الحبتين إلى وكرهما قبل أن تتابع:

- يوم ولدت ابنتى الأولى أهدتها جدتها عقداً صغيراً من العقيق اليماني، الحبة منه بياضها مقطّع أحمر على أسود على أصفر، مشطّبة تشطيبا يا سيدى سبحان الخالق. كانت حماتى تقول هذا هو الجزع، يجلب الرزق ويزين حامله بالتأني والوقار. ويوم ولدت ابنتى الثانية أهدتها جدتها عقداً صغيراً من اللازورد الأزرق. تعرف ريش الحمامة الزرقاء حول رقبتها؟ أزرق على أحمر مما تراه أيضاً فى ريش الطاووس يا سيدي. ولكن هذا كله يهون أمام مسبحة العجوز. من الكهرمان الأسود يا سيدى إلا الشاهدين: مرة تراهما بلا لون ومرة بلون السماء، وفى قلب كل شاهد ما تقول كأنه فراشة. كانت حماتى تقول الكهرمان يشفى من وجع الظهر والمفاصل والمعدة، ولم أصدقها حتى جربت. والله يا سيدى دواء لجسمك وروحك، وبكرة تقول: درة قالت.

عندما أهلّ عيد الأضحى انقلب مساؤه الأخير إلى ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر، والتى ضحكت لدرة وحدها من بين الناس أجمعين. وقبل أن تتلاشى الضحكة كان المقدم حسنى قد خرج من السجن، وأعيد إلى الجيش، ففغر ليل درة ونهارها كما فغرت روحها. ولما طال بها الفغر لبدت تنتظر ضحكة ليلة القدر للمرة الثانية. ولم يطل الانتظار: أقل من خمس سنوات، تناهى إلى درة أثناءها أن المقدم حسنى رُفِّعَ إلى رتبة نائب الزعيم، ثم رُفِّع إلى رتبة الزعيم، وصار قائد الجيش الذى يفضل أن يُنادى بسيدى الجنرال. وحين بشّرها المقدم مرقص العميا - كانت رتبته ابنة يومها - أن سيدى الجنرال أطاح برئيس الجمهورية، وحلّ محله، لم تنبس درة بحرف، ولم يبد عليها أنها فوجئت. ومثل رفة الجفن أخذت الأيام تنطوى حتى بلغت درة الخمسين. عندئذٍ تصدعت أركان السجن بالنبأ العظيم.

كان رباح أبو شلة هو أول من تلقف النبأ، مبرهناً مرة بعد مرة على أن له العلامة الفارقة والكبرى للصحفي، أى أن يكون الشمام الذى يحسده أبرع الكلاب، ما دام يلتقط الخبر قبل شيوعه، بل وقبل أن يصير خبراً!

كان رباح قد أفاق متأخراً، كما تعوّد فى الأسابيع الأخيرة، منذ صدر قرار سيدى الجنرال بإلغاء تراخيص الجرائد، ومنها الجريدة التى يعمل فيها رباح: ألف ياء.

لم تكن أمه فى البيت، ولا ابنه، فاكتفى من الإفطار بأن أعدّ كأس الشاي، ونقر فتات الجبن الذى لابد أن يكون رمزى أبو شلّة ـ هكذا ينادى رباح ابنه أحياناً ـ قد زين به الطبق.

كان رباح قد تشمم ذلك القرار قبل إعلانه، فأسرع إلى سيده، أى إلى صاحب جريدة ألف ياء. لكنه بدأ يعدد الجرائد التى سوف يغلقها الجنرال غداً أو بعد غد: الفيحاء، المنار، النذير، الإنشاء، الرأى العام، سوريا الأرمنية، المرأة، اليقظة، وأخيراً: ألف ياء. لكأن رباح كان يؤجل نقمة سيده

المنتظرة، أو يخفف منها. لكن النقمة جاءت مضاعفة، فأسرع رباح بتتمة الخبر: التعويض على صاحب الجريدة وصاحب المطبعة. ولأن رباح أنس من سيده رضا، تابع نقلَ نتف أخرى من الخبر، كمنع إعطاء التراخيص بجريدة لأحد فى المستقبل، أو كتعيين أصحاب الصحف والمحررين كموظفين فى مديرية المطبوعات. لكن سيده رماه بنظرة زاجرة، فخرس، وأطرق هنيهة قبل أن تنفجر به الصيحة:

- رحْ من وجهى يا غراب البين.

فامتلأ رباح رعباً مثلما يمتلئ الآن وهو يرى أمه تطبق باب الدار خلفها بعنف، وتتقدم شاحبة، أصابعها تعصر أصابع حفيدها رمزى أبو شلّة، وعيونهما تحدق فى رباح كأنها تحذر من شر مستطير، أو تستنجد به من شر أعظم. ولم يطل انتظاره، إذ تمتمت أمه:

- أم نديدا خرجت من السجن.. درة..

ولأنها عجزت عن أن تكمل عبارتها، ابتسم كأنما يصفح عن زلّة، أو يلاقى مزحة. ولغا لسانه بالسؤال المكذب أو الساخر:

- درة حفظى خرجت من السجن؟

أومأت الأم مؤكدة، بينما اندفع رمزى نحو أبيه، كأنه يطلب الأمان من خطر وشيك ومحتوم. ومن جديد لغا لسان رباح بالسؤال المكذب أو الساخر:

- من أين جئت بالخبر يا أمي؟

قالت العجوز:

- خالتك رأتها البارحة عند السبيل وسلمت عليها.

- يجب أن أراها.

همهم رباح وأصابعه تمسح على خصلات رمزى المذهبة، بينما كان قلبه يرجف لذكرى خصلات نديدا المذهبة. وأسرع بالخروج بينما كانت أمه تسأل:

- من التى يجب أن تراها؟ خالتك أم حماتك؟

وما إن لفظه باب الدار حتى تضاعفت رجفة قلبه، إذ لوحت له خصلة مذهبة من شعر حماته، فتاه بين شقرة ابنه وشقرة نديدا وشقرة أمها. ولم يصحُ مما اعتراه إلا على باب بيت خالته التى بادرته بلا رحمة:

- درة حفظي خرجت من السجن بعفو خاص من الجنرال نفسه، وسألت عن ابنتها وعنك، كأنها لا تعرف أنك طلقت نديدا، ولا تعرف أنها صارت جدة!

وهكذا، لم يبق على رباح إلا أن يبلع الحسرة على إغلاق جريدة ألف ياء. فلولا ذلك لجعلها تَفْجُرُ صباح الغد بالمانشيت الأحمر: الجنرال يعفو عن التى قتلت زوجها. لالا. هذا شخصى جداً. سيكون المانشيت: الجنرال يعفو عن التى قتلت (أبو الدستور). هذا خبر سياسى مئة بالمئة. بالأحرى: قنبلة سياسية، فالقراء سيتساءلون: من هو أبو الدستور هذا؟ أما رباح أبو شلة فسيتساءل عمن لا يزال يذكر حامل هذا اللقب: المرحوم - بل الشهيد - الأستاذ رمزى الكهرمان!؟

نديدا الكهرمان نفسها كانت قد نسيت لقب أبيها عندما تزوجت رباح. الدكتور عبد الواسع الكهرمان نفسه لم يذكر لقب شقيقه أمام رباح غير مرة أو مرتين. ورباح نفسه لم يكن أكبر وفاءً. ولكن ما النفع ما دامت جريدة ألف ياء مغلقة؟ بل ما النفع ما دام أحد لن يجرؤ على أن ينشر خبراً ملغوماً عن الجنرال كهذا الخبر؟

إلى من سيحمل رباح الخبر إذن؟

فرّ رباح إلى المرج الأخضر من خالته، ومن السؤال، ومن أمه، ومن الحارة، كما لم يفعل منذ سنين. وعلى صفحة النهر أخذت عيناه ترسمان صورة فصورة لدرة حفظي، ولم تكن صورة لتكتمل. فرباح لم ير حماته سوى مرة واحدة قبيل زواجه من نديدا. أما الآن، فلن يكون بوسعه أن

يراها، مـهـما يكن راغباً بذلك، مـا دام قـد طلّق نديدا. بالأحـرى، مـا دامت نديدا قد طلقته، كما يلذ له أن يعترف، ولكن فقط أمام نفسه، وفى خلوة مثل خلوته الآن على شفا النهر.

عندمـا ابتلى رباح بعشق نديدا، لم يكن بحاجـة إلى من يذكـره بأمـهـا القاتلة. ليس فقط لأنه الصحفى نو العلامة الفارقة والكبرى - أي: الشمام - بل لأن الجـامـعـة كانت تصـخب بكل مـا يـتصل بالطالبـة نديدا رمـزى الكهرمـان: حـمرة خديها واكـتناز ردفيـهـا، الشـقرة الفضـاحـة حتى فى الحـاجـبين والأهداب، البـياض اللاهب فى ظاهر الكفين، أرشق مـن الغـزال وأزهى من الطاووس، أحـمـر مـن الشـفـق وأبيض من اللبن، ومـثـل ذلك مـا اشتـهر من نقـاء صوتها، ومن نصاعة لغتها العربية ولغتها الفرنسية. هكذا بات رباح أبو شلة يعرف الكثـيـر عمن استـهوته، قبل أن يصطنع الزيارة الأولى لمكتب عمها المحامى اللامع الدكتور عبد الواسع الكهرمان.

يومئذٍ، كان رباح قد ودّع سنوات التمرين، ابتداءً بملحق جريدة السياسة (مـجلة السـينمـا والراديو) فملحق مـجلة الأحـد (الإذاعـة) ثـم فـى جـريدة الشـعب، وفى جـريدة الإنشـاء، وكـان قـد بلغ التـاسـعـة والعشـرين، والتـحق بجريدة ألف ياء، تسبقه سمعته كأفضل صـحفى شاب وشمام. ولكى يضفى أهمـية أكـبر على زيارتـه للدكتـور عبـد الواسـع، وعلى نفـسـه، ولكـى تكون له زيارة فزيارة من بعد، ادعى أنـه يعدّ العدة ليكتب سلسلة تحقيقـات صحفية عن قادة الكفـاح الوطنى ضد الاستـعمـار الفرنسي، وسيبدأ بأصـغرهـم سناً: رمزى الكهرمان الذى لاقى وجه ربه قبل أن يكمل الحادية والثلاثين.

اتقدت الحمرة التى لازمت خدى الدكتور عبد الواسع منذ لازم النبيذ، وقـاطع ما عداه من المشروبات الكحولية وغير الكحولية، الساخنة والباردة. وأصابت العدوى وجه رباح، فاحمرّ خداه عندما عدد الدكتور عبد الواسع ما يذكر من كتابات الصحفى الشـاب، ليس فى جريدة ألف ياء وحـدهـا، بل فى

جريدة الإنشاء قبلها، وفى جريدة الشعب، قبل قبلها. واتقدت حمرة خدى رباح عندما تمنى الدكتور عبد الواسع أن يكثر بين أقران هذا الصحفى النابه من لهم مثل روحه الوطنية. أما المفاجأة التى رجّت رباح رجّاً فكانت أن يحدد له مضيفه مكان اللقاء التالى فى البيت!

هو ذا الآن ينأى عن المرج الأخضر ليقترب من البيت المتربع على واحد من عروش حى المهاجرين. ومن أمام البيت المسوّر بالياسمين الغض يلوّح رباح للنهر، ويتملى من فتنة الألوان ملء الشام، ثم يلملم رموشه ليفلشها بعد قليل، فتروح تتمسح بأجناب الصالون المدجج بخزائن الكتب المجلدة، وبالسجاد الذى غاصت فيه خطوات رباح كما سيغوص فى الكنبة التى أشار إليها الدكتور عبد الواسع.

قبل أن يتواءم رباح مع الألوان الثقيلة، والإضاءة الثقيلة، والأنفاس الثقيلة، كان الدكتور عبد الواسع قد شرع يتدفق بما لن تلحق به أصابع رباح، ولا أوراقه، ولا قلمه، ولا نظراته، ولا لهاثه، كى يشهد بأم عينيه ذلك الضحى الذى جلّل فيه الموت: أمى وزوجتى افتخار وابنتى أخى ابتهال ونديدا والخادمة زهور ودرة نفسها: لا تنشر يا رباح كل ما تسمع. دعنى أقرأ ما تكتب قبل النشر.

بهذا الأمر سيوقّع الدكتور عبد الواسع لما يتحدّث به فى ستة لقاءات أنعم بها على رباح، خلال تسعة وعشرين يوماً. وكان رباح قد بات بعدها يُكبِر، كما لم يُكبِر أحداً من قبل، ذلك الشاب الوسيم الرقيق الذى ما إن تخرج من معهد الحقوق حتى تزوج من درة حفظي، وما إن تزوج حتى رأى نفسه سجيناً فى قلعة أرواد مع من كانوا مثله شوكة فى جنب الاستعمار: قال الدكتور عبد الواسع بجلال.

وبجلال أكبر تابع وعيناه تهوّمان فوق رأس رباح:

- من السجن أسرع أخى رمزى إلى باريس ليتابع الدراسة، وأنا على خطاه مشيت من معهد الحقوق أيضاً إلى باريس. خالفت أخى فقط فى أنى لم أقم بما يقودنى إلى السجن، وكذلك فى أنى لم أصطحب العروس إلى باريس. غبت سبع سنين دفعة واحدة، بينما لم يكمل أخى سنته الثالثة، ولم يحصل على الدكتوراة التى حصلت عليها. انظر..

انقادت عينا رباح لسبابة الدكتور عبد الواسع وهى تشير إلى الشهادة المؤطرة بإطار بنى عريض ومرصّع بكل ما يلمع. وبوغت رباح بالشهادة تتوسط صورة أكبر منها لشاب يبتسم، وأخرى أصغر لعجوز عابس يعتمر الطربوش. ولعل المباغتة كانت ستوقف رباح أمام الإطارات الثلاثة، لولا أن سبابة مضيفه أشارت إلى صورة الشاب فصورة العجوز، وتمتمت متأسية: هذا هو الشهيد رحمه الله، وهذا هو الوالد رحمه الله. وودّ رباح لو تفسح له السبابة المضيفة كى يتأمل ما بين نديدا وأبيها - رحمه الله - من شبه، لكن الدكتور عبد الواسع تابع بحماسة:

- فضّل أخى العودة من باريس بعدما أمرضه الحنين إلى زوجته. أنا أشهد، وكل من يعرفه يشهد، على أنه لم يقرب طوال حياته امرأة غير زوجته، لا فى باريس ولا فى غير باريس. لسوء الحظ يا رباح، لم تنقض ستة أشهر بعد عودته حتى رأى نفسه منفياً إلى الحسكة مع رفاقه الذين صبت فرنسا غضبها عليهم. ويوم عاد من المنفى رزقه الله بابتهال.

عندئذٍ أطلت نديدا وخلفها الخادمة التى يتقد سوادها كما يتقد بياض نديدا. وربما كان ذلك فى اللقاء الثانى أو الثالث، لكن رباح سيعدّه اللقاء الأول، ما دامت نديدا قد أطلت، وحيّت، وصافحت، وجلست بجانب عمها الذى رقّ صوته، بينما راحت نظراته تهوّم فوق نديدا:

- كانت أمها تتمنى أن تلد صبياً ورمزى يتمنى أن تلد بنتاً. لكى يغيظها ويغيظنا كلنا كان يدعو: يا رب ارزقنى ببنت حتى لو كانوا إيديها حواشيش

وإجريها مناكيش. كنت أقول له: هذا دعاء الفلاح لا دعاء المحامي، فيضحك ويقول: كلنا بشر.

وعبثاً حاولت نظرات رباح فيما تبقى من ذلك اللقاء أن تتعين ما إن كان لنديدا ملمح ما لصبي، بينما كان الأستاذ رمزى الكهرمان قد صار يحاضر فى معهد الحقوق، كما صار عضواً فى لجنة صياغة الدستور. وسرعان ما أورثه عمله فى اللجنة، ودفاعه المستميت عن الدستور، ذلك اللقب المنسيّ: أبو الدستور: مثله مثل مدحت باشا نفسه يا رباح . حمحم الدكتور عبد الواسع بلوعة، وكانت ذراعه تحتضن كتف نديدا، وقلب رباح يرفرف مثل جفنيه.

من لقاء إلى لقاء سيتضاعف تأثر عبد الواسع كلما أمعن حديثه فى مصرع شقيقه، أو فيما أعقب مصرع شقيقه. وكان كل ذلك يتشكل من جديد فيما يكتب رباح أثناء اللقاء، أو بين لقاء ولقاء. كما كان كل ذلك يتشكل ثالثة كلما خاب أو أفلح سعى رباح إلى مصادفة نديدا فى الجامعة، بعدما يئس من تكرار حضورها إلى مجلسه مع عمها. حتى إذا أعلن اللقاء السادس أنه الأخير، بدا رباح ممروراً وملتاعاً. ولعله لذلك لجأ إلى أمه، فأحلها محله، وأحل نفسه محل الدكتور عبد الواسع، لتشتبك الذكريات والحكايات والأصوات، تماماً مثلما كان فى جنازة الشهيد رمزى الكهرمان: كنت أنا وخالتك وأم رمزى والست افتخار ودرة نفسها وكثيرات كثيرات يا ابني. لم تعرف الشام قبل ذلك اليوم جنازة تخرج فيها النساء مثل الرجال. جنازة يا ابنى بكى فيها الحجر والطير والشجر . قالت أم رباح، فعاجلها رباح كما عاجله الدكتور عبد الواسع فى اللقاء الأخير:

- كان النهار لاهباً، وقبل أن يبرده الغروب همس اثنان أو ثلاثة من أصدقاء رمزى منذ أيام الحبس فى قلعة جزيرة أرواد: قد يكون فى موت رمزى جريمة.

في المساء التالي كان الهمس قد بات صخباً في مجلس العزاء: الشهيد قضى اغتيالاً. وتضاعف بهوت الدكتور عبد الواسع وهو يوافق على ما اقترحه اثنان أو ثلاثة من أصدقاء رمزي ممن وطّد النفي إلى الحسكة عرى صداقته معهم.

في غفلة من الجمع كان قبرٌ قد نُبِشَ، وجثة قد شُرِّحت، والشام قد اصطخبت بآثار تصلبٍ في شرايين قلب المرحوم. وبعد قليل كانت قد اقُتطعت قطعة من دماغ المرحوم، وقطعة من معدة المرحوم، وقطعة من رئة المرحوم، وأُرسلت القطع إلى التحليل في بيروت، لماذا؟ لأن مؤشرات التشنج والارتعاش سمّية.

كان عبد الواسع أول من روى أنه شاهد أطراف المرحوم وشفتيه ورموشه جميعاً ترتعش. ثم شاهدها جميعاً تتشنج. وكررت الرواية أمه أمام أصدقاء المرحوم أولاً، ثم أمام قاضي التحقيق، بعدما جاء الخبر اليقين من بيروت:

- كان يا روحي يرتعش ويتقيأ. طرت إلى الخزانة لأحضر سفوف الكهرمان. رجعت، كان همد يا روحي.

ومثل حماتها كررت الست افتخار الرواية، سوى أنها أضافت أن سفوف الكهرمان توقف القيء عادةً، لكن قيء المرحوم لم يتوقف، فأحضرت هي حكاكة الزمرد: ربع ملعقة صغيرة أو أقل نوبتها في نصف كأس ماء أو أقل، وشربها المرحوم. لكن السم كان قد سرى يا حسرتي، والزمرد لا يخلصك من السم إذا ما سرى.

أما درة فكانت قد فقدت القدرة على النطق منذ أيام، مثلها مثل الطفلة نديدا. ولسبب ما، طلب عبد الواسع إعادة التحليل. وسرعان ما تكرر الخبر اليقين. ولسبب ما استعادت درة القدرة على النطق، مثلها مثل الطفلة نديدا، وأخذت الشام تصطخب بسمّ الستركنين الذي تناول المغدور منه ما يكفي لقتل عشرة!

هنا كانت أم رباح قد وقفت مذهولة: أذناها تكذبان وعيناها تصدقان، كأنها رباح نفسه مطأطئاً أمام الدكتور عبد الواسع الذى طاب له أن يتقلب فى أثواب قاضى التحقيق، والنائب العام، والمحامي، والمتهم، ورئيس محكمة الجنايات، ليتبين أن المغدور المرحوم ـ من الألسن ما بات يكتفى بالقول: المغدور ـ كان يتناول قبل أيام من وفاته، أو قتله، أو اغتياله ـ كما باتت ألسن تردد ـ برشامات ضد الإسهال والمغص. والستركنين لا يمكن تناوله إلا كبرشامة، وهو كالنصر، لا يحتاج إلا إلى صبر ساعة أو أقل من ساعة، فمن هو القاتل؟

سأل المحققُ عبدُ الواسع الكهرمان المتهمَ رباح أبو شلة، فسأل المحققُ رباح أبو شلّة المتهمةَ أمه، فصدعهم السؤال جميعاً مرة بعد مرة: شقيق المغدور الوحيد المدعو عبد الواسع الكهرمان، وزوجته المدعوة افتخار الكهرمان، وزوجة المغدور درة حفظى وابن عمها المدعو خطيب حفظي، بل والخادمة التى لم يسمّها أحد.

قبل أن ينتهى التحقيق كان قد بات لكل من المذكورين والمذكورات ظله الظليل. ولأن لقاضى التحقيق من حاسة الشم ما ليس للصحفى الشمام رباح أبو شلة نفسه، فقد أثارت شكوكه زياراتُ خطيب لدرة فى بيتها، منذ قرأ تقرير الظل رقم ١: اليوم الأحد الساعة العاشرة صباحاً دخل المشبوه إلى بيت المشبوهة، ولم يخرج حتى أذان العصر.

فى اليوم التالى ـ الإثنين ـ رصد الظل نفسه أدهى مما رصد البارحة. فالمشبوه دخل بعد أذان الظهر، وعندما أذّن المؤذن لصلاة العشاء، لم يكن قد خرج بعد. وضاق قاضى التحقيق بالانتظار فصاح:

– كل هذا والمرأة فى العدة!

أرعدت الضجة من يراقب بيت الشهيد المرحوم المغدور، ومن يراقب خطيب حفظي، وندم القاضى على ما ضيّع من الوقت والجهد فانتزع الأرملة

من خلوتها بابن عمها، ورماها فى دائرة العدلية، بينما رمى ابن عمها فى نظارة المخفر.

بدا رباح وهو يخلّف وراءه المرج والنهر، كمن ينفض عن قبعته وكفيه وكتفيه أثراً خفيفاً وطرياً لرذاذ من صور أو أفكار. وكانت نسائم العصارى الناعشة تُسلس له الطريق، وتقربه من مكتب الدكتور عبد الواسع: هذا وحده من عليك أن تنقل له خبر خروج درة - إياك أن تقول حماتي - من السجن.

على الرصيف المقابل للمكتب وقف يتأمل النوافذ العتيقة الوسخة المغلقة. وبيسر حددت عيناه ما يخصّ من النوافذ مكتب رمزى الكهرمان الذى ظل مغلقاً منذ مصرع صاحبه حتى افتتحته ابنته المحامية الأستاذة نديدا الكهرمان: ما من أحد يذكر أنها كانت زوجتك. حتى أنت ما عدت تقترب من هنا، ولا من أية محكمة، ولا من حى المهاجرين كله، فهل كان كل ذلك إلا لكى لا تصادف تلك التى ستظل حسرتك الناشبة حتى تموت؟

على مهل أدار ظهراً وغذّ خطاه إلى نهاية الرصيف. وعبْر تلك المسافة القصيرة كانت درة حفظى تتماثل له عوضاً ما عن كل ما ضيّع، أو – على الأقل – إشارة قوية إلى العوض المرتجى.

على درة حفظى أن تصل ما انقطع بين رباح ونديدا. وسواء أنجزت ذلك أم لا، عليها أن تصل بين رباح وبين الجنرال الذى سيصير رئيس الجمهورية عما قريب. ولخطى رباح إذن أن تنتشى بالحلم وهى تقصر وتتثنى أماماً أو يميناً أو يساراً، تتأمل دار الإذاعة، تلوم سائق سيارة الزبالة لأنه نسى غطاءها مفتوحاً، تقطع شارع مسلم البارودي، تحاذى النهر، تلوى قبل أن تبلغ مدرج الجامعة، تعبر ببنك سوريا ولبنان، تتأمل شرطى المرور فى منتصف الشارع، تتشهى أن يحل رباح محله فيعتمر الخوذة البيضاء، ويتمنطق بالحزام الأبيض، ويزنر بوطه بالكاتر الأبيض، ويداه تلاعبان السيارات بالدائرة الحمراء والدائرة البيضاء حتى مغيب الشمس. عندئذٍ

ستنوب عنه الإشارات الكهربائية بينما تعجل خطى رباح نحو جسر فيكتوريا. وقبل أن تبلغ الجسر عليها أن تتلفت باحثة عما يقلّها فوراً أو سريعاً إلى المهاجرين، فلابد أن الدكتور عبد الواسع في بيته الآن، ينتظر على أحر من الجمر خبر خروج درة من السجن، تماماً مثلما بدا لرباح ذات لقاء ينتظر على أحر من الجمر خبر موت درة في السجن.

يومئذٍ، كان رباح قد صاهر بيت الكهرمان. وكان لا يزال يجدد الوعد بالكتابة عن الراحلين من قادة الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي، ابتداءً بأصغرهم: رمزي الكهرمان.

كان الوقت صيفاً. بالأحرى، في عز الصيف، وليس في أوله، مثله الآن. كان الوقت أيضاً بين العصر والمغرب، مثله الآن، سوى أن النسائم كانت مغبرة، وبلا طراوة. وخيّل لرباح أن الدكتور عبد الواسع قد ملأ الشرفة الفسيحة بمنصةٍ وقفصٍ وكراسٍ ودرك وصحافيين ومحامين وقاض ونائب عام ومتهمة ومتهم. وراح الدكتور عبد الواسع يخطب بما لم يفقه رباح منه حرفاً. واشتبكت خطابة الدكتور بهتافات تتلاطم من ساحة المرجة حتى رأس جبل قاسيون. أي إنها حفّت بدار القضاء، وشقّت عنان السماء كما شقت الحناجر. وما إن حكمت المحكمة حضورياً بالإعدام شنقاً على المجرمة درة حفظي، حتى انفجرت المحكمة بصيحة المتهم خطيب حفظي: درة بريئة يا سيدي، فلم يسمع أحد الحكم عليه بغرامة قدرها خمسمائة وعشرون مجيدية، وبالسجن سنوات ضاع عددها.

لم يصدق أحد على الحكم بالإعدام، لذلك لم تمت درة في السجن، كما كان الدكتور عبد الواسع وأمه وزوجته يتمنون. وفي تلك الأمسية المغبرة الناشفة التي يضيق رباح بذكرها الآن، خاطبه الدكتور عبد الواسع بصوت ينضح مرارة:

- أصابع فرنسية هي التي بدلت الحكم على درة بالإعدام إلى السجن المؤبد. لماذا تظن أنهم فعلوا؟

تمتم رباح ببلاهة:

- لماذا يا دكتور؟

تريث عبد الواسع طويلاً قبل أن يندفع فى خطبة جديدة، سوى أن صوته جاء أهدأ:

- خطيب حفظى أرسل رسالة إلى الرئيس الفرنسي. لا زلت أحتفظ بصورة لها ستراها فيما بعد. شريك المجرمة فى جرمها كتب بخط يده: رمزى الكهرمان عدو فرنسا لذلك قتلته يا سيدي. هذا واجبى فى خدمة فرنسا يا سيدي. جريدة النداء نشرت الرسالة.

تمتم رباح ببلاهة:

- لكن النداء تصدر فى بيروت.

تجاهل عبد الواسع مقاطعة رباح وتابع بأناة:

- هنا فى الشام، نشرت جريدة الشعب رسالة أخرى من خطيب حفظي. المجرم أنكر: لا علم لى برسالة إلى رئيس فرنسا ولا خبر! أما العجب يا رباح فكان فيما نشرت بعد ذلك مجلة الناقد: صورة عن رسالة المجرم إلى الرئيس الفرنسي. عندما ستقرأ الرسالة ستحكم أنها بيان سياسى وليست طلب استرحام. بل ستظن أن من كتبها محام ضليع، وليس مجرماً لم يدخل مدرسة!

تمتم رباح ببلاهة أكبر:

- يمكن أن يكون أحدهم قد كتب الرسالة، محام أو سياسى أو صحافي، والمجرم وقّع عليها.

فأسرع عبد الواسع كأنه خاف من مقاطعة أخرى:

- المجرم، قبل أن يسترحم، طالب بالعفو عمن فى السجون، شرط قبولهم بالتجنيد لصالح فرنسا. المجرم طالب بتأسيس معاهد فرنسية بدلاً من

المدارس السورية، وطالب بفرض التجنيد لقاء راتب. قلت لك الرسالة بيان سياسي. ألا يكفى هذا دليلاً على أن ما وقع لأخى لم يكن جريمة عادية، بل اغتيالاً سياسياً؟

لم يأبه عبد الواسع بجواب رباح. ورباح نفسه ما عاد يذكر بما أجاب. لكنه تنبه لأول مرة إلى أن عبد الواسع ندر أن وصف ما وقع لأخيه إلا بالاغتيال. ولما تمتم بذلك، وببلاهة أيضاً، أركز عبد الواسع نظراته فى صورة أخيه، وردد بصوت يتخافت: اغتيال.

ولما تلاشى الصوت، انتفض صاحبه كما انتفض رباح الآن، كأنه يسمع جرس الترامواى لأول مرة، أو كأنه يرى بيت الدكتور عبد الواسع الكهرمان لأول مرة. أما المفاجأة الكبرى فكانت حين بادره الدكتور عبد الواسع، قبل أن يرد تحيته:

- درة حفظى خرجت من السجن.

تبرزخت درة ذات ليلة، قبيل العفو عنها، فلا هى يقظى ولا هى غافية، وليست حية ولا ميتة. وظلت كذلك حتى هجم على الغرفة هاجم هائل الطول وهائل العرض. وظلت شلاء حتى عاد الهاجم إلى آدميته: خطيب؟

صاحت هلعة، فمكذبة، فمشوقة، بينما كانت أنفاس خطيب قد أخذت تلفح وجهها. وزادها هياجاً أنها صغرت عشرين سنة، وربما أكثر، وأن خطيب لا يزال حيران بين أن يكون رجلاً وبين أن يكون فتى. ومثلما كانت أصابعه تفعل فى ذلك الزمن المستحيل، راحت الآن تتهجد ثم تتسرب فى فرجة القميص، ثم تتوه فيما تتلمس:

- لا زال العقد معك يا درة؟

سأل فغمغمت بما لم يتبين، فسأل:

- أين الحبة الثالثة؟

- تحمى رئيس الجمهورية يا حبيبي.

همست درة، فبهتتْ أصابع خطيب وارتدت، فعانقتها أصابع درة وعادت بها بأناة إلى وهدة الصدر. ولما سرى الأمان فى جلد خطيب، دنت شفتاه تبسملان بحبتى الكهرمان، ثم تنفلتان لتبلغا حيث يمكن لهما أن تبلغا من خدى درة وعنقها، بينما أخذت غرفة السجينة تترامى وتتبرج حتى باتت أكبر وأشهى من غرفة النوم التى كان خطيب يحمل إليها ابنة عمه. ولما تباعد ذراعا درة نهض خطيب وسأل بجفاء:

- أين الكنز يا درة؟

فعاد السريرُ من عشرين سنة على الأقل، لينقلب فراشاً ضيقاً لا يفصله عن الأرض سوى قطعة من قماش الخيمة العسكرية.

وسألت درة وشهوتها تتسلّ منها:

- ما الذى ذكرك بالكنز يا حبيبي؟

كان قوام خطيب قد غلظ، وشعره قد شاب، لكأنه كبر عشرين سنة فى لمح البصر، فأشفقت درة عليه. ولكى لا يعود كما دخل: هائل الطول وهائل العرض، مسدت بباطن قدمها على ساقه اليمنى، ثم على فخذه الأيسر، وابتسمت، ثم أشارت، فدنا، فدنت حتى تعانقا، وراح يصغر، ويصغر، ويصغر، حتى بات فى الرابعة أو الخامسة، شعره أشقر وطويل ومجدول كأنه شعر بنت، بل كأنه شعر نديدا قبل عشرين سنة، عندما رأتها درة لآخر مرة.

هكذا بات على درة أن تحكى لخطيب حكاية، مثلما كانت تحكى لنديدا، فأخذت تلاعب جديلة الطفل، وسمّت باسم الله، وصلت على النبى المصطفى، وجاء صوتها ندياً:

- كان ياما كان، فى سالف العصر والأوان، كان فيه أسرة مستورة بلا اسم، وظلت على هذه الحال حتى أنعم الله على جد من أجدادها بحفنة كبيرة من الكهرمان، الحبة بقدر حبة اللوز. باع الجد من الحبات ما غسل

فقـره ، ووزع الباقى على أبنائه الثلاثـة وعلـى بناته الثلاث ، حسب شرع الله.

ولد واحد يا حبيبى يا خطيب من بين الأولاد والبنات لم يغترّ ولم يفجر. صان الكهرمان فصانه، وزاده الله سبحانه وتعالى من علمه، فهرس حبة الكهرمان حتى صارت مثل الدقيق. لحسة من هذا السفوف وبإذن الشافى المعافى كان المريض يبرأ من حرقة البول، وكانت الحصاة تتفتت وتخرج مع بولتك يا ماما. نثرة من هذا السفوف فى سريرك يا ماما تبعد عنك أبو صفار. حتى لوجعْ القلب أودع الله سبحانه وتعالى الدواء فى الكهرمان.

سنة بعد سنة ما عاد يُعرف الرجل إلا بالكهرمان. راح الكهرمان وجاء الكهرمان. وسنة بعد سنة صار عند هذا الكهرمان ضعف ما ورث من أبيه، بل قل صار عنده أضعاف ما كان عند أبيه. ومشى ابنه الوحيد من بعده على طريقه، فتكومت عنده العقود والسبحات والأقراط ومقابض الخناجر والمغازل، وكله من الكهرمان الذى ما بعده كهرمان.

من جيل إلى جيل سمّت الناس هذه الأسرة: بيت الكهرمان. ومن جيل إلى جيل ما عاد يسلم من بيت الكهرمان إلا ولد واحد، حتى جاء أبو رمزي. وحده سلم له رمزى وعبد الواسع. ولكن رمزى وحده ورث عشق الكهرمان. رمزى هو الذى حكى لى حكاية أبيه وجده وجدّ جده عندما كنا فى باريس. وفى باريس سألت كما سألت فى الشام: أين الكنز يا رمزي؟

بالحفظ والصون يا درة.

نقبت البيت فى باريس والبيت فى الشام.

بحّ يا خطيب.

حاولت مع حماتي. صمٌّ بكمٌ عميٌ، حتى صادف أن كنا مرة في المزرعة واقفين، أنا وهو، فى ظل الصنوبرة الوحيدة. حضن رمزى جذعها، ثم راح ينزع منه جبيبات من الصمغ وهو يتمتم:

– هذا الصمغ هو أصل الكهرمان. لا إله إلا الله. سر الكهرمان فى هذا الصمغ.

قلت ساخرة:

– إذن خلّنا نجمعه.

قال ساخراً أيضاً:

– اجمعيه وحدك ثم ادفنيه فى سابع أرض خمسين مليون سنة، مئة مليون، بعدها احفرى وادعى الكريم الوهاب، يطلع لك الكهرمان: أكوام أكوام وأشكال وألوان.

وابتعد عن جذع الصنوبرة مردفاً:

– لا تنسى صمغ المشمش.

تأملت جذع الصنوبرة الثخين، والبساط الإبرى تحتها، وظهر رمزى الذى اتجه إلى مشمشة فتية قريبة. وخفق قلبى حتى تزعزعت. وكاد أن يغمى عليّ لولا أن الله ألهمني: هنا كنزك يا رمزي. طبعاً تحت الصنوبرة يا خطيب. لماذا؟ لأنه أكبر أماناً من أى بيت، قال رمزي، وقال: أمى تعرف، وأخى عبد الواسع يعرف. وقال: لا كنز ولا من يحزنون يا درة. هو صندوق صغير، ولكن كله كهرمان طبيعي. ليس عندنا حبة صناعية واحدة.

لعب الفأر بعبى يا خطيب. لم يذكر رمزى غير الكهرمان، ولكن أمه أهدت نديدا عقداً من الجزع، من العقيق اليمانى يا ابن عمي، وأهدت ابتهال عقداً من اللازورد الأزرق، والست افتخار كم عقداً لديها؟ ما بك يا خطيب؟ نمت يا حبيبي؟ قم قم. الحكايات للصغار وأنت ما شاء الله فى عز الشباب. تعال نحمل هذا الصندوق، ومثل الطير نطير إلى باريس.

انتفض خطيب، فإذا به هائل الطول وهائل العرض، ودوّى صوته:

– هذا الصندوق لى وحدى يا درة. لا تكونى طماعة. أنت لك رئيس الجمهورية وأنا لى الكهرمان والعقيق واللازورد، ولا تنسى الذهب والألماس.

وأخذ دوى الصوت يترجّع حتى زلزل الغرفة وأيقظ درة الغارقة فى عرقها ورعبها.

حين دخلت درة إلى مكتب المقدم مرقص العميا وقف مبتسماً، وأشار إلى الكرسى بينما راحت كلماته تتسابق:

– مبروك يا ست درة. تفضلى اجلسي. هات فنجان قهوة يا ابنى للست درة. حلّيها يا ابني. قهوتك حلوة يا ست درة. أعرف. مبروك. والله العظيم فرحت لك. أنت تستأهلين كل خير. عندما سمعت أول مرة بمرسوم العفو عن المحكومين بالإعدام، قلت: هذا المرسوم مفصّل على قدّ الست درة. صدقينى نويت أن أبارك لك سلفاً، لكنى فضلت الانتظار حتى تأكد ما توقعته. أنت وحدك من ينطبق عليها هذا المرسوم الآن. المرسوم يا ست درة اشترط أن يكون المحكوم عليه بالإعدام قضى عشرين سنة فى السجن، حتى لو كان قد جرى تنزيل الحكم إلى المؤبد. والآن يا ست درة: هذا هو مرسوم العفو عنك بتوقيع سيدى الجنرال. أنت لا تعرفين أنه سيصير رئيس الجمهورية بعد الاستفتاء. أرأيت كم هو وفيّ؟ أرأيت كيف يتذكر أيامه معنا هنا؟ يجب أن تقابليه لتشكريه. أنت تعرفين الواجب والأصول. لا تنسى أن تذكرينى عند الجنرال بالخير. هات القهوة يا ابني. أمامنا بعض الإجراءات الضرورية، ننهيها إن شاء الله اليوم وبكرة. بعدها ندعو لك بالسلامة.

كما تنفرط أوراق الوردة الجورية، انفرطت درة مع كل كلمة من كلمات مدير السجن. وقبل أن تغادره كانت قد تطايرت ملء فضاء السجن: دمعة وضحكة وشهقة وبهتة، بينما أسرع نهار السجن مثل ليله، ينقلب عرساً: السجينات يزغردن ويغنين ويرقصن، والدرك يتهيبون النظر إلى هذه التى عفا الجنرال عنها وحدها، وستذهب إليه غداً، ليس لتشكره فقط، بل لتتابع ما كانت تقوم به هنا: تغسل ثياب الجنرال وتمسدها وتعطرها!

حتى إذا هجعوا، جفا النوم درة، مثلما جفاها فى ليلتها الأولى فى هذه الغرفة التى انفردت بها طوال عشرين سنة وثلاثة أشهر، لا تنقص إلا يومين. سوى أنها فى تلك الليلة كانت تنادى فقط ما مضى، بعد أن لم يبق لها سواه، بينما هى تنادى فى ليلة العفو ما لا عدّ له ولا حصر مما ينتظرها: خذى إذن هذه الجورية التى ما بقى لها ستر. لملمى أوراقها واضفريها ومسّديها وعطّريها مثل قميص الجنرال الذى وعد ووفى.

هذه ورقة – عليها أن تكون الورقة الأولى – ترفرف مثل هدب عاشقة، وصدر درة يخفق، فتسطع بهمة الليل مثلما سطعت عندما قال لها المقدم حسني: أنت حلوة يا درة. أنت حلوة ولطيفة. وربما أضاف: أنت قوية يا درة، بل ربما قال العكس، فكلماته تختلط فى سمع درة كلما استعادتها، ودرة تكذّب السمع كما تصدقه، كأنها عادت تلك الشقراء الصغيرة التى سارت بذكرها الركبان، حتى بلغت بيت الكهرمان. لكن صوت الأستاذ رمزى لم يكن له الوقع الفحل الذى لصوت المقدم حسني. ونظرة الأستاذ رمزى حييّة، بينما نظرة المقدم حسنى فاجرة، كأنها نظرة ابن عمها خطيب. لذلك – ربما – ما كانت النظرة تُغْضِب درة، ولا الكلمة، كأنها ليست هى التى كانت تنفجر فيمن يتجرأ على أن يمتدح حسنها أو يرميها بشهوة عينيه، لا فرق بين دركى أو ضابط، ولا بين وقح أو مهذب.

كانت درة قد نسيت رمزى مثلما نسيت خطيب، حتى جاء المقدم حسنى بهما معاً: هذا من قبر وهذا من قبر. فكان على درة أن تعيد هذا إلى قبره وهذا إلى قبره، كى تتقرى ما يستفيق منها ليلة فليلة: الشعر الذى راح يطول ويبدع لوناً جديداً للذهب، كأنه فى سباق. الجعدة الغادرة – رغم نعومتها وضآلتها – التى راحت تلملم ذيولها وتختفى من العنق. العبلة التى أخذت تغنج فى الفخذين والإليتين. غير أن ذلك ظل أشبه بالمزحة حتى خرج المقدم حسنى من السجن.

عندئذٍ انفرطت ورقة من الجورية، وتضرجت - الورقة أو درة - مثل عاشقة تفتك بها شهوتها ويفريها حياؤها، فتتنكر أنها بلغت الخامسة والأربعين أو الخمسين، وتنكر أن الدورة انقطعت. ومن ليلة إلى ليلة بات رجل يوافيها إلى حلم أمتع من اليقظة، فيه من المقدم حسنى شبه، وفيه من خطيب شبه، وفيه من رمزى نفسه شبه. ومن ليلة إلى ليلة ما عاد الرجل يشبه واحداً ممن عرفت، كما لم تعد درة تشبه نفسها التى عرفت. وهكذا بدت وهى تقف أمام الجنرال: غريبة قبالة غريب!

غير أن الغربة تبددت دفعة واحدة، عندما ضرب الجنرال كفاً بكف، واشتبكت صيحته بضحكته المجلجلة:

- يخرب بيتك يا درة! كيف وصلت إلى هنا؟ أكبر رأس فى سوريا لا يجلس مطرحك إذا لم أطلبه وأسمح له بالجلوس.

قالت وهى تكتم ضحكتها، وتهرب بنظراتها إلى كرسى الرئاسة:

- كأنك نحفت.

وودت أن تقول إنه هكذا أحلى، لكن لسانها تداخل فى بعضه خوف أن تكون قد أخطأت. وبالكاد سُمع صوتها:

- كأنك نحفت يا سيدي.

- نحفت من المرض يا درة.

قال الرئيس وهو يرتمى على الكرسي، فأسرعت تدعو ملهوفة:

- سلامتك يا رب.. ما لك إلا حبة الكهرمان يا سيدي. بالله عليك لا تقل ضيعتها.

- لا لا. لا تقلقي. خبأتها بين أهم أوراقي.

همس بحنان، فتكومت درة فى حرجها، وهمست وهى ترميه بنظرة عاتبة:

- كله من العرق.

قال متحسراً:

- الله يلعن أبو السكري. حرمنا من العرق.

واشتبكت فجأة صيحته بضحكته المجلجلة:

- بالله عليك احكى لي: كيف وصلت إلى هنا؟

قالت بمرح واعتزاز:

- من البارحة وأنا مرابطة على بابك. كل حارس ما شاء الله أصعب من صاحبه. أول واحد حسبنى مجنونة. الثانى لوّح ببارودته. دفرته وهددتهم كلهم: والله والله إلا خلّى سيدى يحبسكم كلكم. مضى النهار وما فيه فائدة. الجوع هدني والقهر هدني، وما لى فى الشام إلا الله وأنت. رجعت إلى السجن، وقامت هيصة ما لها آخر. من يصدق أن من عفا الرئيس عنها وحدها، ليس لها بيت ولا أهل؟

همس الرئيس متأثراً:

- معقول يا درة؟

- لا أهلي يقبلون بي، طبعاً ولا أهل رمزي. الله أعلم من مات منهم ومن كبر ومن... عمره ما زارنى واحد منهم. ابنتى ابتهال كانت تزورنى قبل زواجها، ولو مرة، من العيد للعيد. بعدما تزوجت قاطعتني. زوجها ضابط وأرجوك يا سيدى أن تكرمه.

- اعطينى اسمه ورتبته.

- اسمه سنان عبد المنعم. أظنه كابتن، كومندان، والله لا أعرف.

- عرفته. المقدم سنان عبد المنعم. لأنه حرمك من ابنتك له منى عقوبة عيار أربعة وعشرين قيراطا.

أطرقت درة وتسلل صوتها ينضح بالمرارة:

- أنا أطلب منك أن تكرمه وأنت تريد أن تعاقبه.

- طيب طيب. بعلمى لك بنت ثانية.

- نديدا عمرها ما قالت لى أمي. زوجها زارنى مرة فى السجن يوم خطبها. هى طلبت منه أن يزورني.

- وإن شاء الله زوجها ضابط؟

- زوجها يعمل فى جريدة. يكتب فى جريدة. نسيت اسمها.

- ونسيت اسمه؟

- اسمه رباح أبو شلة.

- وهذا الثانى ألا يستحق عقوبة؟

شبت درة وجاء صوتها راجفاً:

- لا أحد يستحق العقوبة غيري.

- لماذا؟

- لأنى جئت إلى هنا.

قالت بجرأة جعلت الكرسى الرئاسى يدور يمنة ويسرة، وعينا الرئيس تحوصان على سطح المكتب، حتى استطاع أن يقول:

- لو وقف وزير وقفتك هذه، وسمعت منه ما سمعت منك، لنام مطرحك فى الحبس حتى تصير عظامه مكاحل.

ونهض آمراً:

- اجلسى واحكى لى كيف وصلت إلى هنا.

فعادت إلى الكنبة، وسحج صوتها وهى تحدق فى السجادة:

- اليوم، من الصبح وأنا عند الحرس. واحد منهم شتمنى فشتمت أمه وأخته، وضربنى وضربته. جاء ضابط فلوحت له بالعفو وصحت: أنا وحدى أعفانى سيدى الرئيس من المؤبد. مدير السجن أعطانى البارحة نسخة من العفو وقال لي: قدميها عند باب القصر حتى يسمحوا لك بالدخول. الرجل ابن حلال ويدعو لك ليل نهار. المقدم مرقص العميا، تتذكره؟ كرمى للنبى أكرمه وبلا سيرة العقوبات.

– طيب يا درة. والآن: ماذا تريدين من الرئيس؟

– خذني معك. إما أن تأخذني معك أو أرجع إلى السجن. مالى فى الدنيا إلا الله وأنت.

– الله يخرب بيتك يا درة. آخذك معى إلى أين؟ نسيت اليوم أنى رئيس الجمهورية؟

– لا والله ما نسيت يا سيدي. ورئيس الجمهورية ما نسى درة حفظي. خلّنى معك حتى لو خادمة.

– أنت لست خادمة يا درة.

– كرمى لك مستعدة أن أكون أقل من خادمة.

– لن ترضى زوجتى بك فى البيت. ستقول جئتنى بقاتلة! فى ليلتى الأولى خارج السجن حكيت لها عنك. هنا فى القصر لا توجد خادمة. كلهم رجال.

– إذن أكون أنا الأولى.

هزجت وهى تقف، وشفتاها تنفرجان عن ابتسامة شهّاء جعلت ضحكة الرئيس تنفجر فجأة، ولعابه يسيل، وكفه تخبط على سطح المكتب، وصوته يهدر:

– الله يخرب بيتك يا درة حفظي!

بأناة، أخذت أصابع نديدا تتحرى قبة شعرها المذهبة، مثلما ألفتْ كلما عرّت المرآة كتفيها وصفحة صدرها، بينما دفء الحمّام يمسح على ظهرها، ويتسلل إلى أسفل بمكر.

بعد قليل أخذت المرآة تتضبب وتتعرق. عثرت الأصابع على الندبة الخفيفة فى القبة المذهبة. ولسبب ما تعثّر واحد من الأظفار الملونة، فجفلت الأصابع وارتدت، ونبقت السبابة من القبة المذهبة، فإذا بأثر من طلاء الأظافر، لالا، هذا أثر من دم، لكأن الندبة عادت شقاً نحيلاً وأقصر من ست قطبات، أي: جرحاً كبيراً فى جلدة الرأس، فتبقعت الشقرة بحمرة ناصعة،

وشهقت نديدا، فشقت الصيحات حولها أكباد الخيزرانات التى كانت تنزل كالصواعق على الرؤوس السافرة والمغطاة.

كان للعصر يومئذٍ مثل دفء الحمّام فى هذا المساء. كان ظهر نديدا وصدرها يتنديان بالعرق، مثلهما أو مثل المرآة الآن. وبين شقيقتها ابتهال - التى طيّرت خيزرانة غطاء رأسها - وزميلتها ميريل جميرا، تسامقت نديدا، بينما تقدمتهن وتبعتهن كواكب أخرى، بينهن زميلات لنديدا وميريل فى الجامعة، وزميلات لابتهال فى البكالوريا.

كنّ بقايا المظاهرة الصغيرة التى قطعت ما بين الجامعة والسبع بحرات، يحف بها بخاصة شبان، أخذت أذرع بعضهم تلوح بالخيزرانات قبل أن تنفض المظاهرة.

ضد الذين اعتدوا أمس، وأمس الأول، على سافرات هناك، على رصيف الجامعة، وعلى حافة النهر، هتفت نديدا، ورددت الأخريات هتافها. وهتفت ميريل ضد الذين اعتدوا على سافرات بعد صلاة الجمعة الفائتة، فى المرجة، وعلى حافة النهر أيضاً، ورددت الأخريات هتافها. وكما أضحكت الهتافات الناحلة كثيرين، جعلت كثيرين يشتمون ويتوعدون. ولما تلاشت المظاهرة، واختفى رجال الشرطة، أمطرت السماء بالخيزرانات، وشقت واحدة منها جلدة رأس الآنسة نديدا الكهرمان بنت الشهيد رمزى الكهرمان: كتبت جريدة الإنشاء التى ذكّرت باللقب المنسي: أبو الدستور، كما ذكّرت بابنته نديدا عندما تقدمت مظاهرة النساء عام ١٩٣٤، مع زوجة عمها السيدة افتخار الكهرمان، حرم الدكتور عبد الواسع الكهرمان.

زقزقت المرآة مثل الفتاة التى زقزقت ذات ظهيرة وهى تتهجى اسمها فى الجريدة. ومن عمق المرآة أخذ وجه الست افتخار يتلامح، وأخذ غبش المرآة يتبدد كلما اقترب الوجه الذى ازداد سمنة. فالست افتخار تقترب من الخمسين، وما عاد لها ذلك القوام الصلب الذى كانت النساء تحسدها عليه

قبل خمس عشرة سنة، حين دوى صوتها: نحن فتيات العرب، فرددت النساء خلفها: نحن فتيات العرب، فأرعدت بصيحة الست افتخار أركان الفضاء مثل فرائص الناس: يحيا الوطن يحيا الوطن، فرددت النساء خلفها ثلاثاً: يحيا الوطن يحيا الوطن، وانطلقت المظاهرة من أمام مسجد الأقصاب.

فركت نديدا عينيها لتتبين ما إن كانت المرآة هى التى تحكي، فإذا بالمرآة تصير حكاية، مثل الجرن الطافح بالماء الحارق، مثل الليفة والصابونة والكيس والوجاق و.. مثل العري.

بأناة، أخذت الحكايات جميعاً تصير حكاية نديدا ذات الضفيرتين الشقراوين، مدللة عمها الدكتور عبد الواسع وزوجة عمها الست افتخار، نديدا التى لها أذنا الخلد وجرأة الصبيان، ولذلك التقطت من ماما افتخار حِكاية المظاهرة، فما عاد أحد بقادر على أن يفك أصابعها من أصابع ماما افتخار فى ذلك الصباح الخريفى البارد المربدّ: صباح المظاهرة يا مجنونة: خاطبت المرآة نديدا الصغيرة ونديدا الكبيرة، وشرعت تحكي، كأنها هى التى كانت تحشد النساء أمام مسجد الأقصاب:

- ليش يا ماما؟

- لأن الفرنسيين استوحشوا يا بنتي. أذنابهم استوحشوا ورجالنا انكسرت ظهورهم.

- ماما افتخار كانت الأولى.

قالت نديدا، فقالت المرآة:

- كلنا كنا الأولى، والأولى دارت على بيوت جاراتها، مثل الثانية. والأولى والثانية مثل الثالثة: حرضت بنتها وأمها وأختها وكنّتها وسلفتها. والثالثة مثل الرابعة: منعها زوجها من الخروج فى المظاهرة، لكنها خرجت مثل الخامسة التى حرضها زوجها على الخروج، ومثل السادسة التى حرضها أخوها، والسابعة التى حرضها أبوها، والثامنة التى دبرت قماش اللافتة، والتاسعة التى خططتها، والعاشرة التى حملتها.

وملأ المرآة وجه الست افتخار، وصدح صوتها:

- أنا حملت اللافتة مع من صارت حماتك يا نديدا، مع أم رباح.

وتندت عينا الست افتخار، كما تندى صوتها، وكما تندت المرآة، وكما تندت الحكاية، فما عادت المعلمة تنماز عن القابلة، ولا القابلة تنماز عن ست البيت، ولا ست البيت تنماز عن الخياطة. وكانت نديدا ستتولى الحكاية، لولا أن أصابعها انفكت من أصابع الست افتخار التى صاح بها شرطي:

- اسكتى يا حرمة.

وفتل شواربه، فصاحت به:

- شو ما بتعرف غير تفتّلْ شواربك؟

فانتزع شرطى آخر اللافتة منها وصاح:

- اخرسى يا حرمة.

فصاحت به النساء:

- ولكْ ما إلكْ شرف؟ ما عندك دين؟

وأخذ التدافع يوجع نديدا مثل فقدانها لماما افتخار، لكنها لم تبك حتى رأت نفسها مرمية فى حضنها فى السيارة التى نقلت من لم يهربن من المظاهرة، إلى المخفر.

وفجأة أبرقت المرآة بوجه الدكتور عبد الواسع، مورداً بحمرة النبيذ، بلا شعرة شائبة فى شارب، ولا جعدة فى جفن ، كأنه صغر خمس عشرة سنة.

خافت نديدا من أن يتولى عمها الحكاية، فاستدارت عن المرآة، تمسح الدموع الملتبسة عن الفتاة التى حكم القاضى ببراءتها، لصغر السن، فدفعتها الست افتخار من حضنها إلى حضن الدكتور عبد الواسع الذى انتظر حتى شبّت نديدا، وبدأت بدراسة الحقوق، قبل أن يقف على باب محكمة بداية الجزاء التى نظرت فى قضية ظنينات المظاهرة، يحمد الله على

أن القاضي اكتفى بالحكم على المدعوة افتخار الكهرمان بغرامة خمسين ليرة.

ابتسمت نديدا، فابتسم عمها مطمئناً، فنديدا تسير بثقة وقوة وسرعة على درب أبيها، ليس فقط بدراسة الحقوق، فالحقوق درب الدكتور عبد الواسع أيضاً. وفجأة كسا الخوف وجهه، فدرب شقيقه مضت بصاحبها من سجن إلى منفى إلى... إلى اغتيال، وليس لنديدا أن تسير على درب أبيها، بل عليها أن تتقفى هذا الوجه النبيذي الذي ينسحب من المرآة عجلان.

ولأن المرآة لبثت فاغرة، أسرعت نديدا إلى الماء الساخن والماء البارد والماء الفاتر والكيس الأسود والحجر الأسود والمشط الأسود، وأشبعت جلدها نقعاً وحفّاً، وأفردت القبة المذهبة على كتفيها، وظلت تلعب حتى أدركها الرهق اللذيذ الغامض، فنادت شقيقتها ابتهال، لكن ابتهال لم ترد، فنادت زهور التي لم ترد أيضاً، فمن سيفرك إذن ظهر نديدا سوى الست افتخار، مثلما كانت تفعل منذ اختفى عن عيني نديدا أبوها وأمها، حتى أبلّت جلدة رأسها من الشق النحيل القصير، أي من الجرح الكبير الذي أورثتها إياه خيزرانة ما ذات ظهيرة، ثم آل إلى هذه الندبة التي تدميها الآن أسنان المشط، كما أدماها للتو واحد من الأظفار الملونة؟

بعد لأي خرجت نديدا من الحمام تؤجّ أجّاً: الخدان والشفتان والأنفاس والنظرات، وما لم يخفه القميص الزهري من صفحة الصدر أو من الكتفين أو من الذراعين أو من الساقين. بل إن ما أخفاه القميص الفضّاح كان يؤجّ أجّاً كالذي أظهره، فلم يبق للست افتخار إلا أن تصلّي - بصوت راجف - على النبي، بينما دهشة نديدا تكبر:

- إنت هون يا ماما؟!

كانت الست افتخار تنتظر نديدا في غرفتها. وسواء أكانت قد سمعت نداء نديدا من الحمّام، أم لم تكن نديدا قد نادتها إلا توهماً، فإن صوتها

ليس مثله عندما تؤخذ بحُسْن نديدا: خارجة من الحمّام أو خارجة من البيت، عائدة من المحكمة أو عائدة من بيروت.

توقفت نديدا في منتصف الغرفة وسألت متوجّسةً:

- ماما شو فيه؟

- أمك خرجت من السجن يا حبيبتي.

- أمي؟

- أمك يا نديدا.

- ماما افتخار: مالى أمّ غيرك.

- أمك درة يا نديدا.

- وأنت إذن من تكونين؟

- هل يمكن أن يكون للإنسان أكثر من أم؟ أنت أمّ يا نديدا، تعرفين.

- أعرف أن أمّ رباح تربى ابنى كما ربيتنى أنت، وكما ربيت ابتهال. لكن رمزى ينادينى وحدي: أمي، وأنا أناديك وحدك: أمي. ابتهال تناديك وحدك: أمي.

- أمك درة يا نديدا.

- من قتل أبى إذن؟

- ولكنها أيضاً أمك.

- طيب يا ست افتخار. ما دمت تنكريننى فأنا أعلن نفسى من هذه الساعة: يتيمة الأم، كما كنت يتيمة الأب طوال عشرين سنة.

وما إن أعلنت قرارها حتى التحمت شفتاها. وما إن التحمت شفتاها حتى التحمت أذناها. غير أنها فى خرسها وفى صممها ذلك المساء، لم تفارق حضن الست افتخار حتى أغفت بعدما انتصف الليل.

فى الحضن الوثير الساخن كانت نديدا قد عادت تلك الطفلة التى اختفى أبوها فجأة. وقبل أن تألف اختفاءه، كانت أمها قد اختفت، فأصاب الخرس

والصمم الطفلة أياماً. وحين أفلتت لسانها نادى: ماما، فهزجت الست افتخار: يا روح ماما. عندئذٍ أفلتت الطفلة سمعها، فإذا بابتهال تندفع إلى حضن الست افتخار وتنادي: ماما ماما.

بعد سنوات أغفت نديدا في حضن ماما افتخار في النظارة. وحين أفاقت الفتاة كانت مرهقة وخائفة وجائعة. ولن تنسى من بعد أنها حلمت بالخادمة زهور تدنى منها ملعقة مدججة بما تجهل، فإذا بواحدة من الموقوفات تفح:

- أمها درة حفظي. أمها يتّمتها.

بترت المرأة الحلم الشهي، فباعدت الفتاة جفنيها غضبى، وكانت الست افتخار تقول:

- تعودتْ أن تناديني ماما، وأنا تعودت.

فسألتها موقوفة أخرى:

- وأختها؟

قالت الست افتخار:

- أنا أم نديدا وابتهال.

قالت المرأة نفسها، وربما المرأة الأولى، وربما سواهما:

- لابد أن يأتي يوم تعرف فيه البنت أن أمها قاتلة، والقتيل من؟ أبوها الله يرحمه! يا لطيف تلطف.

وعلا صوت من أقصى النظارة:

- بلا هالسيرة. حاجتنا غمّ. يلله ردّوا ورايي..

وأخذت تشدو:

على ورق الفل دلّعني

ما بطيق الظلم حلّ عني

وما كادت أصوات الأخريات تنتظم خلفها حتى قاطعتها جارتها بصوت أعلى وأكبر غنجاً:

يلله بنا يا حلو نلعبْ
فى رياض الياسمين
نقعد مع الأحباب ونسهرْ
نغنى ونطربْ ونسمرْ
حتى يقولوا الله أكبرْ
يا ليالى الياسمين

وكان صوت الست افتخار قد تسلل منها ليندغم رائقاً فى أصوات الأخريات. وما كادت الأغنية تتلاشى حتى صدح صوت جارة الست افتخار:

يا قضامة يا قضامة
شوفْ عينى شوفْ
يا غريبة يا ناعمة
حركاتى الناعمة

ووقفت المرأة تغمز وتلوى خصرها وتزمّ شفتيها، فتضاعف هياج الأخريات، وغنت المرأة:

جاب لى المشط بالورقة
قلت له شعرى ما بتلقى
جاب البودرة بالورقة
قلت له خدودى ما بتلقى
وقال تسرّحى يا شبئة
سرّحنى وأنا نايمة
وقللى خذى يا شبئة
بودرنى وأنا نايمة

لكن الفتاة كانت قد أطبقت جفنيها وشفتيها وأذنيها. ولم يدرك أحد أن الخرس والصمم قد أصاباها، إلا بعد أن برّأها القاضي، وبعد أن دفع الدكتور عبد الواسع خمسين ليرة غرامة، مقابل الإفراج عن الست افتخار، وبعدما التأم شمل الأسرة على العشاء.

غير أن العلة لم تطل هذه المرة أيضاً إلا أياماً، انقطعت خلالها نديدا عن المدرسة. وكان أول ما نطقت به أن حدّثت ابتهال عن أمهما التى قتلت أباهما، فبكت ابتهال، وكان صوت بكائها أول ما سمعت نديدا، فاكتمل البرء من العلة العجيبة.

كانت ابتهال قد عادت من المدرسة للتو. وحين بكت، احتضنتها نديدا وحشرجت:

- لا تخافي.

نفت ابتهال أن تكون خائفة، وشرقت بدمعتها، فنأت نديدا عنها ونهرتها:

- لكن ليش عم تبكي؟

زعقت ابتهال:

- بدى أمي.

وسوف تنقضي سنوات قبل أن تزعق ثانية، ولكن دون بكاء:

- بدى زورْ أمي.

- تزورى جهنم إن شاء الله.

صاحت نديدا، وخاصمت أختها ذلك اليوم، وبعده بيوم، ثم أصلحت ماما افتخار بينهما. وظلت ابتهال تلح من بعد على ماما افتخار: بدى زور أمي، حتى رمتها سيارة مع الخادمة زهور ومع السائق أمام باب السجن، بينما لبثت الست افتخار في السيارة، تعدّ الدقائق والثوانى التى ستنوف على الساعة، قبل أن تظهر ابتهال مشرقة، تتقدم السائق والخادمة.

لا ابتهال، ولا أحد، سأل نديدا عما إن كانت ترغب فى أن ترافق أختها، لا فى تلك الزيارة ولا فى غيرها. وربما كان ذلك ما جعل نديدا ترفض أن تصغى لابتهال كلما أرادت أن تحدثها عن زيارة. وسوف تنقضى سنوات قبل أن تتزوج ابتهال، ويمنعها سنان من زيارة أمها، فلجأت إلى حضن نديدا شاكية وباكية. وربما كان ذلك ما جعل نديدا تطلب من رباح أن يزور أمها فى السجن، ويطلب يدها هى منها، كما طلبها من الدكتور عبد الواسع، فبوغت الجميع بما طلبت نديدا، مثلما بوغتوا يوم طلبت الطلاق، ومثلما بوغتوا عندما رفضت لقاء هذه التى لن أغفر لها، حتى لو غفر لها الجميع، حتى لو غفر لها الله سبحانه وتعالى، أستغفر الله العظيم: قالت نديدا إبّان خرسها وصممها.

تابعت نديدا شئون المكتب كأن أحداً لم يتصل من القصر ببيت الدكتور عبد الواسع الكهرمان، ليطلب الأستاذة نديدا الكهرمان.

كان ذلك عشية الأربعاء. كانت السماء تبرق وترعد وترذّ، على الرغم من أن الأوان ليس أوان برق ولا رعد ولا رذاذ. وكانت نديدا غارقة فى خرسها وصممها، فأشارت إلى عمها الذى لم يكن بحاجة للإشارة حتى يسأل عمن يطلب الأستاذة - لماذا ليس الخانم؟ - من القصر الجمهوري، فنطق الهاتف المعتد باسم درة حفظي، فكرر الدكتور عبد الواسع النطق ذاهلاً، فخرجت الأستاذة أو الخانم من الصالون.

من خارجٍ كانت علة الخرس والصمم قد دهمت نديدا حين اختفى الأبوان، ثم دهمتها حين كشفت النظارة سر الاختفاء. لكن العلة دهمت فى المرة الثالثة من داخل، لذلك قررت نديدا لها كيف تكون. فخارج البيت: لا خرس ولا صمم. وها هى توزع ما قبل ظهر الخميس بين المكتب ومحكمة الصلح الأولى، حتى تصادف فى منتهى البهو المحامية ملك كبارة: هذه

أستاذة بحق، وليس بنت الكهرمان الشقراء الصغيرة الرقيقة الشرسة المحيرة: خاطبت نديدا نفسها بمرح بعدما دعتها ملك إلى الغداء.

– من زمان ما قعدنا يا نديدا، حتى ولا عاد سألت!

قالت ملك، فهربت نديدا من العتاب:

– أنا ميتة جوع.

في البيت العتيق الفسيح دندنت نديدا مثل ملك مع رفيق شكري: بالفلا جمّال ساري، وهما تتنقلان بين المطبخ وركن الطعام من الصالون البهي: الخادمة عند أهلها، والأولاد عند بيت جدهم مع أبوهم: صدحت ملك كأن سعادتها بخلو البيت تهزج وترقص، وكان الراديو يصدح في الركن المقابل. وسرّ نديدا أنه ماركة ريموند، مثل الذي أحضرته هي إلى غرفتها بعد الطلاق، فنجت من شروخ الأصوات في راديو الإيرميك المتهالك الذي ترفض الست افتخار أن تبدله.

لم تقل نديدا في سرها: ماما افتخار. وربما كان ذلك ما أقبضها، أو لعله الحنان الذي غمرتها به ملك، فسرى فيها الشوق إلى زمن يبدو بعيداً وغامضاً، كان لها فيه صحبة كبيرة، منها ما هو طارئ ومنها ما هو قديم، أقدم من الصبا، بل أقدم من الطفولة. ولم تكن ملك بين الصديقات إلا بعدما صارت نديدا محامية متدربة: هل أكون فرطت بصداقاتي؟ ومنذ متى؟ منذ زواجي أم منذ الطلاق؟ منذ تخرجت من الجامعة أم منذ بات للمكتب زبن كثيرون؟ ولماذا لم يكن لي إلا صديقات؟ فلان زميل في الجامعة، فلان قريب من الدرجة الأولى أو من الدرجة العشرين، ومن أيضاً؟ رباح جاء عاشقاً ومضى خصماً، وإن تكن خصومته مبطنة بالعشق وملفوفة بالصداقة. سنان وحده قريب وصديق، وتستطيعين أن تقولي: عمي الدكتور عبد الواسع أيضاً قريب وصديق، لكن الحقيقة المرة يا نديدا هي أنك وحيدة. منذ سنوات وأنت وحيدة. أما ملك فقد زادتك وحدة، لذلك عليك أن تعجلي بالخروج، وأن تمدي

خطواتك كأن أحداً يلاحقك، حتى تتجاوزى مكتبك وتقتربى من مكتب ميريل جميرا: أليست صديقة؟

أطالت نديدا الوقوف ريثما قرعت نفسها على أنها نأت عن ميريل منذ زمن ليس بالقصير، وبات نادراً أن تزورها أو تهتف لها، بينما تقبل ميريل عليها بحرارة كلما صادفتها فى مكان، وتتردد على مكتبها بين حين وآخر، ولكن ما الذى يأتى بميريل إلى مكتبها فى مثل هذا الوقت؟

عانقت ميريل نديدا، ورشّت على خديها القبل، وأطلقت زغرودة خافتة قطعتها كف نديدا إذ أطبقت على الفم المزغرد. وبينما عجلت ميريل إلى المطبخ الصغير تعد القهوة، راحت عينا نديدا تطوفان برفوف المكتبة حتى نتأ من الرف اليمينى الأوسط كتاب واسيورسكى (الإرهاب السياسي). كان الكتاب بالفرنسية شأن أغلب ما على الرفوف، وقلبت فيه نديدا جزافاً ثم أعادته إلى مطرحه، ومن الرف الأدنى تناولت عدداً من مجلة القانون الجزائى وعلم الإجرام، وقلبت فى العدد حتى تسلل صوت ميريل:

– أنصحك بالاشتراك فى هذه المجلة.

التفتت نديدا فإذا بميريل خلفها تمسح الترابيزة. أعادت المجلة وأخذت تلهو بقراءة العنوانات حتى استوقفها كتاب محمد مصطفى القللى (فى المسئولية الجزائية)، فتناولته، وأسرعت إلى فهرسه، بينما باغتها صوت ميريل:

– خذيه. عندى فى البيت نسخة ثانية منه.

التفتت نديدا فإذا بميريل تندفع إلى الباب قائلة:

– وصل الأستاذ منذر. الأستاذ منذر كتوّ.

وقبل أن يعلن عن سعادته بهذه المصادفة التى جاءت بنديدا، كانت قد عادت تتساءل عن سر حضور ميريل إلى المكتب فى عصر يوم خميس، بعدما أغلقت دوائر الدولة. وها هو فنجان القهوة الثالث الذى أعدته ميريل

مسبقاً يلوح لنديدا بأن ما بين ميريل ومنذر أمر آخر، ليس بالصداقة ولا بالزمالة: لا تكوني عاذلة.

خاطبت نفسها ووقفت مودعة، لكن ميريل أعادتها إلى الكنبة هازجة:

– الله بعثك لنا. كنا سنغامر ونذهب معاً إلى حفلة فرقة السماح ولو خربت الدنيا. الآن أنت درعنا.

فكرت نديدا وهى تبتسم: إذن أنتما عاشقان تخشيان عيون الناس وألسنتهم. وقال منذر مغرياً:

– الفرقة كلها من طالبات الجامعة والحفلة على مدرج الجامعة.

ودندنت ميريل بموشح (يا ذا القوام السمهري)، فقاطعتها نديدا محذرة:

– المتزمتون يحاولون إغلاق المعهد الموسيقي، وإذا نجحوا فسيفرطون فرقة السماح وغيرها.

قال منذر:

– ما هو أهم من المعهد الموسيقى ومن فرقة السماح أن المشايخ ووجهاء الأحياء مع عدد من التجار الكبار طلبوا الاجتماع برئيس الجمهورية. سيعلنون غضبهم بالفم الملآن. لن يقبلوا بإلغاء الأوقاف الذرية ولا بالقانون المدنى الذى لا يفرق بين رجل وامرأة.

قالت ميريل مخاطبة نديدا:

– هل نشهد ما شهدناه ضد السافرات قبل سنين؟ نسيت ما نالك يومها.

قالت نديدا:

– إذا كنت أنت لم تنسى فكيف لى أن أنسى؟ هذه الندبة فى رأسى تذكرنى كلما نسيت. أنت كنت قد حملت شهادتك وتخرجت، أما أنا فكنت لا أزال فى الميدان. كانت الجامعة تفور بنا وبهم، ضدنا وضدهم. نسيتِ كم كان بيننا من المناديات بعربة خاصة فى الترامواى لا يدخلها ذكر؟ بل كم كان بيننا من المناديات بإغلاق الكباريهات القريبات من المساجد؟

قالت ميريل:

- كانت الطالبات المنتقبات والمحجبات أكبر حماسة من الطلاب الذين طالت لحاهم تلك الأيام، ولكن لم يبال أحد بهم ولا بهن. لا الحكومة ولا الناس. أنا حضرت أكثر من عشرة اجتماعات. كان بيننا من هي زوجة وزير ومن هي زوجة نائب ومن هي زوجة ضابط. كنا جميعاً ضد النقاب. بل كان بيننا كثيرون وكثيرات ضد الحجاب.

تساءلت نديدا متأسية:

- هل كنا في تلك الأيام أقوى منا الآن، رغم أنها كانت أيام الحرب وأيام الاستعمار؟

ولأن السؤال ظل شاخباً، ظلت نديدا منقبضة، على الرغم من البهجة التي غمرت مدرج الجامعة وألهبت الأكف وتندت بها العيون، منذ سطعت وجوه الراقصات وهفهفت أثوابهن وتلوت أذرعهن، وتهجدت الشفاه كالأذان بموشح فموشح. وحين لم يبق أمام نديدا إلا العودة وحيدة إلى البيت، تهيأت للخرس والصمم، إلا أن ذلك التبس بالحرد، بل هو خصام، وليس ما أرادت: خرس مختلف أردت، صمم مختلف، أريد أن أسمع متى أشاء وما أشاء، أن أطرش، أن أنبكم، أن أتكلم، لا أريد هذا السخف ولا هذا الأذى: هجستْ بعد العشاء الصامت، إذْ لم يسألها أحد أين كانت، ولم يذكر أحد درة حفظي. وفي غفلة منها خلا الصالون. حتى زهور لا أثر لها. لابد أن الدكتور عبد الواسع في مكتبه. ستكسر نديدا الصمت حين يصح عزمها، لتسأل عمها: أين اختفيت؟ سيردد جملته الأثيرة: أقلب في ملفاتي، في أوراقي. ستذكّره نديدا بوعده: لن يقرأ لي أحد سطراً قبلك. ستباهي نديدا بتقديمه لها حتى على ماما افتخار: ماما افتخار أين اختفيت؟

انقضّ السؤال على صدر نديدا فلجأت إلى صورة أبيها، وشرع صوت يقترب من مكان ما من الصالون: اجلسي يا نديدا. اهدئي. انظري في عيني

أبيك. ليس المهم أن تخبريه بخروج أحد من السجن. لا تخبريه بخروج زوجته، ولا بخروج والدتك، ولا بخروج درة حفظي. المهم أن تتبينى لنفسك من عينيه سبيلا.

خذ عينيّ يا أبي: حشرجتْ.

خذى عينيّ يا نديدا: حشرجت الصورة، فأظلم الصالون، وأغمضت نديدا عينيها، فإذا بالنور يغشاهما، فتبلبلت حتى انقض السؤال على صدرها من جديد: ما هذا الذى أنت فيه؟ وربما كانت ستختنق بالسؤال وبالبلبال، لولا أن الحكايات شرعت تهمى عليها، قادمة من المستقبل حيناً، وحيناً من الحاضر، كأن لم يبق للماضى حكاية!

ذات غروب، حين عادت نديدا إلى البيت تكاد تبكى من الرهق، كان الصالون يضيق بمن احتشدوا بانتظارها.

كان شهر - على الأقل - قد انقضى بطوله، لم تر نديدا خلاله ابتهال ولا ابنتيها ولا سنان. ومن العناق الحار إلى المصافحة الحارة كان توجّس نديدا يكبر، مثلما كانت ألوان الصالون الثقيلة تتضاعف، الأنفاس الثقيلة تتضاعف، والدكتور عبد الواسع يفيض عن الكنبة: أين ماما افتخار إذن؟

سألت نديدا وهى تندفع إلى غرفتها، فاعترضتها ابتهال، وجرتها من ساعدها إلى الشرفة التى تظللت بما لم تر نديدا من قبل من ألوان الغروب.

رويداً رويداً بدا كأن الشقيقتين تتبادلان الأدوار، لتغدو نديدا الأخت الصغرى، سوى أن ما يفصل بينهما ما عاد الآن سنة أو اثنتين، بل سنوات تلوِّن صوت ابتهال وتشكِّل كلماتها وملامحها:

- لستِ أقسى ولا أكبر عناداً من سنان. سنان رقّ قلبه وقال لي: اذهبى إلى أمك، بينما لا زلت ترفضين أن تريها. لم تكونى يوماً يا أختى هكذا. صحيح أنك كنت أقوانا، كنت أصلبنا وأصبرنا وأعندنا، وكنت أقسانا، ولكن أنت من كانت ترعانى كما ترعى الأم ابنتها. كنتِ أمى يا نديدا. لا تزعلى

منى لو قلت: هذا حقد. موقفك من أمك حقد لا يليق بك. إذا كنت تظنين أن موقفك هذا يرضى عمك فأنت مخطئة. ماما افتخار تتمنى أن تذهبى الآن الآن إلى أمنا. أمنا يا نديدا. لو ترينها فلن تصدقى عينيك. أنت صورة صغيرة منها وهى صورة كبيرة منك. لو ترينها فلن تصدقى أنها كانت سجينة في يوم من الأيام. ماذا لو قلت لك إنها تريد أن ترى ابنك؟ أنا أخذت لها البنتين. سنان عارض فى البداية ثم وافق. من حقها أن ترى أحفادها. لا تتركينى أرجع خائبة يا حبيبتي.

التفتت نديدا خلفاً. ولعلها كانت ستستجيب لابتهال لولا أن سنان ظهر، فرمقته معاتبة على أنه سمح لابتهال برؤية أمها، بل وسمح للحفيدتين أن تريا جدتهما. ولم يكن عسيراً على سنان أن يدرك ما بها، فحرف خطواته، وتوقف أمام ابتهال، وأطلق نظراته بعيداً، وغمغم:

– صدق من قال: الغوطة جنة الله على أرضه.

ثم قال:

– ابتهال اتركينا وحدنا.

ولما غَدَوَا وحيدين، أخذت عينا نديدا تطوفان فى أرجاء ظهر سنان وطوله. وداهمتها الضحكة، إذ بدا لها لأول مرة أطول من رأت من الرجال. ثم بدا منكباه أعرض ما رأت من المناكب. وطاب لها أن ترى فيه بطلاً من أبطال السينما، رأته ذات عصر فى سينما الأمبير أو ذات مساء فى سينما عايدة بالاس. وربما كانت ستقع على شبيه له، لولا أن التفت إليها قائلاً:

– كلهم ألحوا عليّ حتى أقنعك بلقاء أمك، لكنى لن أفعل.

– لكنك سمحت لابتهال.

همست، فقال مغالباً غيظه:

– الست افتخار توسطت لها، وأنا ضعفت.

تلفتت نديدا حولها، ففوجئت بالعتمة تقترب من بعيد، من أعماق الغوطة، فأعماق المدينة. ولما كادت أن تنيخ فوق الشرفة، دنت نديدا من سنان تسأل:

– لماذا طلبت من ابتهال أن تتركنا وحدنا؟

اكتفى سنان بزفرة حرى، فتابعت:

– ما الذى لا تريدها أن تعرفه؟

– ما من شيء محدد، ولكن لا أريد أن أضايقها أو أشغلها. ابتهال لا تعلم إلا أن الرئيس استدعانى قبل أن ترى أمها. لا تعلم أنه خاطبنى بازدراء، ولا تعلم أنه هددنى بالسجن إذا لم أسمح لدرة حفظى بلقاء ابنتها وحفيدتيها. قلت له: إذا كنت سأسمح لها فليس لأنك تهدد، فجنّ جنونه. هل يعقل أن يكون مثل هذا رئيس الجمهورية؟ ماذا دهانى حتى استبشرت بانقلابه وفرحت به؟ ما ترك شتيمة تخطر لك على بال إلا ورمانى بها قبل أن يطردني.

– من يصدق؟

سألت نديدا نفسها بهمسة ضيعها صوت ابتهال قادماً من الخلف:

– ما خلصنا؟

فرفعت نديدا رأسها إلى سنان الذى أطلق نظراته فى المدى المعتم، وقال كأنه يخاطب شبحاً، متوعداً:

– خلصنا.

بعد ثلاثة أيام أسرعت نديدا من المكتب إلى بيت سنان تلبى دعوته إلى الغداء. كان صوته مشروخاً حين قال:

– تعالى ودعيني.

ولعلها لذلك لم تسأله عن سبب الودا ع. ولعل ذلك أيضاً ما ضاعف من ضيقها بالتاكسى، حتى إذا جلست قبالة سنان فى صدر غرفة الضيوف، عاجلته بعزمها على أن تجعل عمها يأتى بسيارة وسائق: سيارة بونتياك،

لالا، أولدزموبيل، أو فورد، لا فرق؛ فابتسم، فأعلنت عزمها على أن تتعلم قيادة السيارة، وعلى أن تكون أول امرأة في الشام تقود السيارة، فازدادت ابتسامة سنان عرضاً، وجاء صوت ابتهال من الصالون.

- تعالى ساعدينى.

لكن نديدا أقبلت على سنان لهفى:

- خير؟ إلى أين السفر إن شاء الله؟

- إلى رودس. عليّ أن أغادر هذا المساء.

- وماذا لك فى رودس؟

- اسألى الرئيس يا عزيزتى. يريدنى أن ألتحق بالوفد الذى يفاوض الإسرائيليين.

- بعلمى أنه كان غاضباً منك.

- ربما شفع لى عنده تدخّل درة. ربما دفعه غضبه إلى أن يبعدنى من هنا. هذا المجنون ذبحنى يا نديدا. حزّ رقبتى يا نديدا. حزّ رقابنا كلنا. ذبح سوريا من الوريد للوريد.

- ما الذى جرى؟

سحج صوتها خوفاً. وبينما غرق سنان فى الصمت، رأت هى رأى العين سكيناً تحز رقبة. ولما تبينت أى هولٍ هو فيه سنان، أدركت أن رئيس الجمهورية سلّم رئيس الحزب السورى القومى الاجتماعى أنطون سعادة إلى الحكومة اللبنانية، والحكومة اللبنانية حاكمت الرجل، وحكمت عليه بالإعدام، وأعدمته، وكل ذلك فى غمضة عين.

من قبل زواج سنان وابتهال، كانت نديدا تظن أنه ليس عضواً عادياً فى الحزب السورى القومى الاجتماعي، كما تعتقد ابتهال، بل كما يعتقد الدكتور عبد الواسع نفسه. لكن نديدا باتت الآن تعتقد أن سنان واحد من قادة الحزب: عليك أن تعزيه، فكرت بينما راح خوفها ينقلب أسى، وراحت عيناها

تجوسان فى فضاء الغرفة. وعلى الرغم من أن سنان كان أكبر صلادة وبرودة من الحجر، فقد خُيِّل لنديدا أن دمعتين تقدحان فوق وجنتيه، وهو يغمغم:

– على هذا المجرم أن يدفع الثمن. لا أدرى كيف خطر لى أن درة حفظى يمكن أن تساعدنا فى ذلك. أظن أنك وحدك من يمكن أن يفاتحها بالأمر، دون أن نخشى أن تفضح السر. لكننى لا أعلم كم سيمتد غيابي.

بعد صمت قصير ومرتبك قالت نديدا:

– كأنك تفكر فى الثأر.

– العين بالعين والسن بالسن والبادئ أظلم. أنت محامية وتعرفين.

– وأنت عسكري. عسكرى وسياسي.

– يعني؟

– أنا محامية كما قلت. المحامية لا تفكر بالثأر. المحامية لا تفكر إلا بالقانون.

– وماذا تفعل المحامية إذا كان القانون بيد مجرم؟ هل يبقى القانون بيد المجرم قانوناً؟

جاء صوت سنان هذه المرة كأنه يجعر. ولما سكت؛ تناهت من الصالون زقزقة البنتين. وفجأة دوى صوت ابتهال:

– تعالى ساعدينى يا نديدا. لاحقين على الوتوتة.

فوقفت نديدا، ونظرت إلى سنان كأنما تحثه على الوقوف، لكنه بدا عاجزاً، بينما لبثت البنتان فى باب الغرفة تراقبان بحذر.

ذات عصر كانت نديدا جائعة ومرهقة، إلا أنها كانت تشعر بقوة مضاعفة تبعث نَمْلَةً خفيفة ولذيذة فى صفحة ظهرها وصدرها، أو فى فخذيها وساعديها.

كان الغداء قد فاتها وهى تجرى من مكتب القاضى الشرعى إلى قلم المحكمة الشرعية إلى نقيب المحامين إلى مكتبها، ثم تجرى إلى مكتب ميريل جميرا، لتجدهم قد سبقوها. وما إن ردوا تحيتها حتى تابع الأستاذ منذر كتو، مفخماً الكلمات كعادته:

– تقدم قاض وقال: حدثنا عن الجريمة والعقاب. قال النبي: ليس القتيل بِحِلٍ من جريمة قتله. وقال: إن أحضر أحدكم إلى العدالة امرأة خانت الإخلاص، فليقسْ روح زوجها بالمقياس، وليزنْ وفاءه بالميزان. وعندما سأل محام: ما قولك فى قوانيننا يا سيدي؟ أجابه: يفرحكم سَنُّ القوانين، لكنكم فى مخالفتها أكثر تفرحون، مثل أطفال على شاطئ البحر يلعبون، وبدأب يبنون أبرا ج رمل ليهدموا ما بنوه ضاحكين.

هللت أصوات، وأثنت ميريل على جبران خليل جبران ونبيّه، فأثنت ملك كبارة على ذاكرة الأستاذ منذر، ثم خاطبت الجميع:

– بقدوم الأخت نديدا اكتمل العدد. خلونا فيما جئنا من أجله.

وبينما أخذت تبحث فى حقيبتها تابعت:

– أنا وفيت بوعدى وحضّرت لكم مشروع المحكمة العليا الخاصة بمحاكمة الوزراء ومن فى حكمهم. يجب أن يكون لمثل هذه المحكمة قاعدة دستورية.

قالت نديدا:

– كانت القاعدة موجودة فى الدستور السابق قبل الانقلاب.

قالت ميريل:

– وفى الدستور الجديد موجودة.

قال الأستاذ منذر:

– لكنها غير كافية فى الدستورين.

قالت ملك:

- أنا وضعت ما أظنه يساعدنا على أن نضع قانوناً لأصول المحاكمات فى المحكمة العليا المرجوة.

وما كادت تنتهى من قراءة المادة الأولى من القانون العتيد، حتى سُمعتْ طرقات على الباب، فتعلقت العيون بميريل التى أسرعت إلى الباب. وما إن فُتِحَ حتى تردد اسم المحامية نديدا الكهرمان، فتطايرت العيون بين نديدا والباب الذى ملأه شاب تتلألأ على كتفيه نجمتان. وزمت نديدا شفتيها، ونهضت متثاقلة فلاقاها الضابط، وبالكاد سُمِعَ صوته:

- أرجو أن تتفضلى بالحضور معى إلى القصر.

- أى قصر؟

سألت ببلاهة، فجاء صوت الضابط معتداً:

- القصر الجمهوري.

- أنا؟

سألت ساخرة، فجاء صوت الضابط مرتبكاً:

- نعم أنت.

- ومن يطلبنى فى القصر؟ الرئيس.

سألت ممعنة فى الهزء، ونظراتها تطوف على الآخرين، فجاء صوت الضابط حازِماً:

- عندما تصلين ستعرفين.

- أنا الآن فى اجتماع كما ترى.

- سيتفهمون انسحابك. تفضلي.

فجأة أصابها الخرس. وعندما بدأت ألسنة الآخرين تتدافر، أصابها الصمم. ومشت كالمنومة خلف الضابط، ولم تصح إلا على صوت الكابتن بدر

الدين أتماز يرحب بها، ويعتذر عما إن كانت دعوته قد أزعجتها، ثم يتساءل عما سيقدم لها: شاى أم قهوة؟ ولأنها لم تجب اقترب منها هامساً:

– هذه ليست دعوتي. هذه دعوة الوالدة، وأنا نفذتها على طريقتي. هى مصرة على أن تراك بأية طريقة. أنا لا أفهم رفضك ولا عنادك. لا أحد يفهم موقفك. رئيس الجمهورية نفسه منزعج منك. أمك فى الطريق إليك. سأترككما معاً، والحاجب أمام الباب. إذا احتجت أى شيء ناديه. بعد اللقاء سأعيدك كما جئت معززة مكرمة.

حين اختفى بدر الدين بدا مكتبه واسعاً جداً. بدا بالغ البياض والنظافة والبساطة. لكنه راح يضيق عندما دخلت درة حفظي، فنهضت نديدا بينما كان صوتٌ يهزج: يا روح أمك، وكانت ذراعان تعانقان، وصدر يحضن، وشفتان تلثمان، وكف تمسك بكف، وعينان تحدقان وتغرورقان.

بعد لأي، حين انفكت عقدة لسان نديدا وعقدة سمعها، أضناها أن تستعيد ذلك اللقاء، فتعددت رواياتها له، حتى بدا كأنه لقاءات شتى فى أوقات شتى، ولكن دائماً فى هذا الركن من القصر الجمهوري.

فى البداية كادت أصابع درة أن تبلغ عنق نديدا التى ارتدت خائفة، فتساءلت الأصابع قبل أن تتساءل درة:

– أين عقدك يا حبيبتي؟

من قاع ما فى الروح أومض بياض مشطوب بالحمرة والزرقة والسواد، كان قد غادر عنق نديدا عندما صدقت وشوشة زميلة أو أكثر بأن الجزع يضاعف الهم ويبلو بالكوابيس، فرمت بهدية جدتها فى واحد من أدراج الخزانة أو المكتبة. ربما كانت يومئذٍ فى البكالوريا أو فى سنتها الجامعية الأولى. ولما رأت الست افتخار عنق نديدا عارياً، كذبت زميلة نديدا وطوقت العنق العارى بهذا العقد الذى تتقرى أصابع درة حباته المكورة الشفيفة البراقة، وهى تسأل عما يكون. ولكى لا تختنق نديدا نأت بعنقها وهى تلهج:

- عقد من حجر الشمس. عمرك سمعت بحجر الشمس؟ هذا أيضاً من العقيق.

وخيل لنديدا أن أمها تحدث نفسها: والله ما خابت ظنوني. كنت على يقين من الكنز. كنت على يقين من أنه كنز من العقيق واللازورد والله أعلم ماذا أيضاً، وليس من الكهرمان وحده.

وكالمنومة باتت نديدا. وقبل أن تصحو كانت درة قد أودعتها سر الكنز: صندوق كبير، الله أعلم. عمك يعرف والست افتخار تعرف. تحت الصنوبرة فى المزرعة. تعرفينها. ما فيه صنوبرة غيرها. امشى من الجذع إلى الشرق خمس خطوات واحفري. هذا نصيبك ونصيب أختك ابتهال يا روحى يا ماما.

غير أن نديدا روت لنفسها أنها قاطعت هذا الهرف وانفجرت:

- أنت لست أمي. أمى لا يمكن أن تكون قاتلة.

فهمست درة وقد شحبت:

- الله يسامحك يا بنتي.

فتابع صرير أسنان نديدا:

- أمى لا يمكن أن تكون مجرمة. لماذا قتلت أبي؟

- لست من قتله.

- أنت من دبّر الجريمة.

- مالك أنت وكل هذا يا روحي؟ لا تسمحى للماضى بأن يأكلك يا بنتي. لا تسمحى للحقد بأن يأكلك.

ولماما افتخار، وللدكتور عبد الواسع، روت نديدا أنها لم تستطع أن تنادى ماما، ولا أن تنادى درة. لكن ماما درة لا زالت حلوة، وتبدو أصغر من سنها بكثير. أما لابتهال فقد جهرت نديدا بشكها فى أن يكون ما بين

درة حفظى وبين الرئيس - الآن ليست ماما - هو الغرام، وحاولت أن تقلد صوت ماما حين افترقتا:

- حبيبتى فكري: هذه الفرصة لا تأتى فى العمر إلا مرة واحدة. اطلبى يا روحى وتمني. الرئيس يلبى كل ما أطلب. اطلبى وتمنى لك ولمن تحبين.

ومن بيت إلى بيت روت نديدا أن ماما درة امتدحت رباح، ونصحت بالعودة إليه، على الأقل كرمى لرمزى الصغير. لكن نديدا ذكّرت درة حفظى - الآن ليست ماما - بابن عمها الخائن الذى باع بلاده وصار فرنسياً لينجو من حبل المشنقة، فقالت درة:

- كنت أظنه شبع موتاً.

وقالت نديدا:

- سألاحق خطيب حفظى إلى آخر الدنيا. سألاحقه حتى آخر يوم فى حياته أو حياتي. تراه سيعود لو علم بالعفو عنك؟ ولو عاد العاشق المعشوق هل ستعود إليه العاشقة المعشوقة أم ستظل فى القصر؟.

غير أن كل ما روته نديدا تبدد حين أجلسها الحلم على حافة السرير، بين ماما درة والأستاذ منذر كتو الذى أخذ يلقنها ما قال جبران على لسان نبيّه: إن أحضر أحدكم إلى العدالة امرأة خانت الإخلاص، فليقسْ روح زوجها بالمقياس، وليزنْ وفاءه بالميزان. وفى غفلة من نديدا انصرف الأستاذ منذر، وأسرعت خلفه ماما درة. وكانت نديدا تنوى أن تظل تردد ما قال جبران ربما حتى الصباح، لولا أن والدها داهم الحلم غاضباً يصيح: لم أخن درة حفظى حتى بنظرة، فخافت نديدا، ولعنت جبران والأستاذ منذر. وكانت ستلعن درة حفظى لولا أن أباها قاطعها: لا يا نديدا، مهما يكن، درة حفظى هى أمك، ورضا الله من رضا الوالدين. الله يرضى عليك يا بنتي. وخرج رضياً كأنه لم يكن غاضباً للتو، فأفاقت نديدا، وتنهدت عميقاً، وفركت

جفنيها، وأحست بأن ثقلاً ينزاح عن صدرها، لولا أن صوتاً غريباً لم تسمعه من قبل هامسها:

- يا ملعونة! حتى الآن لم تذكرى الكنز لأحد. نسيت أم تنوين أن تبلعيه وحدك؟

فنهضت وهى تتساءل عن صمت عمها وصمت ماما افتخار عن الكنز، وعزمت متحدية على أن يكون صمتها أطول.

سريعاً جداً صار الرئيس المشير القائد حسنى الزعيم من الماضي، بل من الماضى البعيد، على الرغم من أنه مات منذ أربعة أشهر وعشرين يوماً، فقط لا غير.

مات؟

تساءلت نديدا فى سرها ساخرة، ثم مشفقة. واشتبكت فى سمعها أصوات متشفيّة: قُتل، أُعْدِم، فطس، ولّى.. وتمتمت دون أن تفترق شفتاها: يعنى مات. وأتلعت رأسها إلى السماء العكرة، تكذب القطرات التى أخذت تداعبها منذ خرجت من تحت الصفصافة السامقة، مؤملة أن تمكنها وقفتها الجديدة من معاينة التابوت وهو يخرج من المستشفى.

التابوت؟

تساءلت فى سرها ساخرة، ثم مشفقة. ففى صندوق الخشب الذى سيخرج من هذه البوابة، سيكون الرئيس الذى قُتِلَ وأُعدِمَ وفطس وولّى منذ أربعة أشهر وعشرين يوماً فقط لا غير. ومن مطرح ما قريب من هنا حُمِلَ كما تحمل أية دابة نافقة، بلا أى ستر إلا ما كان يرتدى - البيجامة أم بذلة المشير؟ - وبمثل لمح البصر، كان قد دُفِنَ بعيداً، بعيداً جداً، أى فى أم الشراطيط.

أم الشراطيط!

عندما ذكر سنان اسم الموقع أول مرة أذهل نديدا انتفاخُ وجهه بنشوة النصر. وداهمها الفزع وهو يحدثها عن يوم الانقلاب الثانى على الانقلاب

الأول، اليوم الأغر كما سيصدح رباح ملء المكتب، فى أول زيارة له إلى نديدا، منذ انفصلا. ولم تتبين إن كان ساخراً أم جاداً، إذ عاجلها بالقول:

- راح حسنى الزعيم وجاء سامى الحناوي. الآن راح سامى الحناوى وجاء أديب الشيشكلي.

فقالت مستملحةً:

- هكذا: بلا ألقاب ولا رتب، أحلى.

قال متعالماً:

- لحسنى الزعيم لقب أخذ يشيع بعد موته. ما ذكر لك أحد: شلّيطا؟

- لا. ولكنه لقب حلو. شلّيطا. ماذا يعني؟

- قيل: كلمة سريانية معناها: أحمق، ظالم.

- وسامى الحناوي، ألم يظهر له لقب بعد الانقلاب عليه؟

- يمكن له أن يرث لقب شلّيطا.

- نسمى هذا شليطا الأول وسامى الحناوى شليطا الثاني.

- ادع الله إذن ألاّ يبلونا بشلّيطا الثالث.

- تفاءلوا بالخير تجدوه.

قال رباح، وطفق يحدث نديدا بما سيجعلها تقف الآن هذه الوقفة، تدارى القطرات التى كبرت وتسارعت، وتترقب التابوت، بعد أن سمح رئيس الدولة الجديد - الذى أبى أن يتسمى رئيس الجمهورية، نكاية بسلفه - بأن يُنقل الجثمان المهجور فى أم الشراطيط إلى مقبرة شهداء العدوان الفرنسى على المدينة قبل أربع سنوات.

كان رباح يتحدث طوال الوقت كأنه الشاهد الوحيد على ما جرى: كان المرحوم - لا تجوز على الميت إلا الرحمة - يحمل ستين ألف ليرة - فى جيب البيجامة أم فى جيب بذلة المشير أم فى حقيبة يد؟ الله أعلم - حين زجّوه فى بطن الدبابة، عرض على طاقمها الآلاف المؤلفة لقاء أن يغمضوا أعينهم عن

هربه، فرفضوا. وفى رواية أخرى لرباح، أى للصحفى الشمام، أنهم ـ من هم؟ ـ عثروا على ستة وثلاثين ألف ليرة فى بيت المرحوم، وأنهم وضعوها برسم الأمانة فى خزينة الدولة. وفى رواية ثالثة أنهم ـ من هم؟ ـ سمحوا لحرم المرحوم بمغادرة القصر الرئاسى مع ثيابها الخاصة فقط، وختموا القصر بالشمع الأحمر.

أين هى إذن درة حفظي؟

كتمت نديدا السؤال الذى يناوشها منذ أربعة أشهر وعشرين يوماً، أى منذ اليوم الأغر كما جلجل صوت رباح، فاندغم بصوت سنان، ليكون بوسع نديدا أن ترى رأى العين – أى كما فى المنام – الجنرال الجديد قبل أن يصير رئيس الدولة، قد تزيّا بزيّ القاضي، وتصدّر منصة، وأعلن أنه رئيس المحكمة العسكرية، وأنه فى غنى عن قاضى اليمين وقاضى اليسار، وفى غنى عن المدعى العام، وعن الكاتب، وعن الشرطي، فالمحكمة يكفيها هذا الذى سيصير بعد ساعات رئيس الدولة، وهذا الذى كان قبل ساعة رئيس الجمهورية. بالأحرى، يكفيها حسنى الزعيم وسامى الحناوي. لذلك صدحت سوريا كلها، وليس الشام وحدها:

ع الهوبْ الهوبْ
والعدل آخذ مجراه
على حالك لا بقا تخافْ
والأفوكاتية ملاحْ
والقاضى لابس روبْ
والحكام صاروا ظرافْ
بالشنطة ولاّ بالروب

لكن صوت رباح المندغم بصوت سنان، زيّنا لنديدا أن تكون ـ فى المنام فقط ـ محامية الادعاء فى المحكمة الموقرة، وأن يكون عمها الدكتور

عبدالواسع الكهرمان محامي الدفاع، وأن يكون سنان عبد المنعم شاهد الادعاء، وأن تكون درة حفظي شاهد الدفاع، أما رباح أبو شلّة فحسبه أنه الصحفي الشمام.

لكي لا تلتقي نديدا بأمها، بالأحرى لكي لا تلتقي محامية الادعاء بشاهدة الدفاع، تركت الرئيس الجديد مع الرئيس القديم وحيدين، وانتظرت أمام مصفحة - وربما أمام دبابة - ريثما حكمت المحكمة على المتهم بالإعدام، عملاً بأحكام مواد قانون العقوبات جميعاً، جزاء على ما بدد من أموال الدولة (٦٠٠٠٠ + ٣٦٠٠٠ = ٩٦٠٠٠ ليرة سورية) وعلى ما ارتكب من الخيانة: لا حاجة لتهمة ثالثة، بل إن أياً من هاتين التهمتين تكفي.

قبل المحاكمة بغمضة عين، كانت الدبابة قد دفعت المصفحة، أو العكس، فصفع ضابط شاب برتبة الملازم خد رئيس الجمهورية - كان لا يزال كذلك - فاندفع ضابط شاب أيضاً، لكنه برتبة الملازم الأول، وحمى الخد الثاني لرئيس الجمهورية من الصفعة الآتية لا ريب فيها. وأراد أن يمضي به - إلى أين؟ الله أعلم - فطالب الملازم به. ولما رفض الملازم الأول، أشهر الملازم مسدسه، فعاجله الملازم الأول برفسة أسقطت المسدس، وهنا انشقت العتمة عن ضابط أكبر، ليس أقل من مقدم أو عقيد، وأمر الملازم بأن يأخذ إلى أم الشراطيط هذا الذي يظن أنه لا يزال رئيساً للجمهورية. ثم أمر الضابط الكبير الملازم الأول أن يشحط الحيوان الثاني - أي رئيس الوزراء - من بيته ويعجل به إلى أم الشراطيط، فقد حكمت المحكمة العسكرية عليه غيابياً بالإعدام.

في وضحة ما على طريق مترب يلتف على مطار المزة، وربما يلتف على أم الشراطيط أو يخترقها، انهمر الرصاص ذاتياً، فصار جسد رئيس الوزراء غربالاً، أما جسد رئيس الجمهورية فصار خذروفاً يدور حول نفسه، أسرع فأسرع وأعنف فأعنف، حتى أحصى من أحصى فيه مائة وستة

وسبعين ثقباً، أى مائة وستاً وسبعين رصاصة، على ذمة هذه التى وقفت إلى جانب نديدا، تدارى دموعها وحبات المطر التى صغرت وتباطأت، وتلهج بالدعاء على الباغين.

لابد أنها من نوى المرحوم: فكرت نديدا وهى تصدق رباح وسنان وتكذب عينيها: نعش ملفوف بالعلم، ثمانية من العساكر يحملون النعش، ثلة من الشرطة العسكرية تؤدى التحية للنعش، رؤوس عارية وطرابيش وقبعات وتكبيرات وزغاريد وسيارة يستقر النعش على ظهرها.

سابقت نديدا موكب السيارات الطويل، ولبثت قبالة معهد اللاييك، تتأمل حمرة القرميد، وتنتظر أن يفرغ الذين ضاق بهم جامع لالا باشا من الصلاة على من صار شلّيطا، بالأحرى: شلّيطا الأول، ولابد أن الدود قد عرّى لحمه عن عظامه. ولما طال الانتظار علقت نديدا عينيها هنيهة على نؤابة المئذنة البيضاء، ثم مشت على هون نحو المكتب، غير آسفة على ما أخلفت من مواعيد. ولما انغلق عليها باب غرفتها، أسرعت إلى النافذة وأطلت على الشارع، فتراءى لها كأنما قد عاد من عزّ الشتاء إلى عزّ الصيف، وكأنما طفح بمئة سيارة مكللة بالأعلام والأغصان، وبصور المشير القائد الذى كان سيصبح رئيساً فى مساء وشيك، بعد أن يكون الاستفتاء قد أنجز وعده. ولكى لا يختلط الأمر على نديدا، تسلل صوت رباح من ظهيرة إلى ظهيرة، ليقرأ ما لم تتبينه على أى من اللافتات المئة التى تحملها السيارات المئة: السوريون فى لبنان يرحبون بانتخاب الجنرال رئيساً للجمهورية.

وماذا أيضاً يا رباح؟

خُيّل لرباح أن نديدا قد سألت، وإن تكن شفتاها مطبقتين ونظرتها ساهمة، فأخذته الحمية، وترك لسانه يخبط خبط عشواء: بغمضة عين امتلأت الأفئدة بالتماثيل النصفية للمرحوم شلّيطا، مثلها مثل صالونات البيوت وأبهاء الإدارات العامة. وبغمضة عين انتزعت الأختام وشمعها الأحمر عن

مكاتب الأحزاب والجرائد التى أغلقها المرحوم شلّيطا قبل أن يتحول إلى تماثيل نصفية. وبغمضة عين..

- من أجل هذا أنت هنا يا رباح؟

استدارت نديدا عن النافذة، كأنها لا تريد أن تعرف سبباً لزيارة رباح. وخيل لها أن ظلاً لسنان قد حلّ محلّ رباح، وأن انتفاخ وجنتيه بنشوة النصر قد فشّ، فتساءلت عما إن كان أمله قد خاب بالانقلاب الثاني، وعما إن كان متفائلاً بالانقلاب الثالث مثل رباح. وتبسمت زاهدة أو ساخرة أو مستبشرة، بينما كان الظل ينسحب مفسحاً لضابط آخر طال انتظاره أمام باب المكتب.

إنه الكابتن بدر الدين أتماز: فى مثل طول سنان عبد المنعم، بل أطول بقليل، سوى أن سمنته البادية لا تخدع العين. سمنة هى فى الخدين والكتفين، سمنة فى الصدر والخصر، ولكن من سيصدق نديدا لو أنها أضافت أن لصوت بدر الدين سمنته، كما لنظراته؟

فى اللقاء الثانى صارت السمنة عافية وامتلاءً. وفى اللقاء الثالث تتوج كل ذلك بجمال آسر وفريد، لم تلحظ نديدا مثله من قبل فى رجل. ولعلها لذلك راحت تقارن - بعد ذلك اللقاء - بين بدر الدين أتماز وسنان عبد المنعم، ثم بينه وبين رباح أبو شلة، ثم بينه وبين من عرفت فى الجامعة من الأساتذة ومن الزملاء، ثم انتقلت إلى من عرفت فى المحاكم من المحامين أو القضاة، بل ومن المتهمين. وبعد كل مقارنة كانت عيناها تغزلان: بدر الدين أحلى.

فى اللقاء الأول ابتدرها بدر الدين: أنت أحلى من رأيت، فأصابها البهت. كانت عيناه هما من نطق بجرأة سوف تمتدحها نديدا أمام ميريل، وسوف تسميها أمام ابتهال بالوقاحة. ولذلك رسمت نديدا:

- لضحكته، لحركات يديه، لطريقة جلوسه... ذلك الفجور الناعم الخفي. لالا، ليس ما به فجور. هذا ظلم. بدر الدين شهواني، ولكن بخفر. بالأحرى، بقليل من الحياء، أو بكثير من المكر.

ولابتهال قالت نديدا:

- بدر الدين أتماز مرافق رئيس الجمهورية، ثلاث نجوم على هذا الكتف وثلاث على هذا الكتف، يريد أن يعرف سبب امتناعى عن زيارة درة حفظي.

سألت ابتهال بامتعاض:

- متى ستقولين: أمي؟

قالت نديدا:

- ربما بعد موتها. أما إذا متّ قبلها.

- حرام عليك يا أختي.

. قالت ابتهال مقاطعة، فاندفعت نديدا تحدثها عن الضابط الذى حضر إلى المكتب مرة بعد مرة، وبخاصة بعد إعدام الرئيس، وجاء صوتها ندياً:

- بعدما اختفت أمك ما عاد يذكرها. كأنها ما كانت.

- وأنت لم تسأليه.

قررت ابتهال، فقالت نديدا متهكمة:

- نسيت.

وأسرعت بالخروج راغبة فى خلوة، لا فرق بين أن تكون فى البيت أو فى المكتب، فالمهم أن تكون وحيدة، كى تستعيد صوت بدر الدين، يرسم لها شاباً لم ينتظر البكالوريا، وربما لم يستطع بلوغها، فانخرط فى مدرسة صف ضباط الدرك بعدما حمل البروفيه، وتخرج بعد سنتين برتبة وكيل. وسرعان ما وجد نفسه رئيس مخفر باب الفرج وسط حلب: لابد أنى كنت أصغر رئيس مخفر فى سوريا. دوّخت حلب يا نديدا.

لأول مـرة ينطق باسـمـهـا مـجـرداً من لقب: لا خـانم ولا أسـتـاذة ولا مدموازيل.. وبينما تجاهلت هي ذلك، لبث صامتاً كأنما يترقب صدى فعلته. ثم ضاعف من مكره، في ذلك اللقاء أو في لقاء آخر، وهو ينخرط في مدرسة ضباط الدرك، كي يقفز من رتبة الوكيل إلى رتبة الملازم الثاني، ومن مخفر في حلب إلى ثكنة الشرطة العسكرية في الشام، ثم يقفز من رتبة الملازم الأول إلى رتبـة الكابتن كمـا يليق بمرافق الرئيس المشـيـر المرحـوم: شلّيطا الأول.

في تلك الخلوة، ولسبب ما، تشككت نديدا في كل ما رواه بدر الدين عن نفسه. كان المكتب قد أعتم، أي إن الشمس الخريفية قد بكرت في الغياب، بينما تكاثفت الغيوم البيضاء حتى بلغت النافذة قبالة كرسي نديدا. ومن خلل الغـيـوم بدت الأوراق المصـفـرة تتكاثف أيضـاً وتقـتـرب من النافـذة، فانقبضت نديدا، وتلفتت تستنجد من يمسح هذه الكآبة التي داهمتها فجأة، وستظل تفعل حتى يظهر رباح ذات مغيب مذهّب.

قال رباح:

– بعد الإعلان عن الاستفتاء على رئيس الجمهورية، لم يجرؤ أحد على المنافسة. ظلّ شلّيطا المرشح الوحيد حتى ظهر شيخ اسمه بشير كمال. قبل الاستفتاء بثلاثة أيام قصد المسكين مكتب المحافظ ليقدم أوراق ترشيحه للرئاسة. ومن حسن حظ بدر الدين أتماز أنه كان في أجازة في حلب. تعرفين: هو من حلب التي راقت لها طرفة الشيخ بشير. وعلى ذمة كثيرين أن بدر الدين حمل على ظهره الشيخ بشير ولم ينزله إلا في سجن المزة، ثم طار إلى القصر، واستطاع أن يقابل الجنرال الذي كان غاضباً. لكن بدر الدين استطاع أن يجعله يضحك، بل يقهقه حتى دمعت عيناه، ثم أمر:

– علّقْ يا بدر الدين.

فأدرك بدر الدين بفطنته الخارقة ما أمر به الجنرال، وصدع للأمر، فعلّق نجمة على كل كتف، وصار الكابتن بدر الدين أتماز، وسرعان ما أمر الجنرال: كن مرافقى يا بدر الدين، فكان.

قالت نديدا مستملحة وساخرة فى آن:

– من أين لك هذا كله؟

قال باعتداد:

– لا تنسى أنى الصحفى الشمام. عندما سمعت هذه الأخبار، قلت: عجّلْ يا رباح إلى حلب. قضيت فيها يومين والثالث دون أن أتبين الهزل من الجد فى قضية الشيخ بشير كمال المعروف بالظرف واللطف. ولكن من الناس من يقول إنه مجنون. مجنون رسمي. للشيخ بشير كمال المرشح لرئاسة الجمهورية، حزبه ودستوره الخاص. دستور بمواد وفقرات وفذلكات مثل أى دستور لأى جمهورية أو مملكة. جمعت هذا الدستور من بعض الجرائد الحلبية، وبعد الانقلاب على شلّيطا نشرت ما جمعت فى (ألف ياء). تعرفين: الجرائد التى أغلقها شلّيطا عادت للصدور، ومنها ما نقل عن (ألف ياء) كل أو بعض ذلك الدستور الذى قسم الوزارات تقسيماً لا يخطر لك على بال. بدلاً من وزير الخارجيةْ قال: وزير الإنسانية، وبدلاً من وزير الدفاع قال: وزير التأديب. بدلاً من وزير الصحة قال: وزير الحياة. ووزير الدولة العالمية العادلة هو صلة الوصل مع الأمم المتحدة. وزير الحيوانات يؤلف بين الحيوانات المتباغضة مثل الديب والغنم. وزير المهمة هو من يشرف على الحياة الداخلية فى البيوت، وللنساء جعل وزيرة.

قالت نديدا بصوت ضجر:

– سألتك عن بدر الدين أتماز لا عن الشيخ بشير كمال ولا عن حزبه.

ابتسم رباح مسترضياً وقال:

- بدر الدين يا ستى استملح ما نشرته عن الشيخ وحزبه ودستوره، فدعانى بالهاتف إلى مكتبه فى القصر. تعرفين أنه انتقل من مرافق للرئيس المرحوم إلى مرافق للرئيس الجديد.

- أعرف، من مرافق لشلّيطا الأول إلى مرافق لشلّيطا الثاني. ولكن كيف استطاع ذلك؟

- هل يكفى أن أقول إنه داهية، وإنه غير وفي؟

- كأنك كاره له.

- قد أكون لا أحبه، لكنى معجب به. سوف يكون لبدر الدين شأن كبير فى يوم من الأيام.

فكرت نديدا فى أنها قد تكون هى أيضاً معجبة ببدر الدين، وإن كانت لا تحبه.

ورمت رباح بنظرة مستزيدة، فجعل لوجهه هيئة من سيفشى بسر، وهمس:

- لا أظنك تعرفين أن بدر الدين كان عاشقاً لواحدة من أردأ عاهرات حلب، ولم يقطع علاقته بها حتى اختفت.

اربدّ وجه نديدا، وقسا صوت رباح:

- يظهر أن المسكينة كانت أيضاً عاشقة للرجل. ويقال إنها لحقت به إلى هنا عندما علمت أنه صار مرافقاً لرئيس الجمهورية. وفجأة اختفت.

قالت نديدا مستنكرة:

- غير معقول. ألسنة الناس لا ترحم.

- قيل إنهم عثروا على جثتها هنا فى نهر يزيد. وقيل بل عثروا على الجثة فى نهر قويق فى حلب.

قال رباح كأنما يحذر أو يتشفى، ومضى دون أن يلقى بتحية وداع.

فى لقاء آخر غير بعيد، اعترف رباح لنديدا بالكذب: عرفت بدر الدين أتماز بعد الاستفتاء. هل تذكرين الطائرتين اللتين حلقتا بعد الاستفتاء

وراحتا ترميان بالقصاصات المباركة بالفوز العظيم؟ هل رأيتهما تحاولان اللعب فإذا بهما تتصادمان فى كبد السماء وتسقطان فوق الغوطة، قريباً من بستان عمك الدكتور عبد الواسع؟ أنا رأيت، وكنت أول من وصل من الصحافيين، وكنت أول من كتب عن الحادث المروع. لكن يبدو أن قلمى خاننى وكتب ما أغضب صاحب الجريدة. لابد أننى كنت غائباً عن الوعى حين كتبت، وبلا مناسبة: لو دامت لغيرك ما وصلت لك. ولأزيد الطين بلّة ترجمت هذا المثل إلى العامية المصرية وكتبت: هيَّ دامتْ لمين يا هبيل؟ وهكذا خُيِّل لصاحب الجريدة أننى أمازح الاستفتاء والعياذ بالله، فتبرأت مما كتبت، وخفت من القلم ومن الرجل ومن الجريدة، ولم يهدأ خوفى حتى تذكرت والدتك، وفكرت فى التسلل إليها فى القصر. ولما ذكرت ذلك لصاحب الجريدة شجعني، فتضاعفت حماستي، وتظاهرت بأنى أقصد تهنئة الرئيس، لكنى لم أصل إلا إلى مكتب مرافقه الجديد، وبطلوع الروح. أخونا بدر الدين مثل الحمص على الطبل: لا يهدأ. منه حفظت هذا المثل. أخونا عفلق زمانه: نابغة. وهذا المثل حفظته منه أيضاً. تعرفين: لا يسوق جملتين إلا ويكون المثل هو الثالثة، أربع جمل والمثل هو الخامسة. وعلى كل حال ما راق لى منه إلا هذه الخصلة، وقد بدأت أقلّده فيها. منه حفظت: ساعة الحب قصيرة. ومنه حفظت: طار طيرك وأخذه غيرك. ولما لفظ رباح المثلين أحس بالنشوة. فلابد أن ما استبطنه منهما ستدركه نديدا. ستعرف أن ما يتلامح بينها وبين بدر الدين لن يدوم. وستعرف أنها هى طير رباح الذى طار ليستولى عليه بدر الدين. لذلك تابع: لسان بدر الدين بذيء، واكتفى لذلك بمثال واحد: فلان لغّ فلانة، ثم أقسم: والله يا نديدا أخجل من أن أتلفظ بألفاظه.

قالت نديدا:

- عجيب. بدر الدين معى مهذب جداً جداً.

فتجاهل رباح ما قالت وتابع:

- عنده انقطعت بى الطريق إلى والدتك.

تساءلت متشككة:

- ماذا كنت تريد منها؟

فأجاب:

- خمنى على هواك. فى البداية فكرت بأنها من يحمينى إذا ما انكشف مزاحي مع الاستفتاء أو عليه. ثم فكرت بأنها من يصلنى باثنين. والله لو فعلتْ لانقلبت حياتى فوقانى تحتاني. كنت أريد أن تصلنى بك وبالرئيس. عندما علمت أنك ترفضين لقاءها ضعف أملى بك. لكن أملى بالرئيس لم ينقطع حتى خردقوه بالرصاص، ومن أجل ذلك حرصت على زيارة بدر الدين فى مكتبه، مرة أو مرتين فى الأسبوع. أنت لا تعرفين أن الصحفى الشمام علم أن بدر الدين هو من فتش بيت الرئيس المرحوم بحجة البحث عن وثائق. زوجة المرحوم طلبت سيارتها الخاصة، فوعدها بدر الدين وكذب. السيارة ملك المسكينة، وليست للدولة، لكن بدر الدين لا يكفيه أنه غير وفي. بدر الدين كذاب أيضاً. والآن هل لى أن أسألك عن اهتمامك به؟

أجابت نديدا بالصمت. وما إن خلت بنفسها حتى داهمها الندم على أنها التقت رباح مراراً خلال الفترة القصيرة الماضية. ولما حاولت أن تتذكر كيف بدأت اللقاءات، رأت نفسها نهب أفكار شتى ومشاعر شتى. فمنذ أعلنت الطلاق، قبل أن يعلنه القاضي، تحاشت لقاء رباح. وعندما كان رباح يُحضر رمزى إلى أمه، كان يسلمه للخادمة زهور عند الباب، وينصرف. كان يمشى صعداً فى الجبل حتى آخر بيت من الحي، ثم يهبط على مهل، ويتلوى مع أية جادة تصادفه، يتقرى الأبواب والنوافذ وطلاء الجدران، ويتشمم أحياناً ما فاح من روائح الطبخ أو النباتات، ليقدر ثراء أصحاب هذا البيت، وهذا، وذاك، وذلك، ويقارن بما خبر من بيت الدكتور عبد الواسع، فيتحلب ريقه وهو يستعيد وجه نديدا حين كانت تبزغ مثل شمس الصباح، تزقو ومثلها

يزقو رمزي. لكن صدر رباح سرعان ما كان ينقبض وهو يستعيد خروج نديدا إلى المكتب أو إلى أية محكمة، وبكاء رمزى فى حضن جدته التى تلعن هذا الزمن وتستغفر الله وتبربر: صارت المرأة تترك ابنها وراءها وتركض بين الرجال، فلا يكون لرباح إلا أن يطأطئ. ورغم ذلك سرعان ما تبدد رضا نديدا، وانقلب ملأً وغضباً: سامحكِ الله: كان يتمتم وقد هدّه السير جزافاً ريثما يحين وقت استعادة رمزى من حضن أمه، والعودة به إلى حضن جدته.

ذات صباح فاجأت نديدا نفسها، كما فاجأت الجميع، إذ حضرت إلى بيت رباح الذى أبكمته المفاجأة، كما أبكمت أمه. ولما أخذ رمزى يحرر البكم، تعثر أبوه بالفرحة، بينما تعثرت جدته بالنكران والعجب: مطلقة تأتى إلى بيت طليقها؟!

نكاية بمن استنكروا فعلة نديدا، كررت زيارة ابنها فى بيت أبيه - أى كررت زيارة طليقها - حتى خافت من أن يعود الماضي، ففاجأت نفسها كما فاجأت الجميع: ما من زيارة بعد لبيت رباح.

غير أن رباح صار يتردد على مكتب نديدا. بل هو دخل بيت الدكتور عبدالواسع إثر عفو الرئيس عن درة حفظي. ونديدا لا تنكر فى سرها أنها يسرت لرباح أن يزورها من حين إلى حين. ونديدا لا تنكر أيضاً أن ذلك قد كان فى البداية لأنها كانت بحاجة إلى من يقف إلى جانبها إثر ظهور درة حفظي، وبخاصة إثر اختفائها. كانت بحاجة إلى رجل مثل بدر الدين أتماز، أو إلى رجل مثل رباح أبو شلة، أو إليهما معاً، ليبقى اختفاء درة حفظى لغزاً، وقد بات على نديدا أن تحلّه، بعد أن ظلت طويلاً تهوّن منه، أو تتجاهله.

من أجل ذلك صارت تطيل من العزلة فى البيت أو فى المكتب أو فى المزرعة، كما صارت تطيل من زيارتها لابتهال، أو من مجالستها لماما

افتخار، حتى تنبهت إلى أنها تبدو كأنما تتحاشى لقاء رجل من الأقربين، فليس رباح وحده من تتحاشاه، بل الدكتور عبد الواسع نفسه، أما بدر الدين فما عاد يباغت نديدا فى المكتب أو فى هاتف. ومن مساء إلى مساء ألفتْ أن تلازم الراديو فى غرفتها، تلوح لطفولة كانت تتندى بصوت الست افتخار وهى تدندن: لا مونى ع الليمونى شامى والله، فيدندن الراديو فى برنامج (من نشوة الماضي): حبيبى غاب وأنا قلبى داب، فتدندن نديدا: يَغْبونى ع اليغبونى واشْ لكْ يا زين... وحين تتوحد الأصوات تكون الإذاعة قد أُغلقت، ولم يبق لنديدا إلا الوشيش، فتستعين به فى بحثها عن النوم.

من قبل الطلاق وأنت نائمة. على يد رباح تجرعتِ ما يُنيْم حبة حبة وقطرة قطرة حتى غرقت فى مثل نوم أهل الكهف.

عندما اقترب زواجك صرت تتقلبين على جمر. فى يقظتك وفى منامك كانت شهوتك تقتلك. رباح أنقذك واستل شهوتك ليلة بعد ليلة حتى صرت غريبة عنه وعنك، تتفرجين عليه وعليك: رجل وامرأة يتضاجعان ببرود ما فتئ يكبر حتى همست: كفى، ثم صرخت: كفى، ثم أصابك النوم بدائه، فحسبت أن الطلاق سينقذك ويوقظك، لكنك ظللت تهدرين فى مرافعاتك، أو تلاعبين ابنتى ابتهال، أو تدعين ملك كبارة إلى الغداء، أو ترافقين ميريل ومنذر إلى السينما، أو تزورين قبور أبيك وجدك وجدتك فى غير صبيحة عيد، أو تسبقين ماما افتخار إلى المزرعة، ومثلها تعتذرين من الدالية قبل أن تقطفى عنها ورقة، وتتباهين مثلها بما تزدهى به العرائش من حبات العنب: بيض الحمام يا نديدا وعيون البقر، قلب الطير يا نديدا وساق الحجلة، وعمك يلحق بك وبماما افتخار حاملاً دفتره الجديد، وأنت تتحسرين مثله على دالية شاخت ودالية يبست، فما عاد فى المزرعة عنقود واحد شيحانى أو حزيراني، ولا عنقود زينبى أو جوزاني. وفجأة تعتريك الرعشة: ترانى يبست أنا أيضاً أو شخت؟

كنت تسألين المشمشة، وعلى جذعها تسندين ظهرك، تنتظرين الجواب الذى لا يأتي، فتشكين للنسائم الربيعية هذا الفراغ الذى يكبر بين ضلوعك، وتروح أناملك تمسد على ظاهر ساعديك، وباطن كفيك يمسد على ركبتيك وعلى ربلتى ساقيك، فتسألك المشمشة عما يجعل الغصن ييبس وهو على أمه، فيرجفك السؤال مرة بعد مرة، ومن يوم إلى يوم، حتى يفاجئك بدر الدين أتماز بشهوة عينيه. عندئذٍ فقط تدركين أنه قد آن الأوان، فتنفضين النوم عن أجفانك، وتعانقين السهد اللذيذ ملء سريرك، تتشهين أنفاساً تلفحك، وشعرَ صدرٍ يخزك، وأصابعَ وقحة تتسابق إلى صدرك، وتخجلين من أن تتعرى أمامك مثلما كنت تخجلين من أن تتعرى أمام رباح. لكن بدر الدين يهتك خجلك تماماً فى غيابه، وأقل فى حضوره، فتغزلين لسهد جسدك الوعود، وتعودين سنوات إلى الوراء، كأنك عاشقة فى الجامعة لأطياف تخرج من القصص والأفلام، أو من المحاضرات ومن رفوف المكتبة، بل كأنك عروس لرباح نفسه. ولعل ذلك هو ما جعلك تفسحين له فى مكتبك حتى يرميك بما رمى به بدر الدين، فتتهاوين مثل حائط شيد على عجل.

لماذا يا رباح؟

لماذا يا بدر الدين؟

بدر الدين يعشق عاهرة، وأنت يا نديدا، عشقت بدر الدين لتتعهرى أم ليعهرك، أم إن رباح يكذب؟ وإن كان يكذب فهل يعنى ذلك أن بدر الدين صادق؟ ما الفرق بين أن يكون قد داهم منزل الرئيس وصادر سيارة حرمه، أم لم يفعل، ما دام قد انقلب على سيده مع المنقلبين، ويده مثل أيديهم، ملطخة بدم ذلك الذى قد يكون لا يستحق الرحمة، ولكن ما هكذا تكون محاكمة رئيس! ما هكذا تكون محاكمة أى إنسان، وأنت المحامية، وبدر الدين مثل أى من المنقلبين: مارق على القانون. كلهم مارقون، وها هو المروق يترسخ ويصير سنّة: انقلاب ثالث يطيح بالانقلاب الثانى كما أطاح الانقلاب

الثانى بالانقلاب الأول، سوى أن الدم لم يسل هذه المرة. وكل ذلك ولما يحل الحول! ضباط يتدافرون كباراً وصغاراً: هذا هو القانون الجديد. أما القانون الذى تعلمته فى الجامعة، وأرهقك به الدكتور عبد الواسع، فله الله. ما بقى منه إلا اسمه، لذلك حُقّ لبدر الدين أن يضحك ويضحك وهو يشير إلى رتبته ويسألك أن تصدقى مثله ذلك اليوم الزاهى الذى طارت فيه نجمتان عن هذا الكتف ونجمتان عن هذا الكتف، ليحط نسر على هذا الكتف ثم يحضن النجمة الباقية، ونسر على هذا الكتف يحضن النجمة الباقية، فيصير الكابتن بدر الدين أتماز الكومندان بدر الدين أتماز الذى يمكن أن يصبح الكولونيل بدر الدين أتماز خلال سنة واحدة، ولم لا؟ لِمَ لا يا نديدا؟ رئيس الدولة نفسه، أية رتبة كانت له قبل سنة؟ سنة واحدة كانت كافية لكى تطير رتبة المقدم إلى رتبة اللواء، ومعها طارت رئاسة الجمهورية لتحل محلها رئاسة الدولة. وغداً قد تطير رئاسة الدولة نفسها ليحل محلها... ماذا؟ ماذا يا نديدا؟ من سيحل محل رئيس الدولة يا بدر الدين؟

– أنا: هتف هاتف بنديدا، فاشتبه عليها الصوت بصوت سنان عبد المنعم. بل إنه صوت بدر الدين أتماز، ينضح شهوة ويتقد عنفواناً، ونديدا تنفر حتى تقطعت زياراته وهواتفه، قبل أن تنقطع، فاشتاقته نديدا، وكذّبتْ رباح.

– كان الحر فى أشده ـ كما هو البرد الآن فى أشده ـ عندما عاد سنان من رودس، فأسرعت نديدا لتهنئه بالسلامة.

فى أرض الديار احتشدوا يومئذٍ كما يحتشدون الآن فى الصالون: شقيق سنان الأصغر وزوجته، والد سنان وابن خاله غزال حاج تميم وأخته الصغرى وزوجها وزوجان من الأقارب، وكانت نديدا محفوفة بالدكتور عبد الواسع وبالست افتخار. وحسبت نديدا أن سنان يهذر عندما خاطب الجميع:

- أنا مسافر فجر الجمعة إلى نيويورك.

فسأله والده:

- خير يا بنى ؟

قال:

- سأعمل كمستشار عسكرى مع الوفد السورى فى الأمم المتحدة.

تعالى لغط الجميع إلا نديدا التى انتظرت حتى هدأوا، فقالت:

- هذا إما غضب زائد من الرئيس عليك أو رضا زائد.

وقال غزال حاج تميم:

- ما شاء الله! من مهمة كبيرة إلى مهمة أكبر. ولكن عمل الوفد فى واشنطن عمل ديبلوماسي، عمل سياسي، مالك وله؟

وتساءل والد سنان:

- وعمل الوفد فى رودس، ماذا كان؟

قال سنان وهو يرمى نديدا بنظرة خاصة:

- فى الحالتين هذا إبعاد لي.

قال الدكتور عبد الواسع ممازحاً:

- هذه فرصتك لتتعلم الديبلوماسية. من يدري، قد تصبح وزير خارجية فى يوم من الأيام.

وتعالى اللغط بينما كانت نديدا تفكر بما تحمله نظرة سنان: تراه يشير إلى وساطة درة حفظى له من جديد عند الرئيس؟

تبدل موعد الطائرة فتأجل السفر خمسة أيام. وهكذا لبّى سنان وابتهال دعوة غزال حاج تميم لحضور حفلة زكية حمدان فى العباسية. ولأن الدعوة مفتوحة حضرت نديدا، بينما رابطت زهور فى بيت سنان ترعى البنتين.

وكفعل السحر كان فعل اللحن والشعر وصوت زكية حمدان فى الجميع، وبخاصة فى سنان وغزال عندما صدحت:

غداً لما أموت وأنت بعدي

قفى بجوار قبرى ثم قولي

خدعتك فى الحياة ولم أغالِ

تطوفين القبور على تأني

أيا من كنتُ منك وكنتَ مني

وخنتك فى الغرام ولم تخني

وبسيارة غزال، أخذ وسنان يترنمان بالبيت الذى كررته المطربة مرات والتهبت له الأكف:

كأنى ما لثمت لها شفاهاً

كأنى ما وصلت ولم تصلني

ولأمرٍ ما سافر سنان دون أن تتمكن نديدا من وداعه، وخلّف لها ذلك غصة، كما لعله ضاعف من عنايتها بابتهال وبالبنتين طوال غياب سنان، وبخاصة فى البداية.

بعد ستة أشهر، أى بعد الانقلاب الثانى على الانقلاب الأول، وبعد الانقلاب الثالث على الانقلاب الثاني، ها هو سنان قد عاد، وها هى نديدا ضائعة بين من حضروا مثلها لتهنئته بالسلامة. لكن سنان لن يفلت هذه المرة من نديدا التى ظلت تتردد عليه عصر أو مساء كل يوم حتى كانت لها أول خلوة به. وبدا سنان كأنما كان ينتظر هذه الخلوة بمثل شوقها. سوى أنه بالكاد ذكر مقامه فى نيويورك أو عمله، وكانت ابتهال قد عادت إلى جلستها قبالته بعدما لازمت البنتين حتى أغفتا.

قال سنان ونظراته ترق وتغيم وهو يلاعب كأس الوسكى المترع بالثلج بين كفيه، كأنه يحلم أو يتذكر:

– سوف أسعى حتى تنهى القيادة مهمتى فى نيويورك.

فالتفتت ابتهال إلى نديدا شاكية:

- راتبه هناك في الشهر أكبر من راتبه هنا في سنة. آه لو أعرف ما الذى يجعله مستعجلاً على العودة!

قال سنان:

- مللت الثياب المدنية. اشتقت إلى بذلتي العسكرية، إلى مسدسي، إلى الثكنة.

- خذنا معك هذه المرة. خلنا نرى الدنيا أنا والبنات. لن تعود قبل أن توفر ما يكفي لنبدل هذا البيت ببيت أكبر.

قالت ابتهال راجية وجازمة في آن. لكن سنان بدا كأنه لم يسمعها، وراح يتدفق كنهر حبيس، وراحت نديدا تلهث خلفه. وبينما انسحبت ابتهال ممتعضة، تضاعف تدفق النهر كلما تجدد كأس الوسكي، فتضاعف اللهاث، حتى تقطعت أنفاس نديدا بعدما انتصف الليل.

كان سنان قد أوى إلى سرير ابتهال منذ دهر، وكان على نديدا أن تأوى إلى واحد من سريرى البنتين، لولا أن صدى صوت سنان ظل يشف ويحن ويقسو ويبترد، بينما نديدا تحتار فيما إن كان عليها حقاً أن ترافقه فيما عزم عليه: أن يزور ضريح أنطون سعادة في مقبرة كنيسة مار الياس في بير حسن، في بيروت، ونديدا لم تزر بيروت منذ سنة، بل منذ أكثر من سنة، دون أن تدرى لذلك سبباً. وسواء أرافقت سنان أم لم ترافقه، فقد بات بوسعها الآن أن ترى أنطون سعادة حياً: أجلح وأسمر وأقصر من سنان وأهدأ، لا يفارق حقيبة اليد ولا المسبحة، ولكن ماذا لو لم يصدق سنان فيما يصف؟

تبدد سؤال نديدا لينفرد صدى لصوت سنان بالليل الذى تضوّع ثلجه في الخارج كما تضوع دفء المدفأة قرب نديدا، وإذا بسوريا الكبرى تكبر بعدما عاد أنطون سعادة من الأرجنتين، لتصبح الهلال السورى الخصيب، فمرحباً بالعراق والكويت وقبرص، ومرحباً بك يا نديدا وسيلةً لتحقيق أهداف

المجتمع، مثل أى فرد منا أجمعين. مرحباً بمى زيادة بين المجانين فى مشفى ربيز. مرحباً بنديدا الكهرمان وبمى زيادة بين حروف أنطون سعادة فى جريدة النهضة حتى تثور ثائرة بيروت وتخرج مى من العصفورية. لتظل ثمة نديدا حتى تصدق أن الدولة السورية القومية الاجتماعية هى التى ستحرر فلسطين، تماماً كما نقل لك للتو سنان عن زعيمه، ثم التحق بالوفد الذى يفاوض الإسرائيليين فى رودس: احترامى سيادة العقيد، العقيد محمد ناصر رئيس الوفد يا نديدا. الآن هو آمر سلاح الطيران، لكنه البارحة كان رئيس الوفد، وأنا، أنا لست عضو الوفد كما تعلمين، أنا فقط من ناداه حسنى الزعيم بعد ما شرشحنى بسبب درة، ولابد أن درة هى من جعلته يناديني، ويرد تحيتى واقفاً، ويصافحني، ويخاطبنى من عليائه كأنه لم يشرشحنى البارحة: التحقْ بالوفد فى رودس. إياك أن يعود الوفد قبل أن يوقع الاتفاق مع الإسرائيليين. إذا عاد الوفد دون أن يوقع فأهلاً به، ما عداك أنت، ابق هناك. ابق فى جهنم. ولو عدت مع التوقيع فسأكافئك بما لا يخطر لك على بال. وقد عدت وعاد الوفد بالتوقيع، ولكن هل تعرفين ماذا جرى؟

قبل أن يقول لى أحد، لا رئيس الوفد ولا غيره، قال لى هو بنفسه، الرئيس قال لى بنفسه: أريد أن أكون أول حاكم عربى يسالم الدولة اليهودية. ما قال إسرائيل. لاحظي. قال الدولة اليهودية. وكلف الوفد بأن ينقل اقتراحه بلقاء بن غوريون. لكن اسرائيل تطلب أن ننسحب من المواقع التى عجزت هى عن أن تردنا عنها داخل فلسطين. اسرائيل تريد أن ننسحب بلا قيد أو شرط، والوفد أصر على أن تكون الحدود الجديدة هى خطوط وقف إطلاق النار، فماذا قال رئيسنا المفدى وقائدنا الملهم؟ ماذا يهم إذا صدقتِ أو لم تصدقى أنه أرسل مع مندوب الأمم المتحدة لبن غوريون يعرض استعداده للانتقال من مفاوضات الهدنة إلى معاهدة السلام خلال ثلاثة أشهر، معاهدة تتضمن فتح الحدود وتبادل السفراء وإقامة العلاقات

الاقتصادية، وماذا أيضاً؟ هاتوا ٣٠٠٠٠٠ لاجئ فلسطينى ليسكنوا سوريا. عندنا الآن مائة ألف، هاتوا الباقى من باقى بلاد العرب، وماذا لنا بالمقابل؟ يكفى أن نأخذ نصف طبرية. سنعدل الحدود القديمة. لا لا. سنعود إلى الحدود القديمة بدلاً من حدود وقف إطلاق النار. بن غوريون اسمعني: أريد لقاء منفرداً بك. لكن بن غوريون رفض. أعلنوا أولاً الاستعداد للانسحاب إلى خطوط ما قبل الحرب: طلب الوفد الإسرائيلى منا. من حسن حظى أن مندوب الأمم المتحدة اقترح أن يُجَرَّد من السلاح ما بين الحدود القديمة وخطوط وقف إطلاق النار التى سننسحب منها. ولكن ما هو الوضع القانونى لهذه المناطق يا حضرة المحامية؟ سألتُ الجميع قبل أن يوقع أحد على اتفاق، فلم يجبنى أحد. الوضع غامض كما أراده مندوب الأمم المتحدة. لالا. قولى كما أرادته إسرائيل. انظرى الآن كم قضمت من المنطقة المجردة من السلاح. أنا أرى رأى العين يا نديدا أنها ستستولى على هذه المنطقة اليوم قبل بكرة، فتزيد مساحتها من نصف أرض فلسطين إلى ثلاثة أرباعها.

وكما ترين، عاد الوفد من رودس منتصراً. عاد يحمل التوقيع الذى ينتظره الرئيس، فوفى لى بوعده. وليس كرمى لدرة حفظى هذه المرة. لكنه راح، لا أحد بيننا الآن اسمه حسنى الزعيم، فلماذا أبقى فى نيويورك؟ يجب أن أعود يا نديدا. أنا الآن خارج الجيش مثل السمكة خارج الماء. السمكة تموت وأنا أموت. لا يغرك لقب مستشار عسكري. لم يستشرنى أحد بكلمة، حتى عندما كانت إسرائيل تقضم هذا الشبر أو هذا المتر أو هذا الكيلو متر من المنطقة المجردة من السلاح، لم يستشرنى أحد بكلمة.

وعلى وقع أضراس تطحن، وأنياب تقطع، وأسنان تصرّ، أى على وقع قطعة أرض تُقْضَم كأنها قطعة من لحم خروف، وربما من لحم إنسان، أغفت نديدا فى مطرحها، كأنها هى التى تعتعها الويسكى المثلج، وليس الصوت ولا صداه اللذان لم يتوقفا حتى هزج ضياء الشمس فوق صفحة الثلج التى تدثرت بها الشام.

الفصل الثانى

2

المصور بمصورته

عندما قلت لنديدا أول مرة: يا ريتني صيرْ مصور، ظننت أني أمزح معها، وضحكتْ. أظن أعجبتها المزحة. كان قد مضى على خطوبتنا شهر أو أقل. بعد زواجنا بسنة أو أقل من سنة، قلت لها متحسراً: ليتني كنت مصوراً. حسبتُ أن نظرتها تحثني على أن أواصل الكلام. سألتها عما إذا كانت قد تصورت يوماً عند استوديو بَحْبشْ. قال حاجباها لا، وسألاني عن هذا الاستديو. أغمضت عيني لأعود ابن عشر سنين يطير في العيد إلى المصوراتي، والفرنك يدفئ الفرنك فيْ جيبي. جلست على الكرسي وقلت للعجوز: صوِّرْ يا مصوِّر. أمسك صبي في مثل عمري بستارة سوداء ووقف خلفي. كانت الشمس ساطعة وكان الأولاد لا يزالون قليلين في الساحة. غابت ذراع الرجل في كمّ أسود وغاب الكم الأسود في الصندوق. تعلقت عيناي بعيني العجوز حتى حشر رأسه في الفستان الأسود الطويل الذي يتدلى من الصندوق. حدقت نديدا فيّ وهمست متعجبة: رجل وفستان أسود؟

فكرت أنها بنت أكابر، بنت الكهرمان، ولذلك لم تر مصوراً يحمل آلته على ظهره ويمسك بيده الكرسي المطوي الصغير، ويمشي على مهل. وفكرت أنها محامية، ولابد أنها تصادف مثل هذا المصور كل يوم. لماذا تسأل إذن إذا لم تكن تسخر مني؟ قلت والحنين يكويني: هو ليس فستاناً. أنا سميته هكذا. ضحكت مثلما ضحك أبي عندما ذكرت له المصور والفستان الأسود، ووعدني بأن يصحبني إلى مصور صديقه ليدخل رأسي في الفستان الأسود

فخفت. وعندما أراد أن يصحبني حقاً حرنت وبكيت، وبعد ما كبرت ندمت على ما فاتني. كنت قد صرت أعرف ما يخبئ الصندوق: المظهِّر في حوض يا نديدا والمثبت في حوض يا نديدا والكارت و... وقاطعتني بابتسامتها الساخرة وهي تتمتم:

- صحفي شمام ومصوِّر. شو بدك أحلى من هيك يا بنت رمزي الكهرمان؟!

جرحتني لكنني تجاهلت الجرح وسألتها:

- عندما أصور جلسة في البرلمان في مقالة، ألا أكون مصوراً؟

قالت:

- لا. تكون فناناً، رساماً.

وانصرفت لاوية بوزها.

كانت سخرية نديدا تزداد. كأنها تستهين بي. كأنني لم أملأ عينها. لماذا رضيت بي إذن؟

بدر الدين أتماز بمصوِّرة رباح كرمي لنديدا، بل نكاية بها سوف أصور بدر الدين أتماز وسأحمل صورته لها. عليّ أن أعترف بأنني نسيت ذلك حتى مساء ٢٢ أيار أي حتى المؤتمر الصحفي الذي دعا إليه رئيس الوزراء بمناسبة انتهاء القطيعة الاقتصادية بين سوريا ولبنان.

أنا مصور يا نديدا. اضحكي ولكن إياك أن تظني أني حمار. أنت تعرفين أنني معجب بالحمار وأنني أحترمه كأني عضو قيادي في الحزب الديمقراطي الأمريكي، لكنني لست حماراً. أنا صحفي، وبلا فشخرة، أنا صحفي مهم وفي يوم من الأيام سأكون أهم صحفي في الشام. أما حضرة جنابك فالعشق باين أشْكرة. كأنك تسألين عشق من لمن؟ عشق نديدا الكهرمان لبدر الدين أتماز وعشق الغضنفر لها.

بدر الدين أتماز عكس شقيقه مئة بالمئة. عطاء الدين أتماز أستاذ وشيخ. أيام فرنسا نام في بيت خالته سنة وشوي. ضبطوه يوزع مناشير ضد فرنسا. أثناء سجنه جمع حوله نصف سجناء سجن حلب. كثيرون منهم ظلوا يتبعونه بعد خروجهم وخروجه وصاروا وجوهاً معروفة بين الإخوان المسلمين.

الأستاذ الشيخ عطاء الدين نفسه طحش على منصب المراقب العام للإخوان المسلمين في سوريا ولبنان. وعندما كان بدر الدين يتدرب في مدرسة ضباط الدرك أو في مدرسة صف ضباط الدرك كان أخوه يدرّس في الدورات الليلية لتدريس العمال. لجنة مكافحة الأمية عند الإخوان المسلمين كانت تنظم هذه الدورات. والشيخ الأستاذ نفسه كان بين المشرفين على شباب الفتوة عند الإخوان وهم مثل الكشافة. كأني أسمع أصواتهم الآن تهدر:

الله أكبر وسبحان الله

الله ربنا

والقرآن دستورنا

ومحمد رسولنا

والإسلام شريعتنا

قبل عشرين سنة أو أكثر سافر الشيخ عطاء إلى مصر ودرس في الأزهر. درس القانون الإسلامي ولكنه رجع قبل أن ينال درجة الأستاذية أي ما يعادل الدكتوراة في علوم وتاريخ الفقه الإسلامي. ومع ذلك درّس سنة واحدة في معهد الحقوق وكان مثل النملة لا يهدأ. ساعة في المركز العام للإخوان المسلمين في السنجقدار وساعة في مركز القيمرية. ساعة في مركز قبر عاتكة وساعة في مركز الميدان وساعة في مركز الصالحية. بل كان يصل إلى مركز برزة ومركز داريا ومرة قطع الثلج طريقه إلى مركز الإخوان

فى النبك. كان أبى رحمة الله عليه من المعجبين بهذا الشيخ الأستاذ الشاب. كان يضرب به المثل أمامى ولكنى فى تلك الأيام كنت العاشق الولهان وكانت نديدا طالبة.

كان بدر الدين هو بلوى الله التى ابتلى بها عبده الفقير عطاء الدين. لذلك أظن أن معرفة شقيقه الأكبر، يعنى والده الثاني، ضرورية لمعرفة بدر الدين نفسه.

الاستخبارات فى دم بدر الدين. ولابد أن رؤساءه لاحظوا هذا من أول الطريق فسلموه الشعبة الثانية فى مجدل شمس فى الجولان. صاحبنا جنّد من المخبرين من هبّ ومن دبّ وصرف لهم ليرات سورية خير الله. ولكن يقال إنه صرف لنفسه باسم المخبرين ما هو أكبر. اسرائيل أيضاً تجند المخبرين هناك وفى أى مكان تستطيع فيه التجنيد. كان بدر الدين يحبس من خلق الله على هواه وكان يسجل من يسجل فى سجل السجن على هواه، حتى إذا توسط كائن من كان لسجين، فتح بدر الدين السجل وأنت وحظك يا أبو الحظوظ. إذا لم يكن اسم السجين فى السجل فبدر الدين جاهز: أقسم بالله العظيم ونبيه الكريم هذا الاسم ليس عندي.

عندما قرر قائد الجيش قبل أن يصير رئيس الجمهورية - أنا لا أقول الجنرال ولا المشير ولا المرحوم حسنى الزعيم ولا شلّيطا ولا خلافه - شراء الأسلحة للجيش طار بدر الدين مع من طاروا إلى قبرص واشتروا الدبابات بالطن على عطلها. دبابات تركها الحلفاء فى أرضها حتى تشرفنا فى ليلة ما فيها ضوء وتبيت فى مستودعات قطنا وفى مستودعات القابون. تمت صيانة ١٥ دبابة وسجلوها فى السجلات الرسمية. والباقي؟

الباقى بقى فى العراء: سلاسل السير والأبراج كلها مشلّعة. هنا لم أسمع من ابن آدم ولا من بنت حواء كلمة بحق بدر الدين. ما من أحد اتهمه

أو اتهم من كان معه بشراء هذه الخردة مقابل عمولة لا سمح الله. ولكن إذا كانت النية سليمة تبقى الجحشنة ويبقى الجهل واللامبالاة.

كان لبدر الدين بيت فى مئذنة الشحم وبيت فى معسكرات القابون التى بناها الإنجليز. ولم أتمكن من أن أعرف كيف صار له بيت ثالث فى معسكرات قطنا، أم تراه ترك القابون لينتقل إلى قطنا؟

فى سنة ١٩٤٦ اشترك بدر الدين أتماز فى قمع ما سموه تمرد سلمان المرشد فى الجوبة. وقد تأكد لى أن بدر الدين عاقب الدرك وغير الدرك من الذين اعتدوا على الناس فى تلك المنطقة. وفى السنة نفسها أشرف بدر الدين على تدريب الطلاب فى التجهيز. كان الطلاب يلبسون مثل لباس ضباط المشاة الأمريكيين. كانوا يخبطون الشوارع بينما الطبول تقرع لهم والنساء ترش الزهور والعطور عليهم وكان بدر الدين أثناء ذلك ينتفش مثل الطاووس على ما سمعت.

فى الحرب التى أسميها هزيمة ويسمونها نكبة، قيل إن بدر الدين أشرف على تشكيل سرية من الأكراد والعلويين ضمن جيش الإنقاذ. طبعاً العهدة على الراوى وهذا الكلام له مصدر واحد والقانون يسمح للصحفى مثلى بالتكتم على مصادره.

بعد الحرب أشرف بدر الدين على دورة مرشح ضابط للشبان الفلسطينيين فى معسكرات قطنا. وقبل ذلك بفترة لا بأس بها كان فى حلب، مد يده إلى الحرام وأرهب ثلاثة من تجار الغنم وقبض أكثر من مئة ليرة ذهبية. لماذا وكيف؟ الله وحده يعلم. لولا أن دبّر رأسه لنام فى سجن المزة حتى تختختْ عظامه.

ما يصعّب عليّ تصوير شخصية مثل بدر الدين أتماز ليس فقط أننى لا أحبه، أو أننى أخاف منه، ولا أنه يقطع على الدرب إلى نديدا مع أن هذا الاحتمال ضعيف. لا ليست الصعوبة هنا بل هى فى التناقضات التى جمعتها حول هذا الرجل.

على سبيل المثال: قيل لى إن بدر الدين أتماز صاحب الفضل فى قرار هدم سجن الشيخ حسن، وليس وزير الداخلية. بدر الدين هو من أقنع شلّيطا الأول باقتراح وزير الداخلية. أنا كنت مع من زار سجن الشيخ حسن بعد صدور القرار وقبل تنفيذه. لا حول ولا قوة إلا بالله. أنا لا أصدق أنهم كانوا يسجنون ابن آدم فى هذه الزنازين. والله العظيم حتى الحية، حتى العقرب، حرام سجنها فى هذه الزنازين. إذا كان بدر الدين صاحب الفضل فعلاً فله الأجر والثواب دون أن ننسى أن السجون عندنا والحمد لله كثيرة. ومن يعلم ربما كان بينها ما هو أفظع من سجن الشيخ حسن.

قد يقول قائل عن التناقضات حول بدر الدين: هذا طبيعى حتى لو كان من تصور شخصاً آخر. أنا أظن أن التناقض كبير فى عناصر صورة بدر الدين. الرجل طموحه كبير. طموحه كبير جداً. وقد كان رهانه الأكبر فى وقت قريب على المادة ٢١١ من قانون الجيش وكسب الرهان. المادة ٢١١ تسمح بالترفيع الاستثنائى وها هو رئيس الجمهورية يقول لبدر الدين: علّقْ. لكن من انقلب على الرئيس وخلفه، كان أكبر كرماً، شلّيطا الثانى كان أكبر كرماً من شلّيطا الأول لذلك صار الكابتن بدر الدين الكومندان بدر الدين قبل أن تلغى المادة ٢١١ .

لا ينقص بدر الدين إلا شيء واحد لا أعرف ما هو. ولكن لو توفر له هذا الشيء لجزمت جزماً أنه سيكون صاحب الانقلاب القادم فى سوريا. وعلى الأبعد الأبعد صاحب الانقلاب ما بعد القادم. ما يجعل الرجل منا هو الأول ينقص بدر الدين. كأن قدره أن يكون الرجل الثاني!

أستطيع أن أؤكد أن قليلين جداً من كانوا يعرفون العلاقة بين بدر الدين وأخيه عطاء الدين. بعدما صار بدر الدين الرجل الثانى أو الثالث أو العاشر فى القصر الجمهورى انكشف المستور. قبل الانقلاب كانت أحوال عطاء الدين سيئة بعد وصول الأخبار بمصرع الإمام حسن البنا فى مصر. الشيخ عطاء الدين كان مسبياً بالإمام مثلما كان قبل ذلك بفترة مسبياً

بالشيخ عز الدين القسام، على الرغم من أنه لم يلتق به إلا مرة واحدة في حيفا وهو عائد من مصر في عطلة الأضحى. قليلون يعرفون أن الإمام حسن البنا حمّل ذلك الشاب عطاء الدين أتماز رسالة إلى إخوانه في سوريا حتى يبدأوا ببناء تنظيم الإخوان المسلمين. ولكن إذا كان هذا يعلي من شأن عطاء الدين في عيون بعض الناس فهو لا يساوي شيئاً عند شقيقه. بل على العكس يكفي القليل القليل من هذا لكي ينقض بدر الدين على ابن أمه وأبيه.

عطاء الدين أتماز رجل شجاع. سمعت هذا من أبي رحمه الله. كل من يعرف الأستاذ الشيخ يؤكد أنه شجاع. عندما بدأت منذ فترة معركة الدستور حارب الرجل بشجاعة مع إخوانه حتى ينص الدستور على أن دين الدولة الإسلام. ولكن تصدى له ولإخوانه رجال شجعان أيضاً ومنهم من صرخ بوجههم: لستم أنتم الدولة ولستم وحدكم المسلمين. ومن هؤلاء من لم يهدأ حتى استقر الرأي على أن ينص الدستور على أن دين رئيس الدولة هو الإسلام. وها هو الأستاذ الشيخ قد أسس مع إخوانه الجبهة الإسلامية الاشتراكية وفيها من المسيحيين عدد لا بأس به.

لا أعرف ما إذا كان طموح بدر الدين هو الذي يدفع به الآن إلى أن يذهب إلى فرنسا من أجل دورة الركن أم يذهب إلى مدرسة المخابرات الأمريكية، أم إن هذا كله ليس إلا إزاحة له من الطريق؟ أنا لا أصدق أنه صار لبدر الدين من الشأن والخطورة ما يجعل أسياده أو أنداده يفكرون بإزاحته من الطريق. إن شاء الله يسافر إلى فرنسا وبعدها إلى أمريكا حتى يبعد من طريقي وطريقك يا نديدا.

ما قيمة كل ما كتبته عن بدر الدين إذا كنت لا أستطيع كتابة سطر عنه وعن نديدا؟ بل عنه وعن والدتك يا نديدا؟ من أولى من بدر الدين بمعرفة مصير درة حفظي؟

كأنك ما عدت الصحفي الشمام يا رباح أبو شلّة!

كأنك حمار.

سنان عبد المنعم بمصورة رباح

اجتمعت بسنان أول مرة فى بيت الدكتور عبد الواسع. أدهشنى الرجل. هو كتلة من الهيبة والذكاء والتواضع والكياسة. سنان رجل جميل ورجل مثقف وقد قامت بيننا صحبة متينة منذ اللقاء الأول. كنت قد طلبت يد نديدا وكان الدكتور عبد الواسع قد وافق ولكن كان لابد من التعرف على صهر العائلة حامل النجوم الثلاثة على كل كتف: الكابتن سنان عبد المنعم.

لم تتأثر صداقتى مع سنان بطلاق نديدا. فقط صارت اللقاءات أقل. كما لاحظت أن المسارّة التى كانت بيننا قبل الطلاق تراجعت. كان هو البادئ. هذا حقه. الرجل يضع للعائلة وللقرابة اعتباراً كبيراً.

سنان نفسه هو مصدر معلوماتى عن سنان بالدرجة الأولى. إنما المصور مثلى لا يعتمد على صاحب الصورة فقط. أظن أنه ليس من المحمود أن يعتمد على صاحب الصورة بالمرة إلا إذا كان مثل سنان عبد المنعم.

كنت لا أزال خطيب نديدا عندما روى لى الكثير عن أسرته ونشأته وهمومه التى كانت منذ عهد الصبا هموماً سياسية بالدرجة الأولى. هموم الأمة كما يفضل أن يقول:

فى عصر يوم من أيام الربيع سنة طلاق نديدا صادفته فى أول شارع فؤاد الأول. مشينا معاً حتى المكتبة العمومية. دعانى للدخول ولم يكن يلبس بذلته العسكرية. دخلنا ورحنا نتفرج على الكتب. رأيته بطرف عينى يسحب كتاباً من أحد الرفوف ويقترب منى هامساً:

– تعرف هذا الكتاب؟

كان كتاب (الصراع الفكرى فى الأدب السوري) لأنطون سعادة. قلت:

– أعرف عنه.

قال وعيناه تلمعان باعتزاز:

- سأهديك إياه على شرط أن تقرأه وتعطيني رأيك فيه.

تساءلت في سري: هل يحاول سنان أن يضمني إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي؟. خرجنا من المكتبة إلى مقهى البرازيل. ولما سألته عن ذلك لمعت عيناه وابتسم ولم يتكلم.

كان أهله يتمنون أن يدرس الطب في فرنسا لكنه فضل الانتساب إلى الكلية الحربية في حمص ليكون نفعه لحزبه أكبر. وعندما أخذ البكالوريا كان ابن ١٧ سنة لذلك اضطر إلى تكبير سنه إلى ١٨ حتى يدخل الكلية التي كانت في تلك الأيام مكلفة. كان على الطالب أن يدفع رسم دخول وأن يفصّل على حسابه بدلتين للخروج واحدة للصيف وواحدة للشتاء، عدا عن المصروف الشخصي.

حدثني سنان عن ذكرياته في الكلية حيث لكل طالب مستجد طالب قديم يمرمطه حتى يتعود على الحياة الشاقة والخشنة. كان نصيب سنان مع طالب قديم لبناني. وبعدما تخرج بسنتين ذهب إلى بيروت في دورة اطلاعية على أجهزة الاتصال اللاسلكي الحديثة فالتقى بذلك الزميل الذي نسيت اسمه وتجددت صداقة الضابطين.

يصدق القول فيما يخص حياة سنان العسكرية: في كل عرس له قرص. مثلاً: ماله ولسلاح الفرسان؟ كانت هذه القطعة العسكرية موزعة على كتائب: الكتيبة الدرزية والكتيبة العلوية والكتيبة الحورانية والكتيبة الكردية.. كتيبة أم كوكبة؟ لا أعرف. المهم أن سنان ما عاد له عمل في تلك الفترة إلا دعوة زملائه بل ودعوة العساكر في كل كتيبة أو كوكبة إلى التخلي عن النسب الطائفي أو أي نسب غير النسب السوري. وطبعاً لم تكن العيون الفرنسية غافلة عنه. وقد اعتبروا دعوته تحريضاً ضدهم فعوقب بتأخير ترفيعه لمدة سنة كما عوقب بنقله إلى البوكمال على الحدود العراقية.

هناك كان التهريب على أبو موزة. من البوكمال كان المهربون يهربون الزيت والصابون إلى جارتها العراقية حصيبا. ومن حصيبا كانوا يهربون الشاي والسكر والأرز والحرير والقماش الأجنبي.

فى البكالوريا كان سنان متفوقاً. وفى الكلية الحربية كان متفوقاً لذلك عُيّن مدرساً فيها بعد الاستقلال. قبل ذلك كان عُيّن لفترة قصيرة آمر الفوج المرابط فى طرابلس وكان أغلب ضباطه من اللبنانيين. بعد طرابلس ظهر فى اللاذقية فى قيادة الفوج الثالث. قبل ذلك أو بعده - ما عدت أذكر - انخرط فى دورة كوماندوز فى بيروت.

بعد هذا كله أسرع سنان إلى فلسطين وكان الطلاق قد فرق بينى وبين نديدا. عندما سمعت بعودته أسرعت للسلام عليه. ومما رواه لى أنه قاد هجوم الفدائيين على مستعمرة النبى يعقوب الواقعة بين رام الله والقدس. كانت هذه المستعمرة تقطع الطريق على نجدات القدس. تكلل الهجوم بالنصر وانفتح الطريق أمام النجدات. روى لى سنان أيضاً كيف تسلل مع أكثر من مئة مجاهد متطوع فى جيش الإنقاذ. كانوا جميعاً وهو على رأسهم يلبسون لباس الجيش الأردنى وكانت لهم فى حيفا بطولات. أنا أصدق سنان فى كل ما يقول. أصدق التماعة النصر فى عينيه والتماعة الهزيمة أيضاً. أصدق حزنه وأصدق فرحه. أصدق مزاحه وأصدق جدّه.

عندما صدرت لوائح الترفيع بمفعول رجعى - أى أن يبدأ الترفيع من قبل تاريخه من رأس السنة - كان سنان مغتاظاً ممن شملتهم اللوائح ونالوا رتبة أعلى. سبب الغيظ هو أن مثل هذا الإجراء يعوّد الناس على طعوجة القوانين حتى يستفيد منها فلان. هكذا شرح لى سنان وكأنى به يحتج على من نطوا خلال فترة قصيرة فوق رتبتين أو أكثر.

إذا كانت صورة بدر الدين أتماز لا تكتمل إلا بصورة أخيه فصورة سنان عبد المنعم أيضاً لا تكتمل إلا بصورة أبيه.

بعد التفوق فى البكالوريا كافأه أبوه برحلة إلى فرنسا لمدة ثلاثة أشهر. هو على يقين من أن الوالد أراد من ذلك أن ينسيه الكلية الحربية. لكن سنان لم ينس. قضى فى باريس أياماً حلوة كما حدثنى عدة مرات وهو يتلمظ. ولكن كان فى أعماقه يتعجل العودة وحلمه بالكلية يقوى. حدثنى عن فندق إينفرسال الذى نزل فيه أغلب الفترة. حدثنى عن زيارته الإنفاليد فى باريس وخصوصاً عن زيارته لجناح نابليون. وكما سافر بالباخرة تيوفيل غوته عاد بها. كان سعيداً جداً بمرورها فى الذهاب من بيروت إلى حيفا وبعدها إلى الاسكندرية وبعدها إلى مرسيليا وتضاعفت سعادته بمرور الباخرة فى العودة على ميلانو وإزمير. وفى العودة شارك فى حفلات الرقص كل ليلة على العكس من الذهاب، حيث رماه دوار البحر فى غرفته أغلب الوقت.

من سنان نفسه ومن نديدا التى كانت تنقل عن أختها ابتهال وكذلك من والدى رحمة الله عليه ومن والدتى أمد الله بعمرها، من كل هؤلاء صرت أعرف الكثير عن والد سنان. من ذلك مثلاً أنه أسس مع مجموعة من التجار شركة مساهمة لتصدير الفواكه والمجففات إلى فلسطين. كان ذلك قبل عشرين سنة. أبو سنان لم يكمل تعليمه، إلا أنه ابتدأ أستاذاً فى مدرسة التجارة أو فى مدرسة الحياة كما يقال، كأنه رضع دروسها مع حليب أمه. ورغم ذلك ظل يتحسر على تركه التعليم قبل أن يحمل البروفيه. على الأقل البروفيه: سمعته بنفسى يقول حين صادفته فى بيت سنان ولم أكن قد رأيته من قبل.

فى شركة الفواكه والمجففات كانت له صلاحيات واسعة. لكن الشركة لم تعش طويلاً. ما بيع من أسـهـمـهـا خـلال سنة لم يبلغ ٢٠ ٪ لذلك تمت تصفيتها. كانت الأزمة الاقتصادية تزلزل الكرة الأرضية كلها لكن عزم والد سنان لم يلن. بعد فترة قصيرة أسس معملاً للكونسروة بتجهيزات بسيطة وصار يبيع المربيات بالمرطبانات. حتى البامية صار يبيعها بالمرطبان.

بعد سنوات قليلة شارك ابن خاله غزال حاج تميم فى المعمل وكانت الأزمة الاقتصادية قد انفرجت. كان الطلب الإنجليزى على المشمش قد تضاعف أضعافاً مثله مثل الطلب الإيطالى على زيت الزيتون، بعدما انقطع توريد الصنفين من إسبانيا التى كانت الحرب فيها قد اشتعلت بين الملكيين والجمهوريين.

كان الشريك وابن الخال قد عاد من فرنسا بعد تأسيس معمل الكونسروة بشهور. كان غزال الذى يكبر سنان قليلاً يحمل شهادة الماجستير فى الكيمياء ويحمل شهادة أقل فى التجارة، وهذا ما قوى عزم والد سنان على أن يدرس ابنه البكر المتفوق فى أرقى الجامعات الفرنسية.

أراد غزال أن يستورد تجهيزات أمريكية حديثة لتطوير المعمل لكن والد سنان عدّ ذلك مغامرة وخاف منها على غير عادته.

من أمريكا استورد والد سنان وغزال حاج تميم نوعين غريبين من المشمش هما نيلتو وبلانهايم. الشجرة من هذين النوعين تحمل أحمالاً ما شاء الله. المشمشة الواحدة من هذين النوعين أكبر من الدراقة وأكبر من السفرجلة. فى مزرعة الدكتور عبد الواسع شجرة واحدة من أحد هذين الصنفين وكانت أحب شجرة فى المزرعة إلى نديدا، كما كانت أحب شجرة إلى والدها رحمه الله حسبما سمعت الدكتور عبد الواسع والست افتخار يقولان مرات عديدة.

طبعاً الفضل فى استيراد النوعين هو لابن الخال الذى ظل يحرض شريكه على تأسيس شركة تجارية كبيرة حتى استجاب. وبدأت هذه الشركة تستورد الأرز والسكر من مصر ومن إيران والتمر من العراق. ولو أراد الشريكان أن يحتكرا أثناء الحرب لجنيا الملايين. لكن والد سنان كان رجلاً وطنياً غيوراً ومنه ورث سنان هذه الخصلة. كما أن ابن الخال كان تاجراً شريفاً لذلك صارت الشركة تسلم للدولة ما تستورد ليباع بالسعر النظامي.

فى تلك الأيام انخفض سعر كيلو الأرز مثلاً من ثلاث ليرات إلى النصف، بل وأكثر. لن أنسى أن أمى زغردت عندما علمت بهذا التخفيض ودعت بطول العمر لمن كان السبب.

فى تلك الأيام أيضاً التفتت الشركة إلى شراء الأراضى البعيدة عن الشام. وهذه الالتفاتة جاءت من والد سنان كما أكد والدى رحمه الله. بعد ما صار للشركة آلاف الدونمات بدأت بإحياء الأرض الميتة بأحدث التراكتورات والمضخات. ردمت المستنقعات ورشت السماد والمبيدات وبنت حظائر ومستودعات. باختصار أعطى كيس الحنطة خمسة وعشرين كيساً من أول موسم وقال الكريم: خذ يا عبدي.

الآن والد سنان فوق السبعين سنة وهو عضو فى غرفة التجارة وعضو فى لجنة فرض ضريبة الدخل وعضو فى مجلس الأوقاف. والد سنان من المحكمين الدائمين فى خلافات التجار وفى خلاف العائلات. أما ابن الخال غزال حاج تميم فحكاية أخرى أؤجل كتابتها ومن يدرى فقد لا أكتبها. وعلى كل حال غيرى أولى بها أقصد أخى مطيع.

أستطيع أن أؤكد أن علاقة سنان بأبيه قد شابها شيء من العكر بعدما صارت حزبية سنان معروفة. لكن الأب لم يرغم ولداً له ولا بنتاً طوال عمره على شيء. والد سنان فى هذا يشبه والدى رحمة الله عليه. سماحة وجه والد سنان تذكرنى بسماحة وجه والدى .

من أسباب ذلك العكر مثلاً أن والد سنان عضو فى مجلس إدارة المعهد العربى الإسلامي. سنان يرى فى هذا شبهة الإخوان المسلمين، والعداء بين الحزب السورى القومى والإخوان المسلمين أكبر من العداء بين الطرفين وبين الشيوعيين. قل أكبر من العداء بين العرب واليهود الصهاينة.

ماسونية والد سنان هى أيضاً سبب للعكر بين الأب وابنه. قال لى سنان إن والده جعله يقرأ عشية سفره إلى فرنسا كتاب جرجى زيدان (تاريخ

الماسونية العام منذ نشأتها إلى هذا اليوم). وكان الكتاب قد صدر فى آخر سنة من القرن المنصرم. قال سنان إن والده كان يعتز بما ذكر جرجي زيدان من أن الأمير عبد القادر الجزائرى هو من أدخل الماسونية إلى الشام. ردّ سنان بأن هذا إذا كان صحيحاً، فلا يجوز أن يكون ضريح الأمير إلى جانب ضريح الشيخ محى الدين بن عربي. طبعاً غضب والد سنان فاسترضى الولد أباه بأن وعده بقراءة كل ما كان لدى الأب عن الماسونية. لكن سنان لم يقرأ غير كتاب خيرى رضا (شذرة عن تاريخ الماسونية منذ أقدم عصورها حتي اليوم)، وكذلك جملة أعداد من مجلة (التحرر) الحمصية لسان حال الماسونية العربية. غير أن سنان أهدى والده بعد رحلته كتاباً أحضره له من بيروت وهو كتاب جبران التوينى (فى وضح النهار: الماسونية والوطن الصهيوني). سنان يظن أن لهذا الكتاب فضلاً فى ابتعاد والده عن الماسونية.

عندما رخصت وزارة الداخلية لتأسيس الحزب السورى القومى الاجتماعى فى شهر آذار تذكرت سنان وأسرعت إلى زيارته وباركت له. كان فرحاً لكن الوسواس الخناس وسوس لى حتى أنغص الفرحة بعدما قال سنان متباهياً إن حزبه سيصدر جريدة هنا هى (الجيل الجديد) قريباً، وبها لن يبقى مطرح للصحفيين الأدعياء أو المخبرين أو الرخيصين أو الذين يبست أقلامهم وأصابعهم واهترأت جلود مقاعدهم تحت أقفيتهم. عندئذٍ نوهت بجريدة (المنار) وبعدها بجريدة (المنار الجديد) وقبلها بمجلة (التمدن الإسلامي) كأنني أذكّره بدعم والده لجرائدْ الإخوان المسلمين ولأنشطتهم. لم يبال سنان بكلامي ولا أدرى كيف لوى الحديث بتباهٍ أكبر إلى المبادئ الإصلاحية لحزبه وراح يعدد على أصابعه: منع رجال الدين من التدخل فى السياسة أو فى القضاء، فصل الدين عن الدولة ، إلغاء الطائفية إلى آخره.

أشهد والشهادة لله أننى كنت ومازلت أؤيد هذه المبادئ فى السر وفى العلن. سنان نفسه يتذكر ذلك من بداية علاقتنا. إلا أننى هذه المرة بادلته التباهى بالتباهي. بماذا؟ بالأحزاب التى قامت خلال السنوات القليلة الماضية. ورحت أعدد على أصابعى وأذكر نبذة عن هذا ونبذة عن ذاك. ذكرت الحزب العربى الذى تأسس قبل جلاء الفرنسيين سنة نهاية الحرب. ذكرت ما أعلن هذا الحزب من أنه يستهدف انقلاباً اجتماعياً وبعثاً إصلاحياً يطهران المجتمع العربى من أوباء السياسة الطائفية والإقليمية والشعوبية.. وذكرت كيف تحول هذا الحزب إلى الحزب القومى العربى وعددت من شعاراته على أصابعي: نجاة العرب بالعرب، بلاد العرب للعرب إلى آخره. ولما رأيت سنان قليل الاهتمام أسرعت بما جاء فى خطبة لغطاء الدين أتماز فى مطلع السنة إذ قال: الإخوان المسلمون سيأتون بالانقلاب الأساسى للثقافة المادية. ترى هل كنت أومئ إلى والده مرة ثانية أم كنت أومئ إلى أن الانقلاب بالبلاد ليس غاية حزبه وحده؟ هكذا رحت أعدد على أصابعي: الحزب التعاونى الاشتراكي أعلن أنه انقلابى منذ عشر سنوات. حزب البعث العربى أعلن أنه حزب شعبى اشتراكى انقلابي. الحزب الاشتراكى العربى إلى آخره.

قلت:

– الجميع متفقون على شيء واحد هو الانقلابية مثلهم مثل ضباط الجيش.

ابتسم وقال بسخرية:

– أنت الصادق هم متفقون على شيء آخر.

سألت بسخرية أيضاً:

– ما هو؟

ابتسم ابتسامة أعرض وقال:

- كأنك يا رباح تلقى خطاباً ولسوء حظك أنا وحدى جمهورك. ما بك اليوم؟

طالما رددت على سنان ما كنت أردده على نديدا وعلى غير نديدا: ليس على الصحافة سر. تماماً كما أن الصحافة لا تحفظ السر. الصحافى الذى تخفى عليه خافية يروح يقشر البصل. من لا يصدق هذا هو الصحفى الشمام أمامكم.

كان سنان يضحك كما كانت نديدا تضحك قبل أن تتحول ضحكتها وثقتها بى إلى سخرية وشك واستهانة.

كان برهانى لهذا الذى انتسب إلى حزبه سنة البكالوريا، هو ما فى جعبتى عن هذا الحزب. هنا فقط خانه ذكاؤه معي. فبعض ما كان لدى هو مما أكرم به على سنان نفسه فى جلسات حميمة.

هنا أيضاً كان له فى كل عرس قرص تماماً كما كان فى الجيش. صحيح أن الحزب والجيش هما قلب واحد عند سنان. هما قلبه كما هما قلب الأمة. هكذا كان يقول لى باعتزاز. كان يتباهى بوقوف حزبه ضد انفصال اللاذقية أيام لعبت فرنسا لعبة دولة العلويين. ما الذى أخذ سنان عبد المنعم إلى صافيتا فى تلك الأيام ليعترض مع رفاقه موكب قائد فرنسى نسيت اسمه ويرفعون العلم السوري؟

فى ذلك اليوم وتحت المطر الذى أشبه الطوفان كان سنان بلباس مدنى يهتف برفاقه:

يا أبناء الحياة لمن الحياة؟

فيصرخون:

لنا.

فيسأل:

ولمن نحيا ؟

لسوريا.

من هو قائدنا؟

سعادة.

يحيا سعادة يحيا يحيا

تحيا سوريا تحيا تحيا

كانت عيناه تغيمان بالحنين والذكريات ثم تلمعان اعتزازاً. وكأن سوريا لم تكن تكفيه. هيا إلى لبنان إذن. هيا إلى القائد الجديد الذى حلّ محل الزعيم فى غيابه الطويل. نعمة ثابت حلّ محل أنطون سعادة. عال. عال العال. القائد بدّل علم الحزب. بدّل هتاف الحزب. وربما كان على وشك أن يبدل زعيم الحزب لولا أن الزعيم عاد من المهجر فظهر علم الزوبعة القديم وعاد الهتاف القديم الذى كان سنان يشق سماء صافيتا به.

كنت أعلم أن نعمة ثابت أسقط من القسم الذى يقسمه القادم إلى الحزب هذه العبارة: "وأن أؤيد زعيمه وسلطته" وأحلّ محلها هذه العبارة: "وأن أؤيد المؤسسات". ولما قلت لسنان ذلك تنهد وتمتم:

- آه لو جمعنا العبارتين معاً.

أما الهتاف الجديد فقد سمعته مرة فى مهرجان للحزب أمام التجهيز عندما صرخ شاب:

يا أبناء الحياة لمن الحياة؟

فصرخ رفاقه:

لنا والبقاء لحزبنا والخلود لشعبنا

يحيا شعبنا يحيا شعبنا يحيا يحيا

عقّب سنان بامتعاض عندما رويت له هذا أن سوريا هى شعبنا وشعبنا هو سوريا. وفى واحدة من الأماسى الشتوية الصقيعية زارنى مع ابتهال

بدون البنتين. انفردت نديدا بأختها وانفردتُ بسنان. كانت الكستناء العطرة المشققة أمامنا فى صحن واسع والزبيب فى صحن عميق. فناجين الشاى مترعة والدفء ينعش الروح. هاجت ذكريات سنان فإذا العرس هذه المرة فى اللاذقية وسنان له فيه قرص كالعادة.

كان زعيمه قادماً من حلب فى زيارة إلى الساحل، والطقس على العكس منه حين سرح سنان مع الذكريات. كان الصيف فى أوله. وفى جسر الشغور تناول سنان الغداء مع الزعيم المفدى أنطون سعادة ومع رفقائه كما يقولون فى حزبه. الشيوعيون يقولون الرفاق وفى حزب البعث العربى يقولون الرفاق. بعد الغداء قصد موكب الزعيم اللاذقية. على مشارف المدينة قبل مفرق حلب استعرض الزعيم الرفقاء مثل قائد عسكرى يستعرض جنوده. أمام الموكب كانت تقف أربع دراجات نارية تظللها أعلام الحزب وتليها سيارة ستيشن للحرس بعدها سيارة المنفذ العام بعدها سيارة الزعيم بعدها البوسطات التى استأجرها الرفقاء وامتلأت بهم وبأنصارهم. قلت لسنان هذا موكب رئيس الجمهورية أو على الأقل رئيس الوزراء وليس موكب رئيس حزب. قال ليس كل رئيس برئيس. الزعيم يا رباح أكبر من أى رئيس وأكمل حكاية عرس الساحل. فى مفرق حلب قرب اللاذقية أوقف الحاجز الأمنى موكب الزعيم ثم سمح لثلاث سيارات فقط بالدخول. كانت سيارة الزعيم هى الثالثة والأخيرة ومع ذلك كان الاستقبال مهيباً وهائلاً على ذمة سنان وما عهدته إلا صادقاً. قال سنان إن الكازينو ضاق بالمستقبلين وارتجّ من خطاب الزعيم. ردد سنان بعض العبارات التى لايزال يحفظها من الخطاب كما ردد أبياتاً من قصيدة لشاعر شاب. ولما قرأ هذا البيت:

والموطن الرحب وأصحابه
قوقعة تلهو بها قوقعه

سألني:

- هل عرفت قصد الشاعر؟

قلت:

- ما عرفت الشاعر ولا عرفت قصده.

فابتسم وقال:

- هذا شاعرنا أدونيس يهزأ بأصحابك الذين ينادون بالوحدة العربية والقومية العربية.

تجاهلت السخرية حرصاً على أن تمضى السهرة بلا تنغيص. للأسف وجدت نفسي بعد قليل أنتقد كتابات أنطون سعادة بالجملة فطلب أن أحدد مقصدي. ضربت له مثلاً بكتاب (عيد سيدة صيدنايا) فقال:

- هذا الكتاب وضعه الزعيم قبل تأسيس الحزب. لابد أنك تعرف. أنا أعرف أنك لست مسلماً متعصباً.

ولم يترك لى فرصة للرد. انطلق يحدثنى عن كتاب زعيمه (الإسلام فى رسالتيه المحمدية والإسلامية). صبرت حتى انتهى وكنت مقتنعاً بكل ما قاله عن التسامح والإخاء بين الأديان والمذاهب والملل والفرق والطوائف جميعاً. هكذا خصصت بانتقادى الكتاب الذى كان قد أهدانى إياه (الصراع الفكرى فى الأدب السوري). قلت:

- ما يطلبه الزعيم لا يختلف عن طلب أى ديكتاتور. لا يختلف عن طلب ستالين والشيوعية من الأدب والأدباء.

وسألته كمن يسدد الضربة القاضية:

- ما هذه المصادفة الربانية التى قربت بين الطبعة الثانية لكتاب الزعيم وبين صدور كراس جدانوف بالعربية: (إن الأدب كان مسئولا)؟

فسألنى محتداً:

- هل تساوى بيننا وبين الشيوعيين؟

نفيت لأسترضيه. أنا فعلاً أساوى بينهم فى كثير من الأمور ومنها ما يطلبه كل فريق من الأدب والأدباء من الالتزام. ما الفرق بين تقديس هؤلاء لأنطون سعادة وتقديس هؤلاء لستالين؟ طبعاً لا يغيب عن بالى ما يختلف به هذا الفريق عن ذاك.

قال سنان:

- نسيت أن الدم جرى بيننا وبين الشيوعيين؟

قتل الشيطان لسانى وجعلنى أقول:

- لا والله ما نسيت. ولا نسيت تصريح المرحوم حسنى الزعيم بأن معركته الأولى هى مع الشيوعيين، وبعدما ينتهى منهم تبدأ معركته مع الإخوان المسلمين. مسكين لم يمهله الله حتى لمعركة واحدة.

رأيت سنان يكظم غيظه وصوته يتفلّت منه:

- لا تحلّ على حسنى الزعيم الرحمة. لا تقل أمامي: المرحوم. وبعد هذا ما قصدك؟ هل تريد أن تقول إننا مثل ذلك المجرم ما دمنا نحارب الشيوعيين كما حاربهم؟

وزعل مني، بل قاطعنى أسابيع.

فى السنة الأخيرة بدأت أرى سنان فى صور جديدة وعديدة، مع أن لقاءاتنا كانت قد قلّتْ.

فى البداية شغلنى عنه وحتى عن ابنى رمزى ما تضطرب به مهنتنا التى يركبها النحس ولا يكاد ينزل عنها. فالانقلاب الثانى ألغى ما فرضه سلفه من وقف منح امتياز إصدار الصحف والمجلات. عال. وأفرج عن عدد من الجرائد الموقوفة مثل البعث والنذير. كمان عال. ولكن ظهرت مديرية للدعاية والأنباء ترتبط برئيس الوزراء ومهمتها مراقبة الصحف والمنشورات والبرقيات والرسائل والأفلام والتمثيليات و.. الله أكبر.

رقيب اليوم يجعلنا نترحم على رقيب البارحة. فى الوقت نفسه صدر قانون المطبوعات الجديد بعد ما كان قد قُدم للبرلمان وسُحب منه عدة مرات بعد الاستقلال. حل هذا القانون محل القانون الذى كان يطبق علينا، قصدى قانون سنة ١٩٢٤ . عال. لكن القانون الجديد شرّ قانون أخرجه الناس للناس حقاً كما قال بعضهم فيه. المجرم قتّال القتلى يمكن له أن يوكل مئة محام وأنت يا رباح أبو شلة لو وقعت بمخالفة لا سمح الله، لا يحق لك أن توكل إلا محاميين. أنا سأوكل محاميتين. نديدا واحدة منهما بالتأكيد ولابد. بل نديدا الأولى وهى تختار الثانية. هل ينطبق على المحاميتين ما ينطبق على الشاهدتين؟ لو صح هذا فسيكون للصحافى المنكود أن يوكل أربع محاميات، أى ما يعادل محاميين. وللذكر مثل حظ الأنثيين.

الخطر الأكبر هو أن محاكمتك أيها الصحافى الشمام حسب القانون الجديد لا تكون أمام محكمة عادية، بل أمام المجلس العدلي، أى أمام المحكمة الاستثنائية. الله أكبر.

مع جبران كورية الذى يراسل كذا جريدة لبنانية، ومع حسين النورى الذى يراسل كذا جريدة سورية فى المحافظات، ومع عبلة الخورى التى تراسل مجلة الكلية فى بيروت، ومع حنا مينا المحرر فى جريدة الإنشاء، ومع غيرهم وغيرهم حاولنا المستحيل ضد القانون الجديد. الحمد لله أننا عدنا سالمين غير غانمين.

قبيل ذلك رجع الود بينى وبين سنان. كان زعيمه أنطون سعادة لاجئاً فى سوريا بعدما فشلت ثورته فى لبنان. قرأت الخوف على وجه سنان لأول مرة. بعد إعدام زعيمه بفترة صادفته يتمشى بخطوات قصيرة وبطيئة وخيل إليّ أنها راجفة. قلت لنفسي: هذه فرصتك يا رباح. قدّم لسنان التعازى بزعيمه فيذهب الجفاء بينك وبينه، وهذا ما كان.

بدا لى سنان مهدوداً يكاد يقع من طوله. سألته عما يفعله فى حى الميدان أمام التجهيز وفى مثل هذا العصر فقال: ابتهال فى الداخل. سألته لماذا؟ قال تشاهد معرض أدهم إسماعيل. لم يقل لى نديدا معها لكننى لمحتها من فرجة الباب. ظهرها كان للباب وكانت بعيدة. مدحت هذا الفنان ولوحاته وسألت سنان لماذا لست فى الداخل؟ لا أدرى بما أجاب. اضطربت وأسرعت بالوداع وندمت قبل أن أقطع خطوتين. نعم هربت من نديدا.

قبل سنتين رافقتها إلى تجهيز البنين الأولى. كان الخصام بيننا قد تمكن ومع ذلك قلت: المعرض فرصة يا رباح لتتقرب منها. سلمنا على الأستاذة نعمت العطار التى بدأت تدّرس الفن منذ سنوات قليلة فى نهاية أيام فرنسا عندنا. كنت قد سمعت بها ولكن لم أكن أعرف أنها تدرس الرياضيات مع الفن. مشينا ثلاثتنا معاً وتأملنا اللوحات المعلقة وتسابقنا فى مديح المناظر الطبيعية وفى مديح البورتريهات النسائية. قبل أن ننهى جولتنا سمعنا همهمات خلفنا. استدرنا معاً ولكن نعمت خانم تركتنا بلا وداع. قبل أن تصل إلى مجموعة النساء التى تهمهم لحقت نديدا بها. أثناء العودة قالت نديدا كأنها تعتذر مني: إنهن فنانات. وكانت زميلتها المحامية ميريل جميرا قد عرفتها على واحدة منهن هى منور موره لى وابتهال عرفتها على اليانور الشطي. بحسرة قالت نديدا أيضاً إن واحدة من تلك المجموعة تدرس فن الميدالية فى روما. ربما قالت: ستدرس، لست متأكداً لأن حسرة نديدا شغلتني. هذه الفنانة هى درية فاخوري.

بعد معرض أدهم إسماعيل بفترة التقيت سنان فى مطعم الربيعة. كان بدر الدين أتماز قد دعا عدداً كبيراً من الصحافيين والضباط إلى العشاء على ضفة بردى. رأيت سنان وقد عادت إليه الروح. طبيعى بعدما انتقم له الانقلاب الثاني. ألم يلق حسنى الزعيم مصيراً أسوأ من مصير أنطون سعادة؟

كنا في بداية الخريف. هبات النسيم باردة لكنها منعشة. أظن أن كل واحد منا كان يسأل نفسه وربما يسأل غيره ـ ولو بالعيون ـ عن سبب دعوة بدر الدين لهذا الخليط؟ حتى الآن لم أعرف السبب.

بعد تلك السهرة لم أر سنان إلا مرة واحدة حتى الآن. زرته في بيته وكان يبدو كأنه على وشك الخروج. أصر على أن أبقى وقدّرت أنه على موعد خاص أو حساس هنا في بيته لذلك اختصرت الزيارة.

كان حديثنا في البداية مشتتاً. انتقد بحدة البرلمان وقيادة الجيش. لماذا يا أخي سنان؟ لأن البرلمان أصدر قانوناً لمدة ٤٨ ساعة يسمح به لقيادة الجيش أن تسرح من تشاء. سألته مازحاً: خفت على حالك؟ تجاهل مزاحي وقال: في الجيش من يجب أن يسرّح ولكن ليس بهذه الطريقة. ليس بهذا التفويض لأية قيادة فكيف بهذه القيادة؟ كنت أظن أنه مؤيد لهذه القيادة التي انتقمت له من شلّيطا الأول الذي سلّم أنطون سعادة للمشنقة، وكنت سأسأله عن ذلك لولا أنني قررت اختصار الزيارة.

كان الوقت بعد أذان العشاء بقليل، حوالي الثامنة. كانت السماء تنذرنا بالثلج. أمي أثنتني عن الخروج وحبيبي رمزي ألح على حتى أبقى إلى جانبه لكنني خرجت. بلا سبب معين قصدت بيت سنان وافتقدت ابتهال. قال: أخذت البنتين معها لتزور عمها. الدكتور عبد الواسع مريض. وبعد قليل قال سنان: الست افتخار أيضاً مريضة.

عندما سألني عن الصحفي الشمام تجاهلت غرضه. لابد أنه يقصد السياسة. قلت: نتسلى، وحدثته عن مسجلة شهرزاد التي قررت أن أشتريها أول الشهر ونصحته بواحدة، على الأقل تشجيعاً للصناعة الوطنية. لم أستطع إثارة فضوله لذلك حدثته عن خبير بالأجهزة اللاسلكية كان في الجيش حتى سنتين مضتا. هذا الرجل هو من يصنع مسجلة شهرزاد. ورحت أعدد مزاياها: بسرعتين ولها مكبر صوت. صوتها قوي وواضح. قال

إنه يذكر شاباً ربما كان اسمه عبد الحليم الرباط على دراية بالأجهزة اللاسلكية. صحت: هذا هو أبو شهرزاد. هذا أبو المسجلة، فحكى لى ما لا أعرفه عن المهندس الذى كان صانعاً فى معمل حرير ثم صار عاملاً فى مصبغة ثم صار أفضل ميكانيكي للتراكتورات. فى الوقت نفسه راسل هذا المسبّع الكارات مدرسة فرنسية لتعلم الهندسة الكهربائية لكنه اعتقل أثناء الحرب بتهمة حيازة مواد تصلح لتركيب إذاعة. إلا أنهم بدلاً من أن يعاقبوه قادوه إلى بيروت حيث ألحقوه بالإذاعة بوظيفة مراقب. اشترك الرجل فى حرب فلسطين ونال بعدها وسام الاستحقاق لبطولته فيها. بعدما سُرِّح من الجيش لم يسمع سنان عنه خبراً. قلت: هذا هو الخبر عندي. مسجلة شهرزاد. قال: بعد أن تجربها أنت خبرني. قد أشترى واحدة، ثم كرر السؤال عما عند الصحفى الشمام.

قلت واقفاً: كأن الدنيا مقبلة على كساد. قال: فأل الله ولا فالك. قلت: الناس فى سوق الأروام بدأت تبيع ما لديها بعدما كانت تشتري. قلت: السجادة الآن بمئتى ليرة وما فيه حدا يشيل. من كم سنة - بعد الحرب - كانت السجادة بألف والبدلة كانت بثلاثمائة. الآن البدلة بمئة وما فيه حدا يشيل. وقلت: تصبح على خير وأسرعت بالخروج لأرى نديف الثلج فتساءلت: كيف ستعود ابتهال فى هذا الطقس؟ هل تكون حردانة فى بيت أهلها؟ لم ألاحظ فى يوم من الأيام أى خلاف أو زعل بين سنان وابتهال فما الذى جرى؟ هل يكون مرض الدكتور عبد الواسع خطيراً؟ أم هو مرض الست افتخار؟ وعلى كل حال كيف هو حال نديدا يا ترى؟

الدكتور عبد الواسع الكهرمان بمصورة رباح

حين قلت للدكتور عبد الواسع الكهرمان إننى عازم على أن أكتب سلسلة من التحقيقات الصحفية عن قادة الكفاح الوطنى ضد الاستعمار الفرنسي، كنت انتهازياً حقاً كما وصفتنى نديدا بعدما اعترفت لها بأننى ادعيت ما ادعيت لأصل إليها. فلما وصلت نسيت المشروع لولا أن الدكتور كان يذكرنى به كل مدة. لذلك كتبت عدة صفحات عن المرحوم الشهيد رمزي. نديدا لم تهتم بما كتبت. الدكتور نفسه ما أعطانى رأياً. ترى هل لأن تلك الصفحات التى أخذتها نديدا معها لم تعجبه؟ أم لأنه تلهى عنها بما كتبت عنه هو؟ أما أنا فما كتبت عن الشهيد إلا إكراماً لنديدا وإكراماً لعمها. وما كتبت عن عمها إلا لألهيه عنى وعن وعدي. وفى الحالتين كنت محرجاً فبدلاً من الرقيب كان عليّ رقيبان هما نديدا وعمها. لذلك ذكرت درة حفظى وابن عمها خطيب حفظى بحذر. لذلك قلدت الدكتور عبد الواسع بوصف ما جرى لشقيقه بالاغتيال السياسى وبالجريمة السياسية. كما توقعت أرضاه هذا وأرضى نديدا.

فى ذلك المساء كانت الشام تتلألأ أمامنا ونحن تحت العريشة. المرج والله كان يرقص. بردى تباركت يا مبدع الكون كان يرقص. صوت الدكتور عبد الواسع أيضاً كان يرقص وهو يستذكر باريس التى جعلته يدمن على النبيذ ولكن دون أن يلهيه ذلك عن الدراسة. قال باعتزاز إنه لم يبال بما قال عنه كثيرون من الذين وصفهم بالمتزمتين وبالمنافقين. قال إن القاصى والدانى يعرف أن الدكتور عبد الواسع الكهرمان يشرب النبيذ. قلت: ما عدا المسكين رباح أبو شلّة فضحك بصوت عال واندفع يحدثنى عن الحفل الخيرى الراقص الذى نظمته جمعية (نقطة الحليب) لتجمع ما يمكّنها من رعاية المحتاجين.

مـا كنت أعـرفـه هو أن زوجـة وزير المعـارف هى من دعـا إلى الحـفل الخيري. كنت أعرف بعض ما روى الدكتور عبد الواسع لكننى لم أكن أعرف أنه كان بين من اشترى بطاقات للحفل لنفسه وللست افتخار ولنديدا وابتهال وحتى للخادمة. كنت أعرف أن نساء راقيات من مستوى الست افتخار فأعلى، يشرفن على جمعية (نقطة الحليب) ولكن الجماعة - هكذا كان الدكتور عبد الواسع يسمى أحياناً من يعدهم من المنافقين والمتزمتين - أشعلت النار فى المدينة، وصوِّرْ يا مصوِّر.

الجماعة ـ أى الجمعية الغراء ـ نظمت لقاء حاشداً فى مسجد دنكز لمناقشة ما عدّوه كبيرة الكبائر أى ذلك الحفل.

غطت أخبار الحفل على أخبار الحرب بين الألمان والروس بينما الصيف فى أوله. أرسلت الجماعة لجنة إلى وزير الداخلية تطلب منع الحفل فردت الداعيات إليه بأن قررن حضوره سافرات. وفى اليوم التالى خرجت المظاهرة من مسجد دنكز إلى البرلمان لكنها توقفت قبله عند نادى الضباط حيث من المقرر أن يقام الحفل. منع الدرك المتظاهرين من التقدم إلى البرلمان. فى اليوم التالى منعوا الجماعة من الاجتماع فى مسجد دنكز فقامت المظاهرات فى حيّ الميدان وأغلقت المتاجر ولعلع الرصاص وسقط قتيلان.

فى اليوم التالى وصلت مظاهرة صغيرة إلى أمام سينما رويال بينما كان من فيها يخرجون. كان بين الخارجين خمس أو ست نساء لم يظهر مع أى منهن رجل فهاج المتظاهرون وماجوا وشتموا النساء وبصقوا عليهن. قيل إنهم نتفوا شعورهن ولطموهن قبل أن يهجم الدرك عليهم بالكرابيج وأعقاب البنادق والخيزرانات والأجزمة. كانت السينما تعرض الفيلم الروسى إيفان الرهيب. أقصد الجزء الأول من ذلك الفيلم الرهيب الذى شاهدته بعد تلك المعركة بين المتظاهرين والنساء والدرك بأيام قليلة.

قلت للدكتور عبد الواسع:

- الحكومة وزعت المال على أصحاب الصحف فى تلك الأيام. ٧٠ ليرة لكل واحد مقابل نشر مقالات موالية للحكومة بعدما تفاقمت الاضطرابات. كنت يومها لا أزال فى جريدة الإنشاء. عرض عليّ صاحبها عشر ليرات عن كل مقالة فقبلت شرط أن تظهر المقالة باسم آخر يختاره هو فرفض.

قال الدكتور عبد الواسع:

- موقف الحكومة كان غامضاً ومذبذباً فلا هى قادرة على أن تُغضِب الجماعة كما لا تريد أن تُغضِب الذين دعوا إلى الحفل الخيرى ومن ناصرهم.

بعد شهر أو أكثر عاد إلى الحادثة نفسها وكان لا يزال حانقاً على رجال الجمعية الغراء. قال: الكبار فى السن، العقلاء، الشيخ منهم والبك وصولجان السوق يحركون الزعران والهمج! يا حيف يا رباح. ماذا استفادوا؟ قلت: منعوا الحفل يا دكتور. بلغوا غايتهم يا دكتور. فانفعل وقال: كانت غايتهم أكبر. بينهم من يريد أن يعود بنا ألف سنة إلى الوراء بحجة صون الدين والعفة والشرف. كلمة حق يراد بها باطل يا رباح. قلت لأسترضيه: صدقت يا دكتور.

كم كرر الدكتور عبد الواسع أمامى قوله إن الحياة منعطفات، وما هو حادّ منها كثير وهو خطير ولكن متى؟ فقط إذا كانت سرعتك زائدة عن المعيار.

فى المرة الأولى نظرتُ إليه مستزيداً. أظن أن نظرتى كانت بلهاء لأنى رأيته يبتسم. كان فى ابتسامته من الشفقة رطل ثم صار فيها من الهزء رطلان عندما سألته عن معيار السرعة.

قال :

- هذا أخي رمزي رحمه الله مثال أمامك. كأنه كان يعرك أن حياته قصيرة. بل كأنه كان يخاف أن تكون حياته قصيرة. كنت تراه دائماً على عجل. سرعته دائماً زائدة عن المعيار مثل سيارة تسابق في متحدر قاتل.

رددت خلفه: رحمه الله. وبدأ يضرب الأمثلة ومنها زواج المرحوم. لكن نديدا ذكرت لي ذات يوم كنا فيه أحلى من السمن على العسل أن والدها تزوج مبكراً وسريعاً لأنه كان على سفر إلى باريس ونزولاً عند رغبة والدته. المثال الثاني الذي ضربه الدكتور عبد الواسع كان دراسة أخيه في باريس إذ قال:

- دكتوراة من السوربون في الحقوق يا رباح ضيّعها رحمه الله. كان بينه وبينها شبر. كأنه ما عاد يصبر على فراق زوجته وهو الصبور أكثر من الجمل. كأنه كان على موعد مع السجن أو مع المنفى. لماذا عاد؟

سأل بغضب. طبعاً لم يكن ينتظر الجواب مني. لكني تفاصحت وقلت:

- عاد ليشارك في الكفاح ضد المستعمر.

رماني بنظرة أجفلتني وجعلتني أطأطئ خجلاً. من المؤكد أنه رأى في جوابي انتقاصاً منه وهو الذي لم يعد من باريس حتى حمل الدكتوراة، كما لم يُعرف عنه أنه اصطدم بعد عودته مع الفرنسيين.

بعد لحظات حسبتها ساعة نادى الخادمة لتجدد الشاي وقال دون أن ينظر لي:

- للكفاح أشكال ودرجات. من منا لم يشارك في الكفاح؟ الفرق هو بين من يندفع في الطريق حتى يفاجئه المنعطف الحاد فلا يستطيع التخفيف من سرعته ولا التوقف. إذا نجا من الموت فسيخرج مهشماً. إذا نجا من التهشيم فسيعطله الخوف عن المتابعة أو على الأقل سيؤخره. ومن يدري، قد يجعله الخوف مخبولاً!

أظن أن ذلك اللقاء كان أطول لقاء جمعنا قبل أن أصاهره. كان سهرة أكثر منه لقاء. ليس لأن الخادمة أحضرت الشاي مرتين كما أحضرت الزبيب والجوز واللوز. بل لأن الدكتور عبد الواسع استرسل مؤكداً أن استشهاد شقيقه هو المنعطف الحاد الخطير الوحيد الذي واجهه على الرغم من أنه كان يسير متمهلاً. لن أنسى صوته الشجي وهو يسألني:

– ألا يكفيني للمشاركة في الكفاح أنني فقدت أخي؟

كان كأنه يسأل نفسه. هذه المرة لم أتورط في جواب. تركته يسوق البرهان تلو البرهان على كفاحه. وقد سجلت ذلك فيما كتبت عنه في المشروع الذي لم يكتمل ولن يكتمل، أي في سلسلة التحقيقات عن قادة الكفاح.

كان برهانه الأول هو مشاركة الست افتخار في مظاهرة النساء واعتقالها ومحاكمتها مع من اعتقلن وحوكمن. فكرت بأن ليس له ما يخصه وحده في هذا المضمار لذلك يتحدث مرة عن شقيقه ومرة عن زوجته. كان عليه ألا ينسى نديدا التي رافقت وهي فتاة الست افتخار في المظاهرة والنظارة والمحكمة.

من براهينه التي لا أنساها هذه الدعوى الطريفة المؤلمة التي كان هو فيها محامي المدعي. كان واضحاً أن السهرة قد أرهقته لكنه كان يستبقيني كلما هممت بالنهوض. ربما كان التعب هو ما جعله يتناول من أحد الأدراج مغلفاً أصفر كبيراً ويخرج منه أوراقاً دفع بها إليّ قائلاً: إقرأ. وما كدت أبدأ بالقراءة حتى استدرك:

– هي لك. خذها. لا يزال عندي أكثر من نسخة. بعدما كتبت هذه المرافعة وزعت ما يزيد على عشرين نسخة منها على محامين، على قضاة، وعلى زعماء، ولكن لم أوزع على الصحافة. ها هي أخيراً تصل إلى الصحافة ولكن إياك. إقرأ ولا تنشر.

وبينما رحت أتصفح الورقة الأولى رأيته يخرج من المغلف أوراقاً ويقرأ:
المدّعون:

عليا بنت حسين حردان والدتها بهجة تولد ١٨٩٠ قرية اللبوانة محافظة حمص خانة العمل بلا.

المدعى عليهم:

١ - مروان بن عز الدين سهوة والدته عليا تولد ١٩١٠ خانة ١١٤ ميدان غربي. العمل شريك فى فرن لتحميص المكسرات.

٢ - حسان بن عز الدين سهوة والدته عليا تولد ١٩١١ خانة ١١٤ ميدان غربي. العمل: شريك فى فرن لتحميص المكسرات.

كان صوته يستوى سريعاً حتى صار كما لو أن صاحبه فى مرافعة. سريعاً أيضاً غادره الإرهاق واستعاد الحيوية كأننا فى أول السهرة. سريعاً أيضاً أعاد الأوراق إلى المغلف وتابع الحديث كأنه يقرأ منها:

- الابن البكر محمد يعيل والدته عليا وشقيقته الصغيرة كما يعيل زوجته وأولاده الثلاثة. أين أبو محمد؟ فى رحمة الله. محمد لحام بوابير فكيف يمكن له أن يعيل مثل هذا العدد؟

زرت محمد فى وكره فى سوق العتيق بعد أول جلسة فى المحاكمة. الشاب يصلح بوابير، لوكسات، أراجيل. أما أخوه الأوسط مروان وأخوه الأصغر حسان فهما يملكان فرناً صغيراً لتحميص المكسرات قريب من بيت مروان فى الميدان.

زرت الفرن أيضاً ورأيت ما شاء الله أكوام بذر البطيخ والجبس ودوار الشمس. رأيت كومة من الفستق وكومة من الحمص. رأيت أمام الفرن ثلاثة أولاد ينقون الأكوام من الحصى والتراب. وكان حسان يغربل ومروان ينفخ فى النار تحت الصاج الكبير. لاقانى بالجفاء كما لاقانى حسان وكان ذلك

بعد الجلسة الثانية فى المحاكمة. ذكّرتهما بما قاله سبحانه وتعالى فى الوالدين. حذرتهما من غضب الأم ومن غضب الأب فى قبره ومن غضب الله يوم الحساب. سألت مروان. كيف يهنأ لك عيش وأمك على ما هى عليه؟ لو أن محمداً مثلك ومثل حسان فكيف كانت أمك ستعيش؟ كيف كانت أختك الوحيدة ستعيش؟

كان مروان ينقل عينيه بينى وبين الصاج، يحرك ما فيه ويرش عليه الملح. لا أظن أنه سمع كل كلامي. كنت قد بدأت أخاف من خسارة الدعوى. لماذا؟ لأن وكيل الدفاع زاد فى بيانات المتخاصمين ومن واقع بطاقاتهم الشخصية: الأبناء الثلاثة: الديانة مسلم المذهب سني. الأم: الديانة مسلم المذهب علوي. أنا رأيت أيضاً ما رأى وكيل الدفاع فى البطاقات. أنت تعرف يا رباح: على هويتك الديانة والمذهب من أيام فرنسا حتى اليوم. صحيح أن المحاكم المذهبية ألغيت بعد جلاء فرنسا ولكن مازالت الديانة والمذهب فى الهوية.

من أين جاءت هذه الأم العلوية لهذا الأب السني؟ الرجل كان فى الدرك فى قرية علوية قريبة من حمص. المرأة هربت معه عندما نُقِلَ من المخفر واختفت آثارها عن أهلها.

بناءً على ذلك طلب محامى الدفاع رد الدعوى لاختلاف ديانة المتخاصمين. اعتبر المذهب مثل الديانة. المحكمة أخذت بقوله. قلت فى المرافعة: هذا التفريق على أساس المذهب هو تحقير للوطنية وللعقيدة وللمحكمة. قلت: هذا الحكم يناقض المادة ٤١٤ من كتاب أستاذنا محمد قدرى باشا والتى تلزم الابن بالنفقة ولو اختلف بالدين أو المذهب عن أبويه. سألت القاضى بانفعال لامنى عليه: أليس هذا ما ينص عليه كتاب الأحكام الشرعية على مذهب أبى حنيفة يا سيدى القاضي؟ قلت: الطائفية خنجر مسموم، ولكن صوتى ضاع. ناديت الشهامة والإنسانية والتراحم حتى أن

المدعية الأم بكت وأنا نفسي رجف صوتي ولكن صوتي ضاع. على نفقتي استأنفت الدعوى لكنني خسرتها. انتصرت الطائفية علي كما انتصر العقوق على الأم المسكينة التي ماتت بعد خسارة الدعوى بفترة قصيرة. زارني ابنها محمد وأخبرني أنها ماتت قهراً. ماذا تسمي هذا كله يا رباح؟ هل هو فقط شغل محامين أم هو أيضاً كفاح من أجل وحدة سوريا؟

كانت نديدا في آخر شهر من حملها عندما قررتْ أن تقيم في بيت عمها حتى ما بعد الولادة بشهر. أظن أن الست افتخار وسوست لنديدا بذلك وأنها هي التي قررت. جرّ القرار عليّ زعل أمي وتعنيفها. لا يجوز للمرأة برأي أمي أن تغادر بيت زوجها. أظن أن أمي زعلت لأن القرار ينتقص من قدرتها على رعاية كنتها وحفيدها الموعود.

هكذا صارت زياراتي شبه يومية للدكتور عبد الواسع. وكان قد صار شبه مقيم في البيت فهو لم يمارس المحاماة منذ تأكد نجاح نديدا فيها. قبل ذلك، قلْ منذ فُجِعَ بشقيقه تقلَّب في أوقات الفراغ بين مقهى البرلمان ومقهى السلطانة الذي يفضله المحامون والقضاة. وفي المقهيين كان الدكتور عبدالواسع والقاضي أقبيق لا يكادان يفترقان. أما بعد انقطاعه عن المحاماة فقد بدا كأنه يتعجل الشيخوخة. وقد يكون ذلك ما جعله يفضل مقهى الجسر الأقرب إلى سكنه. في هذا المقهى لازم مدرساً للفلسفة وكاتباً هو صدقي اسماعيل وكان أول من يقرئه جريدته الساخرة (الكلب) التي يحررها بخطه ويوزعها بنفسه.

كانت لقاءاتي بالدكتور عبد الواسع قصيرة وبحضور آخرين غالباً: نديدا والست افتخار أو ابتهال وسنان أو ضيوف لم أعرف منهم إلا القاضي أقبيق، وإن كنت لم أره من قبل. لكن نديدا كانت قد حدثتني عنه مراراً حتى صرت أراه بعينيها غاطساً في الروب الأسود في المحكمة أو خارجاً منها ينوء بحقيبته المنتفخة. ولما حدثت الدكتور عبد الواسع بذلك بعد خروج

ضيفه، أكد أن صديقه يحمل كل يوم إلى بيته خمسين إضبارة. وروت نديدا لى مرة أن القاضى أقبيق حكم بالبراءة لموظف صغير فى وزارة الإعاشة، أيام ما كان للإعاشة وزارة، وكانت إدانته بالسرقة قد ثبتت، لكن القاضى أقبيق قال له: أنت سارق صغير، وقد برأتك المحكمة لأن الموظفين الكبار يسرقون بالقناطير ولا تسوقهم الأقدار إلى مطرحك.

كنت أحياناً أشعر بالحرج وأحياناً يقهرنى أنى لا أستطيع أن أكلم نديدا على انفراد، بل ولا أستطيع أن أنظر إليها نظرة الشوق الذى كان يملؤنى لها ولابنى بعد ما رزقنا الله به.

عندما قررت تسمية ابنى باسم جده الشهيد رمزى احتضننى الدكتور عبد الواسع وغمرنى بالثناء. قال إنه كان يتوقع أن أسمّى ابنى باسم أبي. أمى أيضاً كانت تتوقع ذلك ولأننى خيبتها زادتنى تعنيفاً وقالت بصريح العبارة: نديدا وأهلها أخذوك منى ومن أهلك. أظن أنها كانت فى سرها شامتة بى عندما طلبت نديدا الطلاق.

مكافأة لى على إحياء اسم الشهيد أطلعنى الدكتور عبد الواسع على صور لهما فى باريس وعلى بعض أوراق الشهيد، ومنها نتف من مسودة ما كان سيقدمه للجنة الدستور حول الخصومة السياسية والجريمة السياسية. لكن القدر كان له بالمرصاد. القدر أم الغدر؟

المهم أنه رحل قبل أن ينجز حتى المسودة التى لخصتُ بعض أفكارها فى أكثر من مقالة نشرتها فى جريدة ألف ياء، كما ضمّنتها فيما كتبت عن الشهيد فى مشروعى الذى لم يكتمل ولن يكتمل.

شدد الشهيد فيما كتب على أن الديكتاتورية هى التى تسببت فى اعتبار الجرائم السياسية أكبر خطراً، وفى اعتبار المجرم السياسى عدواً للشعب لأنه عدو لنظام الحكم. ومما كتب الشهيد أن القوانين الجزائية الحديثة تدعو إلى أن تكون عقوبات الجرائم السياسية أشد منها فى الجرائم العادية.

وعدد من ذلك التغليظ على المجرمين السياسيين فى قواعد الشكل، فى إجراءات الملاحقة، وتعيين الاختصاص، والتحقيق، والإحالة، والمحاكمة، والحكم، والتنفيذ، وكذلك فى قواعد الموضوع فى التجريم وفى تحديد العقوبات. وفى حوار مع الدكتور عبد الواسع حول كل ذلك ضرب لى أمثلة كثيرة، منها إنشاء المحاكم الخاصة والاستثنائية، وتوسيع اختصاص القضاء العسكرى ليشمل أية جريمة قد يرتكبها عسكري، وبعض جرائم المدنيين المتصلة بأمن الدولة، أو قد تمس الجيش، وكذلك إلغاء طرق الطعن.

كان الشهيد يحاول تعريف الجريمة السياسية بالأسئلة والأمثلة فى الغالب. الجريمة السياسية هى برأيه الجريمة التى يكون واحد من عناصرها أو أكثر أو جميع عناصرها سياسياً. أو هى الجريمة التى يكون واحد من أطرافها أو أكثر أو جميعهم سياسياً.

من أمثلته أن مدير الثانوية إذا عاقب بالضرب المبرح طالباً لأن له نشاطاً سياسياً فى حزب أو سواه ضد ميول المدير السياسية أو ضد انتمائه السياسى إلى حزب أو جمعية أو ما شاكل، هل تعد هذه العقوبة جريمة سياسية يعاقب عليها القانون؟

برأيى المتواضع أنا الذى لا علم لى بالقانون: نعم هذه جريمة سياسية ويجب أن يعاقب عليها القانون.

مثال آخر: إذا اعتدى نائب أو وزير أو رئيس حزب على جار له بأى شكل من أشكال الاعتداء المادى أو المعنوى فهل يعد ذلك جريمة سياسية يعاقب عليها القانون؟ وإذا ردّ المعتدى عليه فهل الرد جريمة سياسية؟

مثال ثالث: إذا دهست سيارة موظفاً فى الاستخبارات أو محافظاً فهل يعد هذا جريمة سياسية؟ وماذا لو دهست السيارة شيخاً وأثار ذلك غضب الجمهور فجرّ تعديات واضطرابات، أليس هذا جريمة سياسية؟

في إحدى مقالاتى نقلت من مسودة الشهيد حرفياً وهو ما حصرته بين حاصرتين:

"إنها الدولة إذن .

قد تكون الدولة إذن.

أى اعتداء عليها هو جريمة سياسية. أليس التصرف غير القانونى بأموال الخزينة اعتداء على الدولة؟ أليس إذن جريمة سياسية؟

ما هو إذن أى اعتداء من الدولة على المواطن؟ أليس جريمة سياسية ولكن بلا قانون يعاقب عليها؟

الدولة هى كما قال المتنبى فى سيف الدولة: فيك الخصام وأنت الخصم والحكم. الدولة هى مؤسساتها والمؤسسات هى بشر من لحم ودم وليست هيكلاً إدارياً أو هيكلاً قانونياً فقط.

القانون نفسه بشر من لحم ودم.

أمن الدولة إذن ليس فقط ما يكشف جاسوسية أو مؤامرة لقلب نظام الحكم بالقوة أو ما يمنع أىّ اضطرابات أو أىّ عصيان. كل هذا هو جريمة سياسية واضحة.

أمن الدولة هو أيضاً استيراد وتصدير وأوبئة وصحة وتعليم وما شاكل. أليست الجريمة السياسية قائمة هنا؟".

الاغتيال وحده هو ما جزم الشهيد بأنه جريمة سياسية. ولم يفرق بين اغتيال سياسى أو غير سياسى. لم يفرق بين أن يكون الغرض من الاغتيال سياسياً أو غير سياسى. تراه كان يحدس بمصيره؟

أما الخصومة فلم تشغل من مسودة الشهيد غير سطور ركزت على أن الخصومة خلاف فى الرأى أو الموقف أو المعتقد السياسي. ولها أشكال عديدة كالخطابة أو الكتابة ولكن ليس لها شكل مادي. ليست شجاراً يدوياً أو بأية أداة ولكن قد يكون لها أذى معنوي. قد تمهد للجريمة السياسية.

بعدما ألفتُ من الدكتور عبد الواسع أن يسمى ما وقع لشقيقه اغتيالاً فاجأنى بأن الاغتيال كان يشغله بين وقت وآخر. كان ينساه طويلاً ثم يعود إليه. قد تكون عودة عابرة وقد تمتد طويلاً. أما أهم ما تحدث به فهو اغتيال رئيس الجمهورية ومحاولة اغتيال رئيسين للوزراء قبله. هكذا ذكر الألقاب أو الوظائف دون الأسماء فلما سألته ابتسم وقال: ليست مهمة.

طبعاً لم يكن عسيراً على مثلى أن يعرف من هو رئيس الجمهورية المقصود ولا من هو رئيس الوزراء المقصود. ليس لأنى الصحفى الشمام بل لأن الزمن قريب جداً. وعلى كل حال فقد استملحت لعبة الدكتور عبدالواسع بالأسماء ومارستها مراراً فى مقالاتى دون أن تكون التقية قصدي، بل اللعب وحده.

عن الرئيس كان لدى الدكتور الكثير مما لا أعرفه. فاجأنى بأنهما صديقان منذ العزاء بالشهيد رمزي. ولم ترتبك صداقتهما إلا مرة واحدة عندما اصطحب الرئيس - الذى كان يومذاك رئيساً للوزراء - صديقه إلى حلب برفقة رئيس الجمهورية.

كان الدكتور عبد الواسع يروى باعتزاز كيف شارك صديقه رئيس الوزراء - بعمامته البيضاء وسترته السوداء الطويلة - ورئيس الجمهورية فى الاحتفال فى حلب بإزاحة الستار عن تمثال المطران جرمانوس فرحات، تقديراً لما خدم به لغتنا الفصحى. وبعد الاحتفال توجه الموكب إلى الصلاة بالجامع الأموى الكبير، حيث تحجز السدة عادة للمسئولين إذا حضروا لتأدية الصلاة. لكن هذه السدة، هذه المصطبة الأعلى، كانت هذه المرة ممتلئة بالشبان المعارضين الذين منعوا رئيس الوزراء ورئيس الجمهورية من الصلاة فيها. بعد الصلاة اعتقل منهم حوالى مئتين.

على مدى شهور بعد ذلك تواصلت محاكمة المعتقلين وحكم على سبعة وخمسين منهم بالسجن أربعة أو خمسة حتى ثمانية أشهر. أما الدكتور

عبدالواسع فقد نصح صديقه بالإفراج عن المعتقلين وكرر عليه ما كان كثيرون يرددونه: الإسلام لا يعرف نظاماً للتشريفات فى المساجد والجوامع. لكن الصديق لم يقبل النصح، فحرد الدكتور عبدالواسع، ثم شارك فى الدفاع عن المعتقلين ومن أجل ذلك سافر مراراً إلى حلب، بينما استمرت القطيعة بينه وبين صديقه حتى استقال من رئاسة الوزراء بعد أكثر من سنة.

عندما عاد الرئيس من فرنسا ـ طبعاً لم يكن قد صار رئيساً ـ أسرع الدكتور للسلام على صديقه. عندما حاصر الفيشيون منزل الرئيس فى الحلبونى اخترق الدكتور عبد الواسع الحصار وتضامن مع صديقه. عندما نفى الفيشيون الرئيس إلى برمانا فى لبنان وفرضوا عليه الإقامة الجبرية فيها زاره الدكتور هناك. لولا الدكتور ما كان لى أن أعرف صلات ذلك الرئيس بقنصل بريطانيا وقنصل أمريكا وبالديغوليين، وهذا ما يسّر له الوصول إلى رئاسة الجمهورية. كان الدكتور يتحدث باعتزاز عن صديقه الذى رفض أن يعينه الفرنسيون رئيساً، وطلب أن يكلف بالرئاسة تكليفاً فكان له ما أراد. كانت عينا الدكتور تضيئان بذكرى إعلان الاستقلال وبذكرى نهاية دولة العلويين ونهاية دولة الدروز وعودة اللاذقية والسويداء إلى حضن الأم السورية كما قال.

احتفالاً بهذه العودة أقيمت فى السراى حفلة يوم الوحدة كما اشتهر اسمها. باعتزاز أيضاً قال الدكتور عبد الواسع إن صديقه كان داهية. وبحسرة كاوية قال إنهم اغتالوه. سألت من هم يا دكتور؟ قال: ربما كانوا الإنجليز. ربما كانوا الفرنسيين. ربما كانوا خصوم الرئيس. فى هذا لم يأت بجديد إذ ردد ما تردد من أن الرئيس أحس فى نهاية النهار المشئوم بالتعب الشديد فلازم الفراش. وقيل إن الأطباء شكوا بالتسمم كما قيل إنهم سمموه بالكميات الكبيرة التى أعطوه إياها من الداجنان. قد يكون طريفاً بعد كل

هذا ألاّ يسمى الدكتور عبد الواسع هذا الرئيس. وقد يكون كل ذلك بلا معنى.

إنه الشيخ تاج الدين الحسنى الذى كانت له كما يعرف الجميع خصومات سياسية كثيرة وحادة منذ شبابه حتى مماته. فى هذه الخصومات يصح قول الشهيد رمزى بأن الخصومة السياسية قد تمهد للجريمة السياسية. هذا الأمر يصح أيضاً على ما سبق اغتيال الرئيس من محاولتى اغتيال رئيسين للوزراء.

فى المحاولة الأولى ألقيت قنبلة على سيارة رئيس الوزراء وهو فيها قادم من بيته الصيفى فى قدسيا إلى السراى. طبعاً جرى تحريك دعوى الحق العام.

روى الدكتور عبد الواسع أنه أُلقى القبض على المتهمين وهم: طالبان مطرودان من مدرسة الصنائع وسجين سابق بتهمة اللصوصية.

– من يدافع عن مثل هؤلاء يا دكتور؟

سألته فابتسم مشفقاً عليّ وقال:

– خلّنا نبدأ من التقرير الفنى عن الحادثة. ليس فى التقرير الذى وضعه أحد الضباط أى أثر يدل على انفجار قنبلة. هناك حفرة صغيرة بين عدد من الأشجار. قد يكون ما انفجر إذن أية مفرقعة. هذا وحده يثير الشك. ولكن كيف توجهت الشكوك إلى المتهمين الثلاثة فألقى القبض عليهم واعترفوا بسرعة وبساطة بالتآمر على رئيس الوزراء وعلى رئيس البرلمان أيضاً؟!

لماذا ادعى رئيس الوزراء شخصياً على عدد من المعارضين لحكومته ولم يدع على أولئك المتهمين الثلاثة؟

هذه الأسئلة هى ما شجعنى وشجع غيرى على أن نتولى الدفاع فى هذه القضية ضد رئيس الوزراء. وبسرعة وبساطة أيها الصحفى الشمام تبين أن قرارنا كان صائباً. الطالبان اعترفا بمن وعدهما بالبراءة إذا أُحيلا إلى

القـضـاء. إنه واحـد من الرؤوس المؤيدة لرئيس الوزراء. وقـد وعـد الطالبين أيضاً بالعفو إذا صدر حكم بحقهما وبالإعادة إلى مدرسـة الصنائع. أما اللص الظريف فقد وُعِد بالبراءة والعفو وقبض نصيبه من المال كما قبض أهل الطالبين نصيبهما.

وسـألنى الدكتور عما إذا كنت أريد أن أعرف الأحكام التى صدرت فى هذه القـضـيـة. ولم ينتظر جـوابى بل تـابع القـول بأن القـضـيـة لم تكن فى مـحكمـة الجنايات، بل فى سـاحـة الخـصـومـة السـيـاسـيـة، أى فى الحـارات والشوارع والجرائد والمنتديات والجوامع والخطب.. فرئيس الوزراء كان فى صراع مع زعيم المعارضة الدكتور عبد الرحمن الشـهبندر ولذلك اصطُنعتْ قضية الاغتيال واتُهم عدد من أنصار الشهبندر وأقربائه. بعد سنتين ماذا جرى يا رباح؟

فاجأنى سؤال الدكتور وسرنى أنه لم ينتظر جوابى إذ تابع مترحماً على الدكتور عبدالرحمن الشهبندر الذى اغتيل بعد سنتين من المحاولة الكاذبة لاغتيال رئيس الوزراء.

قلت:

– لكنك ذكرت محاولتين لاغتيال رئيسين للوزراء. ماذا عن الثانية؟

قال:

– انس. ولكن إياك أن تنسى أن أربع مـحـاولات اغـتـيـال على الأقل، شـهـدتها بلادنا خلال خمس سنوات. نجحت منها محاولتان فحصدتا الشـهـبندر ورئيس الجـمـهـورية. إياك أن تنسى أن من فـعل ذلك ليس الاستعمار، بل نحن. نحن فعلنا ذلك ببعضنا. ماذا تسمى ذلك يا رباح؟

ومرة أخرى فاجأنى بسؤاله، وسرّنى أنه لم ينتظر الجواب. إذ نهض ساخطاً ومعلناً انتهاء اللقاء.

المصوّر بمصورته

هذا هو ديدن الصحفي: تكتب عن الناس يا رباح ولا تكتب عن نفسك. صوِّرْ رباح يا مصور. ولكن ما من صورة تفسح لك وحدك. كن في صدرها إذا كان ذلك يحلو لك، لكنك لن تكون وحدك. ستجلس نديدا عن يمينك ورمزى عن يسارك. هذا اليوم إذن هو يوم سعدك. بوسعك أن تتفرج على هذا الذى ينسلّ منك وينفصد بعدما سكنك سبعاً وثلاثين سنة. أنت مازلت شاباً بينما شاخ هو على الرغم من أن له مثل سنيّك ويلبس جلدك كما تلبس جلده. ليذهبْ إلى الجحيم ما دامت نديدا عن يمينك ورمزى عن يسارك. مسكين أنت يا رباح. رباح الذى شاخ مسكين، ورباح الذى يعتد بشبابه مسكين. قد تجمعك الصورة بابنك. لك أو له أن يكون عن يمينك أو عن يسارك. لماذا لا يكون فى حضنك؟ أما نديدا فلن تجمعك بها حتى الصورة. وليس لك إذن إلا أن تنتظر كل ليلة غفوة أمك، وغفوة ابنك فى حضنها، لتلبد أنت ملء سريرك، ملء شهوتك أو ملء همدتك أو ملء الورقة البيضاء التى تنتظرها مطبعة ألف ياء على أحر من الجمر.

لك الآن ما تشتهى يا رباح: دعْ ذراع نديدا تتأبط ذراعك وعجّلْ بها – مثلاً – إلى سامية جمال وفريد الأطرش لتسرحوا جميعاً فى أفياء فيلم (حبيب العمر). سترقص نديدا مثل سامية وستغنى أنت مثل فريد يابختك يا أخي. درْ بنديدا من الشام إلى بيروت، من سينما إلى سينما، من فيلم إلى فيلم، من (السلم الحلزوني) إلى (دماء ورمال) إلى (نور وظلام) أي: من ريتا هيوارث إلى جورج برنت، ومن آفا جاردنر إلى إيفيت فغالي، حتى إذا ارتويتما من أخيولة فأخيولة، عدْ بنديدا إلى هذه الوكنة التى تلبد فيها الآن، وافردْ بين يديها كل هذا الذى حملته إليها من المكتبة العمومية، لتفرد هى بين يديك كل هذا الذى حملته لك من مكتبة عمها. هكذا سيطول العناق –

مثلاً - بين (فاوست) و(الجريمة والعقاب) أو بين (هكذا تكلم زرادشت) وبين (كانديد). أما عناقك لنديدا أو عناقها لك فسيتأخر ريثما ينتهي حلمك الليلة بالمشوار الذى قادكما ذات ليلة إلى معرض الكتاب السورى فى الجامعة. أنت تهديها ديوان (طفولة نهد) وهى تهديك رواية (نهم). هى تهديك (معالم الوعى القومي) وأنت تهديها (آراء وأحاديث فى القومية العربية). هكذا سيطول العناق بين نزار قباني وشكيب الجابرى وبين قسطنطين زريق وساطع الحصري، فلا تتعالمْ كما تعالمت ذات عصر قصي: هذا كتاب قديم وهذا قرأته منذ سنوات، وهذه نديدا تزورّ فيزورّ رمزى وينفر منك إلى حضن أمه، فيتلقفه حضن أمك، وتتبدد الصورة فتنده: صوِّرْ يا مصوّر.

صوِّر الصقيع الذى بدأ ينغل صيف شتاء فى البيت أو فى أنفاس نديدا أو فى روحك. هى مشغولة - أم تراها تتشاغل - بملفات الدعاوى، وابنك فى حضن أمك، وأنت تقلب مجلة فمجلة: (أنوار) أو (العالمان) هذا المساء، (أصداء) أو (اليقظة العربية) مساء البارحة، (النواعير) أو (الصباح) مساء غد. لماذا لم تعد تحمل جريدة إلى البيت إلا (ألف ياء)؟ لماذا لم تعد نديدا تقرأ (ألف ياء)؟ أليس أنفةً من أن تقرأ حرفاً لك؟ إذا كان المساء الذى يجمعكما يتطاول بكل هذا الصقيع، فكيف سيكون نهار الجمعة بعد يومين أو بعد ستة أيام؟ اهرب بجلدك واهرب بابنك من صقيع يوم العطلة إلى حيث تهرب به قدماك الحافيتان وحيرتك الحافية. امض على الأقل إلى رأس الحارة لترى ابن عمك يسابق صلاة الجمعة بيديه اللتين غدتا يدى الحاوي: تمسكان بالخيزران، يد تقشط الخشب وتنعمه، ويد تنجده بخيوط الخيزران، ويد تمسك الكرسى الذى صار أكبر ليناً من خصر نديدا بين يديك ذات ليل قصي. سوف يلهو رمزى بلعب ابن عمك حتى يدعو الداعى إلى صلاة الجمعة التى نسيتها منذ توفى والدك. سوف يغلق ابن عمك الدكان ويطير

إلى المسجد القريب، كما تطير أنت حاملاً ابنك، ولكن ليس إلى مسجد ولا إلى بيت.

حين يظهر لك الجامع الأموى يكون المصلون قد انفضوا، ولك إذن أن تلتفّ على الجامع، وتغط فى سوق القباقبية مثلاً، لتدع رمزى يتفرج جذلان على الأبواب المغلقة، قبل أن يفاجئك باب مشرع. قف هنا ودَعْ رمزى يتفرج على هذا الذى يلعب بحبات الرمل وألوان الرمل ملء هذه الزجاجة الصغيرة التى قدمها له الرجل، فارتد مذهولاً. والآن، أين المفر يا رباح؟

طفولة ابنك هذه أم طفولتك؟

ذات ضحى ستنحشران فى هذا القفص المغطى الذى يجره صاحبه حتى تظهر القلابة والدويخة، فتتسابق أنت وابنك إلى فرحة العيد، بينما تكون نديدا قد عادت أيضاً إلى طفولتها، لتطير بها الأرجوحة مع قريناتها، ولكن ليس فى الهواء الطلق مثلك ومثل رمزي، بل فى دار، أى دار، المهم أن تكون مستورة. غير أن نديدا الصغيرة مثل نديدا الكبيرة، تلك تتشبه بالصبيان وهذه مسترجلة كما تقول أمك، ولذلك تزاحمك وتزاحم رمزى أمام صندوق الدنيا :

وتعا تفرجْ يا سلام
على عبلة أم سنانْ
تعا تفرجْ تعا شوفْ
هذا عنتر زمانه
راكب على حصانه
هادى هى الست بدور
قاعدة جوا سبع بحور
الأركيلة كهرمان والتخت من ريش نعام
شوفْ يا حبيبى كمان وكمان

طفولة رمزى هذه أم طفولتك؟

رددْ إذن خلف ابنك كى يردد خلفَ جدته وهى تحملك كما تحمله نديدا وهما يزقوان:

أنـا الـزنبقْ
لـونى أبيـضْ
وردْ مـطَبقْ
زهرى مـدقـدقْ
زنبـقْ زنبـقْ زنبـقْ
طرنـا وطـاروا
ويـن درنـا؟
درنـا وداروا
ويـن داروا؟
بـأرض الـزنبـقْ طـاروا وغـاروا

وذات ظهيرة ستكون عائداً إلى البيت، متهيباً جفاء نديدا أو طول غيابها أو لوم أمك الصامت أو لومها الجهير. ستكون ـ كنت ـ مشوقاً لرمزي، لكن خطاك ستتباطأ. من حسن حظك أن فى السوق دوماً ما يلهيك: هذا ينقع القش فى برميل ماء، هذا يعزل القشة الغليظة من القشة الرفيعة والمسوسة من السليمة، هذا يشبك ملء قبضته من القش ليخيطها، هذا يحزم عشر مقشات ـ إن شئت فسيحزم عشرين ـ ليبخرها بما لا تعلم حتى تصير لها شقرة شعر نديدا وملاسته. أعوذ بالله. ألم تجد ما تقارن شقرته بشقرة شعر نديدا إلا المكنسة؟ أسرعْ إلى أى ملجأ مما أنت به قبل أن يضبط أحد فعلتك. قف هنا علّك تتنسّم عصراً صيفياً ساخناً ستتضاعف سخونته لولا هذا الذى سيبرد غلتك، لكن بعد أن يعصر الليمون ويبرش البرتقال الطازج، ويتوج هذا الوعاء بالثلج قبل أن يسكبه فى البرميل. الآن سيدوس هذا

الشاب على الدولاب الموصول بالبرميل لتدور دائرة العصير بينما يجمع هذا الفتى لك ملء الكأس من العصير الجامد: صحة وعافية يا رمزى أبو شلّة، فلتعد الآن يا رباح أبو شلّة إلى البيت بأمان الله، ولكن ليس قبل أن تتبين ما إن كانت هذه طفولة ابنك أم طفولتك.

من أسف أن المصور قد أخطأ يا رباح. تاهت أصابعه لأول مرة بين حوض المظهّر وحوض المثبت فخرج الكارت أبيض كما دخل: ليس من صورة لك مع نديدا، لا فى ستوديو بحبش ولا فى غيره. لم تترك صورة تجمعكما عندما قالت لك: طالق بالثلاث.

من أسف أكبر أن لعابك مازال يسيل كلما نادتك، حتى لو كان النداء من أجل بدر الدين أتماز. آن لك يا رباح أن تستجيب لنداء أمك فتترك لها أن تختار من تنسيك نديدا، وتربى رمزي، وتأتيه بأخ أو أخت بإذن الله قبل أن تدور سنتها فى هذا البيت.

بعد نديدا نسيت أنك رجل. حسبك أن ترى ساقى سامية جمال أو صور ريتا هيوارث على شاشة أصغر من هذا الجدار، لكنها أكبر بياضاً. أنت تخشى - إن استجبت لأمك - أن تأخذ نديدا ابنك منك، كأن لا يكفيك أنك لم تعد زوجاً، بل ولن تعود أباً.

ابنك لك يا أفندى يا متعلم. أى قانون علمتك الأفوكاتو نديدا؟ لتذهب هى وابنها إلى جهنم. قم شف شبابك قبل أن تقصفه مقصوفة العمر.

لا يا أمي.

لأول مرة يعلو صوتك على صوت أمك ويغلظ لها، فتخاصمك وتخاصم رمزى ليلة ونهاراً، ولا ترضى بأن تقبل يديها ورأسها، بل ستنتظر حتى تهل عليك الليلة التالية بصفرة وجهك، فجحوظ عينيك، فضيق صدرك، فارتخاء مفاصلك. عندئذ ستحضنك كما تحضن هى أو نديدا رمزى الذى أفاق على نواحها، فأسرع إليك كأنما ليفديك من شر عظيم.

الفصل الثالث

3

عصر الخميس رأت نديدا نفسها تقف أمام ما كان فندق فيكتوريا الكبير. كانت النسائم الرطبة التى لاقتها وهى تغادر المكتب، قد أغوتها بالسير. لكن أطلال الفندق أقبضتها، فتابعت بخطى مترددة، ذاهلة عما حولها، حتى رأت نفسها تقف أمام ما كان مستشفى هنرى دوفير بيزييه، ثم تحول إلى مستشفى يوسف العظمة، وها هو الآن أكوام من التراب والحصى وقضبان الحديد وأكياس الأسمنت وألواح الخشب والأعمدة، وأكوام من العمال.

ضاعف المشهد من انقباضها، فأسرعت تغادر الصالحية إلى البيت الذى بدا من بعيد يتلألأ. كانت النسائم تلاعب كل ورقة خضراء، كل غصن، كل نؤابة. تشهت نديدا أن ترخى شعرها للنسائم كى تلاعب كل خصلة، بل كى تلحس هذه الأذن وتلثم هذه الأذن. وتلفتت مدارية، لكأن الأمر سيكون، بل لكأنه قد كان. لذلك دخلت مبتهجة، وتسللت إلى غرفتها ضنينة بالبهجة التى ما عاد لها مطرح فى البيت منذ اشتد المرض على الدكتور عبد الواسع، وبدأ ينقر فى مفاصل ماما افتخار.

لازمت نديدا الغرفة حتى أعتمت. عندئذٍ تسللت إلى الصالون حيث صادفت زهور التى همست فرحة:

– الدكتور فى مكتبه والحمد لله.

لم تصدق عينا نديدا فأسرعت إلى المكتب. ولم تقرع الباب كالعادة، بل دفعته واندفعت حتى الكرسى الذى ملأه الدكتور كالعادة. وهزجت:

– الحمد لله على السلامة.

فتعلقت عيناه بها تفيضان بالحنان. وجاء صوته وانياً ويداه تربتان على عدد من المصنفات التى تتوسط سطح المكتب:

– هذه يا ابنتى كلها مشروعات غير مكتملة. بعضها حدثتك عنه سابقاً. من يدرى، يمكن أن تكمليها أنت.

ولم يطل هذا اللقاء الأول هنا منذ شهور. وحين عاد الدكتور إلى سريره بدا يضعف مع كل خطوة، فأسرعت نديدا إلى ماما افتخار التى بدت ضائعة وسط سريرها، لكأنها تتردى مع كل تنهيدة أو زفرة.

هكذا قبعت نديدا وحيدة فى الصالون، تنوء تحت وطأة الصمت المطبق على البيت، تود لو أن زهور تلطم أى وعاء فى المطبخ بأى وعاء، تزيح كرسياً أو تدندن، لعل صوتاً يؤنس هذه الوحشة. ولما طال الصمت توجست شراً: نذر الموت تحوم فى سماء البيت. لو خطف الموت الدكتور عبد الواسع وحده فسيكون الأمر أهون. لو خطف ماما افتخار وحدها فسيكون الأمر أهون. ولكن ماذا لو خلا البيت منهما معاً؟ هل ستبقى نديدا وحيدة مع زهور التى أخذت الشيخوخة تجللها أيضاً؟

لماذا لا تأتى برمزى ليعيش معها هنا؟

فجأة اجتاحها الشوق لابنها الذى سيأتى به رباح غداً، قبل صلاة الجمعة. لكن نديدا ستهتف الآن لرباح كى يأتى برمزى مبكراً، بل فور نهوضه من الفراش. ستطلب من رباح ألا يعود ليأخذ رمزى بعد ساعتين أو أربع. ستعيده هى فى المساء. ستقضى معه النهار بطوله. ستحدثه منذ الآن بعيشه معها عما قريب فى هذا البيت. لكنك لا تصلحين أماً يانديدا: صدعها صوت مجهول، وعاجلها بقسوة أكبر: أنت لم تصلحى بنتاً لأمك فكيف تصلحين أماً لابنك؟ وخلّف الصوت رأس نديدا فى دوامة، وخافت من أن تكون حقاً كما ساطها الصوت، وتعلقت عيناها بباب الغرفة الموصد على ماما افتخار، وهتفت فى سرها: هذه أمي، فعاودها الصوت ساخراً: بعد موتها ستبحثين عن درة حفظي. ستصير درة حفظى ماما درة. ولكن ماذا ستفعلين لو كانت ماما درة قد سبقت ماما افتخار إلى الموت؟

التجأت عينا نديدا إلى صورة أبيها، فسرت هدأة فيها. بعد قليل باتت عيناها قادرتين على أن تطوفا بصورة جدها، بشهادة الدكتوراة، برفوف

المكتبة، بالسجادتين العجميتين الصغيرتين اللتين تتقابلان يمين ويسار نديدا. ولم تجد عيناها أخيراً ما تحطان عليه إلا مصنفات الدكتور عبد الواسع التى تربعت على الترابيزة. مشروعات ناقصة: تمتمت شفتاها المطبقتان، ثم تبسمت عيناها وقرأتا: الوسيط فى القانون الدستوري، وعلى المصنف التالى قرأتا: الوسيط فى القانون العقاري، وعلى مصنف فمصنف قرأتا: الوسيط فى الجرائم المشهودة، الوسيط فى الجرائم الأخلاقية، الوسيط فى جرائم الانتخابات، الوسيط فى جرائم الاحتيال، الوسيط فى جرائم القتل، الوسيط فى جرائم السرقة، الوسيط فى جرائم التزوير.

كان الدكتور قد حدّث نديدا مراراً عن عزمه على تقديم القوانين بشكل ميسّر، يقربها من غير المتخصص، كما ييسر العودة إليها على المحامى أو القاضى وذوى الشأن. وقبل ذلك وبعده كان قد حدّث نديدا عن مشروع ضخم يعدّ له العدة: موسوعة القضايا الجزائية. لكن المشروع ظل مشروعاً، كما أن الوسيط فى أى مصنف من هذه المصنفات لم يكتمل. ولا يبدو أن المرض سيمكّن الدكتور من أن ينجز أى مشروع. بل لن يمهله الموت، فماذا ستفعل نديدا بهذه المصنفات أو بما تخبئ أدراج وخزائن الدكتور؟ هل ستؤجل النظر فيها حتى تشيخ؟ ألن يجتمع لشيخوختها هى أيضاً مثلما اجتمع لشيخوخة عمها؟ ولكن من قال إن نديدا الكهرمان قد تشيخ؟

بين ممازح وساخر وجاد ومستفز ظل السؤال يبدل هيئته، موقّعاً للوقت الذى أخذ يتباطأ ويثقل حتى رنّ الهاتف، وظل يرن حتى ركضت الخادمة إليه. وما كادت تسأل عمن يكون المتكلم حتى امتدت ذراعها بالسماعة نحو نديدا قائلة:

بدر الدين يريدك.

أسرعت نديدا إلى السماعة تسابق لهفتها. وقبل أن تنبس، تلفتت خشية أن تكون الخادمة قد ضبطتها. ثم اصطنعت البرود وهى تؤهل ببدر الدين،

وتعلن دهشتها مما يجعله يتصل فى مثل هذا الوقت، وبعد صمت طويل. لكن صوت بدر الدين فاجأها بحياده إذ قال:

– لدى أخبار مهمة تتصل بأمك. متى أستطيع أن أراك؟

قالت نديدا بانفعال:

– إذا كنت تقصد درة حفظى فأخبارها لا تهمني.

– يجب أن أراك، إذا لم يكن الليلة ففى الصباح. أين تفضلين: فى البيت، فى مكتبي، فى مكتبك؟

ردّ بتعال أشبه بالأمر، فصمتت نادمة على لهفتها، وطال صمتها حتى عاد يتعجلها، فأعادت يدها السماعة إلى موضعها بينما كانت شفتاها تلتجمان.

قالت نديدا بانفعال:

– ما الذى بهت فيك؟ كأن السمنة مثل الامتلاء قد غادرت خديك وكتفيك وصدرك وخصرك وراحة كفك. كأن صوتك أيضاً قد نحف. لكن نظراتك لم تتبدل. خففْ من فجورها كرمى لله. الحياء من الدين يا بدر الدين. لماذا تحدثنى بهذه اللهجة. هذه اللهجة جعلتنى أقطع اتصالك بعدما فرحت به. لماذا لا تختصر الطريق وتقول ما لديك؟

قال بدر الدين بحياد:

– منذ شهر تلقيت تقريراً يقول إن المواطن الفرنسى من أصل سورى خطيب حفظى دخل البلاد لأول مرة منذ خرج من السجن بطريقة غامضة وهرب خارج البلاد. عندما قرأت التقرير فكرت بالاتصال بك ولكن..

قالت نديدا بانفعال أكبر:

– خطيب حفظى هنا منذ شهر والآن تتكرم بإعلامي؟

قال بدر الدين بحياد أكبر:

- وضعت خطيب تحت المراقبة. كان الرجل ينزل فى أوتيل دامسكوس بالاس كما يليق بالسائح الثري. بعد أيام انتقل إلى منزل أحد أقربائه ولا يزال هناك حتى اليوم. التقارير تصفه بالذكاء والحذر والكرم. لم يضبط عليه ما يثير الشبهة أو أية مخالفة لكنه بدأ يتردد على الغوطة. بالضبط بدأ يحوم حول مزرعة الدكتور عبد الواسع. بلغنى أنه يفكر فى شراء مزرعة. ربما كان يحوم حول مزرعة عمك من أجل ذلك. التقارير تؤكد أن عودته إلى فرنسا صارت قريبة، أى إنه لن يقيم هنا. لماذا يشترى مزرعة إذن؟ هل يهيىء لعودته النهائية؟

- كأن قدره يقوده إليّ. كيف ستمكننى من رؤيته؟ بل كيف ستجمعنى به؟

- لا سلطة مباشرة لى عليه. لا تنسى أنه مواطن فرنسي.

- ألا يزال يحمل الجنسية السورية؟

- لا يزال.

- لسوء حظه وحسن حظي.

- بماذا تفكرين؟

- هل تعرف قانون العقوبات؟

- بالطبع، أم تظنين أن معرفة القانون لا تعنى إلا المحامي؟

- أعرف أنها تعنى المحامية أيضاً. أما الضابط فلا.

- لا تنسى أنى أمضيت فترة فى الاستخبارات. تستطيعين أن تقولى إننى ضابط استخبارات، والأفضل لضابط الاستخبارات أن يعرف القانون. على الأقل أن يعرف قانون العقوبات. ولكن ما علاقة هذا الكلام بخطيب حفظي؟

- لابد إذن أنك تعرف المادة رقم ٢٦٤ من هذا القانون. كرمى لخطيب حفظى حفظتها عن ظهر قلب من أيام الجامعة.

- هذه المرة أعترف بجهلي. ماذا تقول هذه المادة؟

- تقول: كل سورى دس الدسائس لدى دولة أجنبية أو اتصل بها ليدفع بها إلى مباشرة العدوان على سوريا وليوفر لها الوسائل لذلك، عوقب بالأشغال الشاقة المؤبدة. وإذا أفضى فعله إلى نتيجة عوقب بالإعدام. عقوبة خطيب حفظى ألم تكن الأشغال الشاقة المؤبدة؟ قد تكون المحكمة لحظت ذلك أكثر مما لحظت دوره فى الجريمة.

- هل تنطبق هذه المادة عليه؟

- أثناء سجنه كتب رسالة إلى الرئيس الفرنسى ونشرتها الجرائد فى سوريا وفى لبنان. الرسالة كلها دسائس لدى دولة أجنبية.

- والجرائد نشرت أيضاً إنكار خطيب حفظى للرسالة.

- أنت إذن مطلع على القضية. هل هذا أيضاً من عمل ضابط الاستخبارات؟

- بالطبع. والمهم أن تتذكر المحامية أن دس الدسائس يعنى أفعالاً أو وقائع. إذا كانت الرسالة باطلة فما حجتك؟ الجريمة مضى عليها ما مضى وها هى والدتك قد شملها العفو، فما بين يديك ضد خطيب؟

- لا تقل والدتك.

- لاينفع الإنكار يا نديدا بنت درة.

- كأن بدر الدين أتماز نسى أن القضية اغتيال. اغتيال سياسى كما شخّصها عمى وأصدقاء أبى منذ البداية.

- ما هو ثابت أن القضية شخصية. الجريمة جريمة شخصية، لا سياسية.

- خلّ المواطن الفرنسى الذى مازال يحمل الجنسية السورية يثبت ذلك.

- حتى لو ثبت أنها قضية اغتيال فهى ليست قضية خطيب حفظى وحده. القضية قضية والدتك.

– للمرة الأخيرة لا تقل والدتك.

– سواء قلت أم لم أقل فلا أظنك ستطلقين فضيحة بسبب خطيب حفظي. ستكون فضيحة لك ولوالدك وعمك.

– شكراً على النصيحة التي لن أعمل بها.

– اختفاء درة حفظي – ها أنا أنفذ أمرك – سيضعف من موقفك في القضية.

– سيعقد موقفي، لكن لن يضعفه.

– وماذا لو ظهرت درة حفظي؟

– سيكون قدرها قد قادها لي. سيكون ظهورها من سوء حظها وحسن حظي.

– قد يتكشف اختفاؤها عن جريمة. قد تكون مقتولة.

– وقد يكون لظهور خطيب صلة باختفائها. قد تكون سافرت إليه. مادمت تتخيل فلماذا تكتفي بظهورها؟ تخيْل لاختفائها سببين، بل عشرة.

– وهذا الأمر سأنفذه أيضاً.

– يجب أن ألتقي بهذا المجرم. هل أعتمد عليك؟

– وبعد اللقاء؟

– سأحرك دعوى عاجلة ضده. يجب ألا يغادر البلاد. هل أعتمد عليك؟

– كأنك تريدينني أن أخالف القانون. بل أنت تريدين أن أتسبب بأزمة ديبلوماسية مع فرنسا.

– أنا آسفة أنا لا أريد منك شيئاً. بالله عليك لماذا اتصلت بي؟

أصر بدر الدين على أن ينقل نديدا بسيارته إلى البيت، فأصرت على الرفض. ليس أكبر عناداً منها غيره، وليس أكبر عناداً منه غيرها. لكنها استسلمت أخيراً بعدما طال وقوفهما على الرصيف، بجانب السيارة، بينما المارون يحدقون في هذه السافرة التي تتنمر على ضابط!

قال إنه لن ينسى فضل خطيب حفظي، فلولاه لكان يمكن أن تتواصل القطيعة بيننا يا نديدا. وحياة المرجان اللى ضوّى على هالخد والمرجان اللى مال على هالخد اشتقت لك يا نديدا. فى أول لقاء قلت لك أنت أحلى من رأيت. وحياة الورد الجورى الندى الصافى على هالخدود أنت أحلى من رأيت. ستسألين لماذا ابتعدت عنك إذن؟ فى البداية رأيتك تقربين من رباح ورباح يقرب منك حتى ظننت أن المطلقين سيعودان زوجين عما قريب. ستسألين ما أدراك يا بدر الدين؟ تتجسّس عليّ؟ على بدر الدين يا عزيزتى أن يعرف كل كبيرة وكل صغيرة فى سوريا. كل شاردة وكل واردة صار عليّ أن أعرفها من بعدما دخلت القصر، فكيف إذا كان الأمر يخصّك؟ وعلى كل حال موضوع رباح كان السبب الأول. السبب الثانى أنى سافرت إلى واشنطن. أوفدتنى القيادة فى دورة تدريبية فى مدرسة المخابرات الأمريكية. قبل قليل ذكّرتك بأنى عملت فترة فى الاستخبارات. اعتمدت على ذكائك حتى تستنتجى الباقي. عندما كنت فى القصر كنت أعمل فى كل شيء. فى الاستخبارات فى الإدارات فى الوزارات في.. مرافقة الرئيس عمل حلو ومر، عمل خطير يا نديدا. ليس أخطر من أن تكون حياة الرئيس وموته بيدك. ولكن ماذا يستطيع مثلى أن ينفع الرئيس عندما يقع الانقلاب عليه؟ ستكون معجزة إذا نجوت برأسك. أما المعجزة الأكبر فهى أن تنتقلى من مقام المسئول عن مرافقة الرئيس المخلوع إلى مقام المسئول عن مرافقة الرئيس الجديد. هذه المعجزة لا تكون إلا لبدر الدين أتماز، ولكنها أيضاً لا تكون إلا مرة واحدة. لذلك أرسلونى بعد الانقلاب الثالث إلى واشنطن. والآن إذا أردت أن تعرفى أين أعمل فكرى بخطيب حفظى وأنت ذكية. عندما سافرت إلى واشنطن، ترددت طويلاً فى أن أودعك، أو أزورك أو أن أتصل بالهاتف. قلت هى غيبة قصيرة يا بدر الدين، ثلاثة أشهر تعود بعدها، وإذا كان لك نصيب بنديدا فسيكون. فى واشنطن لم تغيبى عن بالي. بعد الدورة قضينا

في نيويورك عشرة أيام في جولة اطلاعية. راح سنان عبد المنعم عن بالي. لو تذكرته لبحثت عنه وزرته كرمى لك. تذكرتك خلال الجولة كل يوم، ربما لأن عودتنا كانت تقترب. ستسألين متى عدت؟ إذا قلت لك منذ شهرين تقريباً فلا تسأليني لماذا لم أتصل بك. كنت مشوشاً في كل شيء. عملي الآن كبير وأنا أمد خيوطه كل يوم أبعد فأبعد. أطلت الطريق عامداً لنبقى معاً وقتاً أطول، لأستطيع أن أحدثك بغير قضية خطيب حفظي. متى نلتقي؟

تركتْ نديدا السؤال معلقاً، ولوحت لبدر الدين مبتسمة، وانتظر حتى أخفاها باب البيت، بينما انتظرت خلف الباب حتى اختفى صوت السيارة. ثم تقدمت ببطء نحو العريشة، عبر الدرج المهجور الضيق الذى يصل بينها وبين الجنينة. وعلى مشهد من المدينة والغوطة والبدر الذى يتلألأ فى كبد السماء، لبثت نشوى، وتعجبت من أن بدر الدين قد عاد سريعاً كما رأته أول مرة: ممتلئ الخدين والكتفين، ممتلئ الصدر والخصر والصوت والنظرات. فجوره ناعم وخفي، شهوانى بقليل من الحياء وكثير من المكر، وما كان لرباح أن يصفه بأنه كذاب وغير وفي. لكن نبوءة رباح ستصح فيه. سيكون لبدر الدين أتماز شأن كبير، ومن يدري، فقد يكون صاحب انقلاب قادم، فمتى تلتقيان؟

ضنينة بسعادتها تسللت من الباب الجانبى إلى الممر المفضى إلى غرفتها. وعلى مهل بدلت ثيابها، وبحثت فى الراديو عن أغنية. ولما استقرت إبرة الراديو على محطة الشرق الأدنى، صدحت أماني:

يا ريتنى أخطرْ على بالكْ
يا حبيب الروح
ولاّ أكونْ همس خيالكْ
طرحْ ما تروحْ

ومع أماني دندنت نديدا حتى هزج الراديو: الليلة الليلة الليلة سهرتنا حلوة الليلة، فطارت نديدا من الغرفة، وراحت تحوم فوق عمارة حديثة في الأزبكية، حيث أشار بدر الدين قبل قليل إلى مسكنه الجديد.

ثمة، في الفضاء الوضاء، تراءى لنديدا حشد من الشباب والصبايا يزفونها وبدر الدين. لكن العروسين لم يبدلا الثياب التي كانا يرتديانها قبل قليل. وعلى باب العمارة التي يقطن بدر الدين في الشقة اليمنى من طابقها الأخير، لاقت العروسين نسوة عجائز بينهن ماما افتخار وأم رباح التي خصت العريس بزغرودتها الأولى:

شب الظريفْ إنْ عبقْ عبقْ عطرْ بالدارْ
شب الظريف إنْ مرقْ خلاّنا فلكْ دوّارْ
عريسْ يا عريسْ حاجي تخبّي سرارْ
سر الهوى ما انكشفْ إلا وقت ما غارْ

وما إن هدأت زغاريد العجائز حتى خصت أم رباح العروس بزغرودتها الثانية:

يا زهرة الآسْ نيّالْ اللى ضمّكْ
أنتِ الأميرة ومعروفْ خالكْ وعمكْ
يا شَهد العسل نقّطْ على تمكْ
يا مريم الحسنْ كانت ما شابهتْ رسمكْ

لكن العجائز لم يزغردن هذه المرة، فالعرس - همست العروس في أذن العريس - ليس عرس رباح ونديدا لتزغرد فيه أم رباح كما فعلت منذ سنوات. ولم يأبه العريس، بل أسرع بالعروس قفزاً على الدرج. ولما جلسا على حافة هذا السرير توقدت أنفاس العروس، بينما انطلق العريس يروى مما عاش في واشنطن ونيويورك مثلما كان يروى قبل قليل:

- في الذهاب قضيت ليلتين في باريس وليلة في أمستردام قبل أن نطير إلى واشنطن. في الإياب أيضاً...

لكن العروس قاطعته بضيق قائلة:

- وتعلمنا أصول التحقيق بلا ضرب ولا تعذيب. تعلمنا طرق المراقبة. تعلمنا مكافحة المخدرات ومكافحة التجسس. تعلمنا تقفي الأثر وخلافه وكل هذا في ثلاثة أشهر! غيره يا عريس؟

قال باعتداد:

- مئة وستة أيام، وفي كل يوم امرأة على الأقل. نساء من كل خلق الله: البيضاء والسوداء والصفراء و...

انتفضت نديدا قائلة:

- نسيت أنك رجل عاهرات. صدق رباح فيك. ألم تقتل عاهرة فرنسية أو أمريكية كما قتلت عاهرة حلب؟

وسقطت من الفضاء الوضاء على الكرسي المقابل للراديو الذي كان يلغو باحتلال الجيش الإسرائيلي لقطعة أخرى من الأرض المجردة من السلاح، والتي تفصله عن الجيش السوري، فتماثل لها سنان يخاطبها: صدقت الآن ما رويته لك عن رودس؟ ولبثت هنيهة عاجزة عن جواب، ثم أومأ رأسها مصدقاً، وتلوى السؤال في صدرها: متى تعود من نيويورك يا سنان؟ ليست ابتهال وحدها بحاجة إليك، ولا البنتان وحدهما. أنا أيضاً بحاجة إليك.

ما أسرع إليه بدر الدين في تلك الليلة هو أنه أحضر خطيب حفظي إلى مكتبه، وأمر له بكأس من الشاي دون أن يستشيره، ثم انقض عليه بالسؤال:

- من هي ضحيتك القادمة؟

بُهت خطيب، وتعلقت شفتاه بالهواء، بينما راح بدر الدين يستحضر صورة درة حفظي في آخر لقاء له بها قبل أن تختفي.

كانت ذابلة، كسيرة، خائفة، كما لم يرها بدر الدين من قبل. كانت قد تركت القصر إلى مكان ما. وكان بدر الدين قد نسيها فى غمرة انتقاله من مقام مرافقة رئيس إلى مقام مرافقة رئيس. لم تطلب عوناً. بل طلبت أن يجمعها بدر الدين بنديدا. ولما لم يعدها إلا بأنه سيحاول، استحلفته بأن يرعى نديدا، وكان صوتها يوشك أن يبكي.

لماذا أخفيت ذلك عن نديدا؟

انقض عليه السؤال ففر إلى خطيب الذى أطبق شفتيه أخيراً، وكأنما استفز بذلك بدر الدين الذى صرخ:

- لم تجبنى على سؤالي.

قال خطيب غير مبال

- لم أفهم.

قال بدر الدين مهدداً:

- أظنك تعرف أين أنت.

- قالوا لى المقدم يطلبك.

- ما ذكروا لك الاستخبارات؟

- الاستخبارات؟ خير؟

- أجبنى على سؤالى أم تراك نسيته؟

- قلت لك لم أفهم.

- رمزى الكهرمان كان الضحية الأولى لخطيب حفظى ودرة حفظي. من هى الضحية القادمة؟ أنت الآن وحدك.

- ليس لك الحق بأن تكلمنى بهذه الطريقة. أنا مواطن فرنسي. أنا أريد الاتصال بالسفارة.

- أنت سورى يا خطيب.

- الحقّ عليّ. كان عليّ أن أتنازل عن هذه الجنسية. أنا فرنسي.

– كلمنى الآن كسوري. لماذا رجعت بعد كل هذه السنين؟

– اشتقت لأهلي. اشتقت لبلدي. ممنوع؟

– اشتريت مزرعة أم مازلت تبحث؟

– أنت إذن تراقبني.

– إذا كنت تريد مزرعة الدكتور عبد الواسع الكهرمان فيمكن أن أتوسط لك في شرائها.

– شكراً. ما عدت أريد مزرعة ولا غيرها. لا أريد شيئاً إلا الخروج من هنا والعودة إلى بلدي.

– أنت في بلدك.

– بلدى فرنسا.

– وأنت لن تخرج من هنا ولن تعود إلى بلدك قبل أن تقول لى أين هى درة حفظي؟

– حضرتك أدرى. أنا مقدم فى الاستخبارات أم أنت؟

– أنت متهم بإخفاء درة حفظي. ومن يعلم، قد تكون قتلتها كما قتلت زوجها!

– درة حفظى اختفت قبل مجيئى بشهور. درة حفظى هى التى قتلت زوجها وليس أنا.

– ما شاء الله! أنت تعرف أخبارها بالتفصيل.

– من لا يعرف؟ لا تنس أنها ابنة عمي. أهلى أخبروني.

– كأنك اشتقت للسجن يا خطيب. خلف مكتبى هذا غرفة تليق بك. إذا دخلتها فلن تخرج منها حتى تظهر درة حفظى حية أو ميتة.

قال بدر الدين ببرود أقلق خطيب. ولما طال صمته أمر بدر الدين العسكرى المرابط أمام باب المكتب بأن يأخذ هذا المجرم إلى جهنم. عندئذ أطرق خطيب وتمتم:

- درة فى فرنسا.

فأشار بدر الدين إلى العسكرى بالانصراف، وقال:

- هذه المرة أنا لم أفهم يا خطيب.

قال خطيب:

- عندما كانت فى القصر حصلت على عنوانى عن طريق السفارة، وبعثت لى رسالة. كانت تفكر فى الذهاب إلى فرنسا، ولهذا حصلت على جواز سفر. بعد الانقلاب سافرت إلى بيروت ومنها إلى مرسيليا. أنا مقيم فى مرسيليا.

- ودرة حفظى مقيمة معك.

- نعم.

- تزوجتها أم الحرام أحلى؟

سأل بدر الدين ساخراً، وعزم على أن يجمع نديدا بخطيب الذى حشرج مستجدياً:

- هل أستطيع الآن أن أنصرف؟

متوجسةً قطعت نديدا المسافة التى تطاولت بين غرفتها ومكتب الدكتور عبد الواسع.

لو كان لها ألاّ تلبى نداءه الذى نقلته الخادمة زهور إليها، لفعلت. كانت زهور لا تكاد تقوى على الوقوف منذ الصباح. وكان قد غلّل نديدا بالوحشة وسمّرها فى السرير ما تأرجحت فيه بين حلاوة الحلم ببدر الدين ومرارة شكوكها فيه. كانت متيقنة من أن ما ينتظرها لدى عمها سيزيد من وحشتها. لكنه فاجأها بما تشع به عيناه من الغبطة والرضا، وما ينبض به صوته من الطمأنينة، وهو يدعوها إلى الجلوس قبالته، على الكرسى الملاصق للطاولة الأبنوسية.

من اليمين قربت أصابعه المرتعشة علبة مصدّفة طولانية. إلى اليسار لاحظت نديدا علبة مربعة سوداء وزاهية. وعلى العلبة الأولى ربتت الأصابع المرتعشة، وقال العم:

– هذه لك. هذه حصتك.

وتابع وأصابعه تربت على العلبة الثانية:

– وهذه لابتهال. والآن اسمعي يا ابنتي: هذا ما تبقى مما ورثته مع المرحوم والدك من المرحوم جدك. حصتي وحصة والدك كانتا فى عليتك هذه. ما فكرنا يوماً باقتسامها. كان واحدنا يأخذ ما يحتاجه دون أن يستشير الآخر أو يخبره. كان يكفى أن أخبر أمى أو يخبرها هو، وهذا كان نادراً على كل حال. كانت العلبة فى عهدة أمي رحمها الله. ما جرى لوالدك رحمه الله قصف عمرها وصارت العلبة فى عهدتي. القليل الذى بعته منها أنفقته على هذا البيت، علينا جميعاً: أنت وابتهال، أنا وافتخار.

وصمت حتى فتح علبة نديدا، وتناول منها سبحة، وقال:

– هذه من العقيق المعرق. من الجزع. انظري.

أعشى عينى نديدا ما تراءى لها من وهج يتقد فى العلبة ويشع من حبات السبحة. وبينما وضعت الأصابع المرتعشة السبحة جانباً، جاء صوت الدكتور عبد الواسع راجفاً:

– فى حديث للرسول صلى الله عليه وسلم أن الله يحب أن ترفع إليه يد بالدعاء فيها فصّ عقيق. انظرى هذا.

وكان قد أخرج خاتماً فيه فصٌّ مضلّع من العقيق المتقزح، وناولها الخاتم قائلاً:

– لابتهال مثله لكنه مربع. ولها مسبحة مثل مسبحتك لكنها من العقيق الأزرق.

تركت نديدا أصابعها تتهجد الخاتم ونظرت إلى حبات السبحة، فتاهت فى البياض المشطب بالسواد والصفرة. وتسللت أصابعها إلى عنقها لتتبيّن ما يهزج به عقدها: أنا أيضاً مثل السبّحة، لكن حبتى أكبر وبياضى مشطب بالأحمر فوق الأسود والأصفر. وكانت الأصابع المرتعشة قد أخذت تقدم لنديدا حجراً فحجراً، وصوت الدكتور عبدالواسع يتلون بألوانها:

– هذا حجر العقاب. هذا حجر الدم وهذا حجر الطاووس. هذا حجر الحية وهذا الحجر الصينى وهذا حجر البهت وهذا الحجر لا أعرف له اسماً. جدتك أيضاً ما كانت تعرف له اسماً. فى علبة ابتهال مثل هذه الأحجار إلا هذا الحجر. هذا لك وحدك. ومقابله تركت لابتهال مسبحة جدتك. لا أظنك تتذكرينها. كنت صغيرة. ما بقى عندنا قطعة من اللازورد غيرها. لكن عند افتخار القليل من مسحوق اللازورد.

وأخذ يعيد إلى العلبة ما أخرج منها قائلاً:

– يقال: لكل مولود حجره، وإذا اقتناه فسيجلب له الحظ والثروة. ابتهال ولدت فى آذار، ومولود آذار حجره هو حجر الدم. أنت ولدت فى حزيران، ومولود حزيران حجره حجر القمر. للأسف ليس بين هذه الأحجار.

قالت نديدا مقاطعة وهى تشير إلى الحجر الذى بلا اسم:

– لا أريد حجر القمر. أريد أن يكون حجرى هذا.

فابتسم بحنان وقال:

– عليك إذن أن تسميه.

– سأفعل.

– اذهبى الآن إلى ماما افتخار، فعندها البقية. هى أيضاً تريد أن تبرئ ذمتها وتوزع ما عندها عليك وعلى أختك. هل انتبهت إلى ما فى المكتبة من كتب عن الأحجار الكريمة؟

– أذكر أنى رأيت كتاباً أو اثنين، لكنى لم أقرأ.

- جربى إذن. ولا تنسى أن تتصلى غداً بابتهال. اطلبى منها أن تأتى لتأخذ حصتها.

وفجأة اختفى صوته ليفح فى سمع نديدا صوت درة: ماذا فعلت بالكنز الذى أرشدتك إليه؟ لماذا لم تبحثى عنه؟ لماذا لم تحدثى أختك عنه؟ لماذا لم تحدثى أحداً عنه؟ نسيت؟ إياك أن تكونى طامعة فيه لك وحدك. هذا خطيب حفظى قد عاد ليأخذه. إياك أن يسبقك.

ولكى لا يظل صوت درة يفح انتفضت نديدا كالملديغة، واندفعت إلى خارج المكتب هاربة.

تحاشت نديدا غرفة الست افتخار حتى ظهيرة الغد - الجمعة - حين جرّت قدميها جراً كما جرّاها جرّاً إلى الغرفة التى هلّت مثل ماما افتخار. وبينما وقفت نديدا وسط الغرفة، لا تريم، غادرت ماما افتخار سريرها بأناة، ومضت إلى الترابيزة التى تجثم عليها علبتان كالعلبتين الرابضتين على مكتب الدكتور عبد الواسع، سوى أنهما أصغر.

جلست ماما افتخار على أحد الكرسيين اللذين يحيطان بالترابيزة، ودعت نديدا إلى الجلوس على الكرسى الآخر، فجلست كالمسحورة. وكالمسحورة رأت أصابع ماما افتخار التى تضاعف نحولها وتضاعفت صفرتها، تفتح إحدى العلبتين، وتخرج منها ما لم تتبين نديدا له أو لها شكلاً، ولا اسماً، لكأن الوهج الذى أعشى عينيها قد أعشى ذاكرتها أيضاً. بيد أنها كانت قادرة على أن ترهف سمعها لتسمع صوت ماما افتخار الذى ازداد رقة ونداوة، كأنها لم تعد مريضة:

- لو تعرفين أين كان ما فى العلبتين مخبأ من قبل أن يستشهد والدك؟

- قالت لى درة: تحت الصنوبرة، فى المزرعة، خمس خطوات شرقى جذع الصنوبرة.

تسمرت أصابع ماما افتخار مشدوهة مثل نظراتها ـ لونك مخطوف يا نديدا؟ ـ ومثل سمعها ـ صوتك يا نديدا كأنه يبكي؟ ـ ويبدو أن ذلك ما كان كافياً لأن يجعل نديدا تصحو كأنها تفيق من إغماءة طويلة، فعادت أصابع ماما افتخار تخرج بصمت ما تبقى فى العلبة المفتوحة. واستطاعت نديدا أن تتبين مشبكين وعقداً وكأساً وفصوصاً وخاتمين ونصاباً لسكين وثلاث لفافات صغيرة جداً، يكفى للواحدة منها ملء ملعقة. وحين لم يبق فى العلبة شيء قالت ماما افتخار:

– هذا كله وما رأيت عند عمك وما باعه هو أو المرحوم والدك، كله كان مخبأ تحت الصنوبرة. لابد أن والدك هو من أخبر درة. جدتك هى التى اقترحت ذلك المخبأ. مكان مهجور لا يخطر على بال. بعد وفاتها أحضر عمك المخبوء إلى هنا.

صاحت نديدا فرحة مثل طفلة:

– إذن ما كان تحت الصنوبرة شيء كل هذه السنين!

وامتلأت شماتة بأمها وبخطيب حفظي، بينما تابعت ماما افتخار وأصابعها تداعب العقد:

– أنا اقترحت على عمك أن يوزع بينك وبين ابتهال ما لدينا من كل شيء. أنا وعمك ما بقى لنا فى الدنيا إلا القليل، وأنت وابتهال عوضنا الله بكما عما حرمنا منه بحكمته. أنت تعرفين هذا العقد.

– هذا عقدك ماما. أعرفه.

– وتعرفين أنه عقيق. أربع عشرة حبة بيضاوية وثلاث مكورات. هذا أغلى ما عندي، لك. ومقابله أخذت ابتهال قطعة عقيق عليها صورة الكعبة وقطعة ثانية عليها اسم الله.

ثم أخذت تقلب الفصوص والأحجار قائلة:

- هذا الفص من المرو المنقط. وهذا البنى المجزع من عين النمر، حامله لا ينقص له مال ولا تصيبه مصيبة. انظرى كيف تتلألأ صفرته! هذه القطعة الصغيرة من الحجر الحديدي. عرش بلقيس كان من الحجر الحديدي. إذا وضعته تحت مخدتك يبعد عنك الكوابيس. أما هذا الحجر فغادرة: حجر البلخش الأسود نادر. وهذا أيضاً من البلخش، شكله عجيب، مثل الوسادة. حجر الشمس هذا انظرى كيف يشف بياضه! هذا الحجر لا يبرد. فى عز الشتاء يحتفظ بالحرارة طوال الليل.

وبينما أخذت تفتح لفافة قالت نديدا:

- ماما افتخار تعرف كل هذا وتخبئه عني!

- ما خطر لى أنه يهمك. هذا المسحوق من اللازورد، له فوائد لا تحصى. لو شئت هو كحل، هو للربو، لتجعيد الشعر، حتى للبرص. حتى الكآبة يبعدها. ولا تنسى أن تنظفيه كل مدة بالماء المالح. لا تنسى أن تنظفى كل هذه الأحجار بالماء المالح كل مدة، ثم ضعيها فى مكان مكشوف، واحرصى على أن يكون ذلك فى ليلة مقمرة، وأن يكون قمرها بدراً. بذلك يعوض الحجر كل ما يكون قد فقد من قدرته.

وأخذت تعيد للعلبة ما كان فيها ببطء وصمت. ولما حاولت نديدا أن تساعدها، لامست كفها، فأجفلتها برودة الأصابع، فرفعت عينيها لترى ماما افتخار قد بهتت، ونظراتها قد ذبلت.

لكى تهوّن نديدا من انتظارها لهاتف من بدر الدين، لازمت زهور فى المطبخ حتى الغداء، وما كانت تفعل ذلك إلا نادراً، لا قبل الزواج ولا بعد الطلاق. فزهور راسخة فى البيت منذ صباها وماما افتخار حاضرة دوماً فى المطبخ أو الصالون أو الحمام أو الجنينة، ومثلها أنشأت ابتهال، على العكس من نديدا. وعلى العكس من نديدا، رفضت ابتهال أن يكون لبيتها خادمة، بينما أصرت نديدا على أن تسبقها الخادمة إلى بيت رباح. لكن أم

رباح ظلت تناكد الخادمة حتى طفرت، كما ظلت طويلاً تسخر من نديدا التى لا تفرق بين مدقة اللحمة ومدقة الكبة، أو مدقة الحمص ومدقة الباذنجان المشوي، بل لا تعرف كيف تقلى قرص الزلابية ولا كيف تغطسه مقلياً بالقطر!

بعد الغداء انفردت بالصالون. وبلا رغبة اقتربت من المكتبة وبحثت عما أوصاها عمها بقراءته، وطال البحث حتى همت بالابتعاد، وإذا بكتاب «الجماهر فى معرفة الجواهر» يناديها، فأسرعت إليه، ولم تتذكر أنها رأته من قبل، لكنها تذكرت اسم صاحبه: البيروني. وعادت إلى الرف الذى صادفت الكتاب فيه، فرأت فى أقصاه كتاب «أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار»، فتذكرت الكتاب وصاحبه: التيفاشي، وبقربه رأت كتاب «نخب الذخائر فى أحوال الجواهر»، فلم تتذكر الكتاب ولا صاحبه: ابن الأكفاني.

حملت الكتب الثلاثة إلى الكنبة الكبرى، وراحت تقلّب فيها جزافاً. وسرعان ما ملّت فتمددت على الكنبة الكبرى، وراحت تقلب فى مجلة «الكواكب» حتى استوقفها وجه الممثلة المصرية الجديدة ماجدة: الحاجبان مدججان وطويلان، فسحة الحاجبين كبيرة والعينان واسعتان، الوجنتان تفاحتان صغيرتان وحادتان، لكأن هذا الوجه وجه ابتهال فى يوم من الأيام، قبل أن تبالغ فى نتف الحاجبين ليغدوا خيطاً رفيعاً، وقبل أن تتراخى وجنتاها.

بعد قليل نحّتْ المجلة جانباً، ووقفت أمام المكتبة حتى تغلبت أصابعها على حيرة عينيها، وتناولت كتاب «فلسطين الشهيدة»، وفاجأها أنه صدر قبل قيام إسرائيل بعشر سنوات، وسرعان ما روّعتها الصور: صورة السوق الرئيسى فى جنين بعد نسف مخازنه على الجانبين، صورة الشارع الرئيسى فى جنين أيضاً وقد نُسفتْ دوره على الجانبين. وبين صورة وصورة كان عليها أن تصدق ما تقرأ وهى واقفة، فإذا بالحرائق لا توفر قرية كما لا توفر

مدينة، وإذا بالبيوت منهوبة، والمساجد متصدعة، والمصاحف معفرة ومشلوحة فى الطرقات، وهذه جثة طفلة، وهذه جثة طفل، وهذه جثة نديدا نفسها، وليست أية امرأة من اللواتى يملأن صورة فصورة: واحدة شبه عارية، وواحدة محجبة، وواحدة يكاد بطنها ينشق، وواحدة... ونديدا تندفع إلى المكتبة وتخفى الكتاب خلف صف من الكتب المجلدة حتى لا تراه مرة أخرى، بينما يلوب سؤالها: إذا كان كل ذلك قد جرى فى فلسطين قبل عشرين سنة أو ثلاثين، فما الذى جرى البارحة؟ ما الذى جرى قبل سنتين حين وقعت هذه التى يسميها الناس نكبة، ويسميها رباح وحده هزيمة؟

من الوحشة التى أطبقت على صدرها وأثقلت أنفاسها، فرتْ مشياً، وظلت سادرة فى إغماءتها حتى اكتشفت أنها واقفة أمام الواجهة الزجاجية لاستوديو المصور الأرمنى ميناس كوزيان: هذه صورة طفل أصغر من رمزي، وهذه صورة ضابط، وهذه صورة الشهيد عبد الرحمن الشهبندر، وهذه صورة الشهيد يوسف العظمة، وليس فى الواجهة صورة لامرأة: لماذا لا تكونين أنت أول امرأة تعرض صورتها فى هذه الواجهة، مثلما ستكونين أول من تقود سيارة فى الشام؟

دفع بها السؤال إلى يدى المصور الذى ذكّرها بأنه صوّرها عندما كانت فى الجامعة، وبأنه يعرف زوجها الصحفى رباح أبو شلة - لم تصحح له: طليقى - ويعرف أنها ابنة الشهيد رمزى الكهرمان: لماذا لا تضع له صورة إذن فى الواجهة؟

حبست السؤال حتى انتهى من تصويرها. فلما أطلقته قال المصور:

– هاتى صورة صغيرة له وأنا أكبرها على حسابي.

– عندما أعود لآخذ صوري، سأحضر لك صورة والدي.

قالت ممتنة، وخرجت زاهدة بصورة كبيرة لها تتوسط الواجهة الزجاجية، بل لن تتوسطها: قررت أخيراً وتابعت السير على غير هدى حتى أطلّ الملعب

البلدي، ولوّح لها النهر، فتخففت من كدرها وتبسمت له، ولعنت فى سرها صمت بدر الدين عنها منذ البارحة.

ومن عصر تالٍ حتى تغفو بعد أن ينتصف الليل، إلى عصر تالٍ حتى تغفو بعد أن ينتصف الليل، ستظل تلعن فى سرها صمت بدر الدين، وهى تدفع ما يناوشها من قلق أو سخط أو وحشة. وفى غفلة منها تلاعبت أصابعها بالهاتف، وسأل صوتها عن سيادة المقدم بدر الدين أتماز، فسئلت عمن تكون، وهمت بأن تقول: صديقة أو قريبة أو عاشقة، لكنها قالت: المحامية نديدا الكهرمان، فقيل لها: سيادة المقدم غير موجود. وفى المرة الثانية نطقت باسمها قبل أن تطلب سيادة المقدم، ودون أن تذكر اسمه، فقيل لها: مسافر، فأوصت: ضرورى أن يتصل بى فور عودته. لكنه لم يتصل، ولم يعد، وربما لم يسافر، بل هو لم يسافر، وإنما يتهرب، كما أيقنت نديدا، فما بقى لها إلا أن تتشاغل وتنشغل، كأن تقلب فى العدد الأول من مجلة القانون التى أصدرتها للتو وزارة العدل، فتقرأ نتفة من قسم الأبحاث الحقوقية، ونتفة من قسم التشريع، ونتفة من قسم البلاغات، ثم تغرق فى قسم الاجتهادات: من اجتهادات المحكمة العليا ومحكمة التمييز إلى اجتهادات محكمة الخلافات والمحاكم الاستثنائية. وبالإعلانات عن الكتب الحقوقية الجديدة فى سوريا وفى غيرها، تختم تلك الليلة، لتتشاغل وتنشغل فى ليلة تالية فى واحد من مصنفات الدكتور عبد الواسع، فيستوقفها ما اقتطف من قانون العقوبات العسكري، وما ذُيِّل به المقتطف:

المقتطف:

كل عسكرى حقّر رتبة أعلى بالكلام أو الكتابة أو الحركة أو التهديد أثناء الخدمة أو فى معرض الخدمة يعاقب بالحبس من ثلاثة أشهر إلى سنتين. أما إن كان ذلك خارج الخدمة فالعقوبة هى الحبس من شهرين إلى سنة.

وإذا كان الفاعل ضابطاً فتضاعف هذه العقوبة.

صنّف التذييل فى حقلٍ خاص ضباط الانقلاب الأول، وعلى رأسهم حسنى الزعيم، وتساءل عمن سيعاقب هؤلاء الذين حقّروا زملاء لهم أو رؤساء أو مرؤوسين أثناء الخدمة وخارج الخدمة، أثناء تنفيذ الانقلاب وبعده. وكرر الدكتور عبدالواسع التساؤل نفسه بصدد ضباط الانقلاب الثاني، وعلى رأسهم سامى الحناوى فضباط الانقلاب الثالث، وعلى رأسهم فوزى سلو وأديب الشيشكلي. ولما طوت نديدا المصنف فكرت فى أن سنان شتم أمامها، وربما أمام سواها، قائد الجيش حسنى الزعيم، ولأن الشتم جرى خارج الخدمة، يكفى حبس سنان سنة كأقصى حد، ولكن من يعاقب من؟

فى نهار آخر نادت ابتهال لتأخذ العلبة التى تنتظرها فى غرفة ماما افتخار، والعلبة التى تنتظرها فى غرفة الدكتور عبد الواسع. وأصابت نديدا العدوى من ابتهال: شهقت وزعقت وجحظت عيناها واغرورقتا بالدمع، وعانقت وقبلت وبُهتتْ وتزينت بعقد وقرط ومشبك، وملأت حفنتها بفص ففص وحجر فحجر، وعندئذٍ نكشت نديدا الحجر الذى بلا اسم وطلبت من ابتهال أن تسميه فصاحت: حجر نديدا، وشلت الفرحة نديدا، وربما كانت ستظل شلاّء لولا أن الحجر الذى كان قد عاد إلى وكنته فى العلبة، أخذ يراود نديدا عن اسم آخر له ولها معاً.

وفى نهار آخر تناولت الغداء مع ميريل بدعوة من الأستاذ منذر، فى مطعم أسدية: صرة الأوزى التى لا يرضى لها الأستاذ منذر بديلاً. ومن المطعم تركت قدميها تقودانها وحيدة حيث تشاءان، إلى أن تعلقت عيناها بأسماء الصحف على شرفات العمارة المقابلة: دمشق المساء، الأيام، الحقوق السياسية، الحضارة، بردى... وألف ياء: هل يكون رباح هنا الآن؟

بدر الدين اختفى، ورباح اختفى قبله، ونديدا ستختفى فى البيت من عصر الخميس، ليفيض صمت بدر الدين على الأسبوع: هذه إهانة. ومن خلل صور الانتقام منه استجابت لدعوة مصنف من مصنفات الدكتور عبد

الواسع، حيث نقل مواد من قانون العقوبات، وكتب تحت كل مادة: أقترح التعديل التالي. ولأن الدكتور عبد الواسع لم يكتب كلمة من اقتراح، عدت نديدا عبارته دعوة شخصية لها إلى أن تكتب هى الاقتراح، فقرأت بجلال المادة ٣٧٤ - ١، واصطنعت السذاجة إذ تساءلت عما يكون القدح والذم، فاستذكرت من عهد الجامعة أن القدح هو أى سباب بالكلمة، أو ازدراء بحركة، أو أى رسم ينم عن التحقير، وهو أهون من الذم. ولكن ماذا يكون الذم يا شاطرة؟ سألت نديدا اليوم نديدا ذلك الأمس البعيد، أى نديدا الطالبة فقالت الشاطرة بثقة: هو أن تقولى هذا الرئيس مرتش، أو هذا الوزير وقّع على هذا القرار وهو سكران. وباختصار، هو كل ما يثير الشك فى المذموم. برافو يا شاطرة: خاطبت نديدا اليوم نديدا ذلك الأمس البعيد، ثم كتبت التعديل الذى لم يكتبه الدكتور عبد الواسع، فباتت عقوبة من يحقّر شكرى القوتلى أو هاشم الأتاسى أو حسنى الزعيم أو سامى الحناوي، أى من يحقر رئيس الجمهورية أو رئيس الدولة، بالحبس من سنة إلى أربع، بدلاً من نصف سنة إلى سنتين، إذا كان التحقير قدحاً، وبضعف ذلك إذا كان التحقير ذماً: احسبى عقوبة الذم إذن يا شاطرة. قالت الشاطرة: الحبس من سنتين إلى ثمان، ولكن ماذا لو أن الدكتور عبد الواسع كان سيقترح تخفيف العقوبة، وليس مضاعفتها أضعافاً؟

خشية ذلك، أخذت تعديلات نديدا التالية تخفف من العقوبات، حتى كادت أخيراً أن تتلاشى، بل كاد بعضها أن ينقلب إلى مكافأة. ولعل ذلك ما جعل حنق نديدا على صمت بدر الدين يتلاشى، بل كاد الحنق ينقلب أحياناً إلى مكافأة، وربما كان العكس هو الصحيح. وعلى أية حال فقد ناداها الهاتف عصر الجمعة بصوت بدر الدين ينشد لقاءً.

ستخاطب نديدا نفسها وهى تؤجل لقاء بدر الدين يوماً فيوماً: هذا قانون غير مكتوب، اسمه قانون نديدا الكهرمان. ألا يمكن أن يكون القانون شفوياً وشخصياً؟

على بدر الدين أن ينتظر كما انتظرت، وليتألمْ كما تألمت. وإلى أن ينقضي ذلك، وتلين، ستكون في عصرٍ قد تركت قدميها تتجولان في سوق الحرير، تتفرجان على الخرز الملون، كما ستكون قد قضت عصراً آخر في سوق الخجا، وابتاعت لنفسها حقيبة يد صغيرة مما يصنعه سجناء سجن القلعة القريب. ومن سوق آخر ما عادت تذكره، اشترت لبدر الدين زوجين من الجوارب، أحدهما أسود والآخر أبيض. وستضحك عندما تحمل الزوجين قبيل الذهاب إلى الموعد الذي حل أخيراً. وستضحك عندما تقدم الجوارب لبدر الدين، فيتبدد ما كانت قد عزمت عليه من أن تظهر الغضب والعتب. وسيضحك بدر الدين وهو يتلقف الجوربين، وسيشتبك ضحكها بضحكه إلى أن يصمت فجأة، فتصمت نديدا وتدع نظراتها تحوم حول وجهه، فإذا بنظراته تهيم، فتطرق نديدا، وتعصر يديها، وتضطرب أنفاسها وتسخن، فتهرب مما اعتورها بالارتماء على الكرسي، وكانا لا يزالان واقفين حول الطاولة التي اختارها في زاوية المطعم شبه المعتمة.

متمهلاً جلس قبالتها، ولم يلبث أن جاء صوته:

- أنا أحبك يا نديدا وأنت تحبينني. اشتقت إليك وأنت اشتقت لي.

وبينما راح يشبك أصابعه ويدعكها فوق الطاولة، دنت منه وحدقت فيه قائلة:

- لا تقررْ عني.

قال بثقة عارمة:

- لكن ما قلته صحيح.

فتراجعت قائلة:

- حتى لو كان صحيحاً.

وأسرعت تسأل كأنما تهرب من الاعتراف:

- لماذا لم تتزوج حتى الآن؟

قال متشهياً:
- كنت أنتظرك.
ابتسمت نشوى، ثم قسا صوتها:
- لهذا أدرت لى ظهرك ولم ترد حتى على هاتفي.
- كيف حصلت على هاتفي؟
- ليس صعباً على مثلى أن تحصل على هاتف من هو مثلك.
- ما كان لك أن تتصلي. أرجو ألا يتكرر ذلك.
- لماذا؟
- لأنه لا يناسبك ولا يناسبني. أنا فى موقع حساس وأنت لست مثل بقية الناس.
- إذن أنا المذنبة.
- يا ستى أنا المذنب ولكن انتظرى حتى نطلب ما يؤكل أو يشرب.
قال راجياً، وأعجبها أنه سيكون أبكر عشاء، فالشمس لما تغب. ثم طاب لها أن تسمى ما امتلأت به الطاولة: عصرونية متأخرة. ولما تصافح كأس النبيذ بكأس الماء كررت السؤال عن اختفائه، فوعد بمرافعة أطول وأقوى من أطول وأقوى مرافعة قدمتها المحامية نديدا الكهرمان. وقرر أن المحامية ستكون الآن أول قاضية فى سوريا : تسمع أقواله وتحكم بما ترى، فاصطنعت الجد وأمرت:
- هات ما عندك ولا تضيّعْ وقت المحكمة.
- من أين تريدين أن أبدأ سيدتي؟
سأل متمسكناً، فبدت كأنها تنبهت لأمر مهم، وأمرت:
- ابدأْ من خطيب حفظي.
عندئذٍ تصلبت قسمات وجهه، كما تصلب صوته وهو يمطط الكلمات كلمة كلمة:

- سأصل إليه وسأشنقه من خصيتيه.

أجفل نديدا ذكرُ الخصيتين، وأثارت كلمات بدر الدين ريبتها، فسألته وهي تشيح عما يقصد، فاندفع قائلاً:

- خطيب حفظي أفلت من يدي. سافرت إلى حلب أودع أخي عطاء الدين رحمة الله عليه، ولما عدت اكتشفت أن خطيب رجع إلى فرنسا.

- العوض بسلامتك. ما كنت أعرف. أنا آسفة. ولكن كيف أفلت خطيب من يدي، لا من يدك!

تمتمت، فأتى على كأسه الأولى، وقبل أن يأتي على كأسه الثانية كانت نديدا قد غرقت في الذهول، تكذب ما تسمع وتصدق في آن، فدرة حفظي يا سيدتي القاضية في مرسيليا الآن، في بيت زوجها خطيب حفظي، يهيئان لعشاء أدفأ من هذا العشاء وأدسم، وأنا من سيدفع الثمن، لماذا؟ لأنني اعتقلت المواطن الفرنسي وهددته وعذبته نفسياً. قبل سفري إلى حلب كنت قد أرسلت من أحضره إلى مكتبي معززاً مكرماً. لو لم أهدده لما كنت تعرفين الآن أين هي درة حفظي. لم أكن قد وصلت إلى حلب عندما كان خطيب حفظي يشكوني في السفارة الفرنسية. وقبل أن تخرج جنازة أخي من الجامع كانت القيادة تطلبني: كدت أن تتسبب بأزمة مع السفارة الفرنسية يا بدر الدين. كلهم صاروا عباقرة في الديبلوماسية. أنت لا تعرفينهم يا سيدتي القاضية. أنا عرفت الكثير الكثير منهم بفضل دخولي القصر ومرافقتي للرئيس بعد الرئيس. أعرفهم داخل الجيش وخارج الجيش: واحد مثل حمار الطاحون، لا عافية ولا نضر، واحد مثل الخنفسة بالطاسة، أقسم لك بالله. واحد مثل جردون الشِشمة - العفو منك - غليظ وأعمى حتى لو كان مفتح العينين. واحد مثل النعامة لا طير ولا جمل، وواحد مثل رأس القرنبيط بيوم الأحد. واحد عقله شيش بيش والثاني عقله سَرْدْ والثالث عينه بليطة والرابع عينه..

وسكت، ثم جدد كأسه بأناة، بينما كان صوت رباح يهامس نديدا: قلت لك بدر الدين أتماز لا ينطق بجملتين إلا والمثل هو الثالثة. ثلاث جمل والمثل هو الرابعة. لكنه لم ينطق أمامى بمثل من قبل: هجست نديدا، وابتسمت مستحسنة، ففاجأها بدر الدين:

– أين شردت؟

– أبداً. أنتظرك. كنتَ فى خطيب صرتَ فى القيادة.

– فى القيادة يا سيدتى القاضية من ينتظر منى أصغر هفوة، أقل خطأ. ليس فيهم من لا يعرف أن أسراره عندي. طبعاً بينهم من يحبنى وأحبه أكثر مما كان بينى وبين أخى رحمة الله عليه. ولكن من يرضى الخلق إلا خالق الخلق؟

وبعد جرعة كبيرة ناصفت الكأس تابع:

– بينهم من يطلب معاقبتى لأن السفارة الفرنسية طلبت محاسبة من أساء للمواطن الفرنسي. مواطن فرنسى أم مجرم سورى يا سيدتى القاضية؟ أنت لم ترى خطيب حفظي. احمدى الله. واحد شلعوط، واحد شقدوف.

– ماذا تقصد؟

– أقصد واحد دنيء، حقير، مثل الخنزير المقوص، مثل العجل محزّم ع الموضة. قولى: مثل ناطور الصحراء، لالا، قولى مثل القرد بيخاف من خياله. لالا، قولى مثل القنفذة. أقسم بالله لا بينباس ولا بينضم، وكرمى له فى القيادة من يحاول معاقبتي. اليوم زلزل صوتى مبنى القيادة وأنا أسأل: فرنسا رحلت من هنا أم لا؟ سوريا استقلت أم لا؟ أخلص الأصدقاء ينصحون بأن أحنى رأسى للعاصفة. أظن أنهم سينقلوننى من عملى ولو لفترة مؤقتة.

– يمكن أن ينقلوك من الشام؟

سألت نديدا بقلق، فأتى على الكأس، وأشار إلى النادل يطلب الزجاجة الثانية.

– شربت كثيراً. هل تشرب دائماً هكذا؟

سألت وقد تبدل قلقها بالاحتجاج، فنكس رأسه ونضح صوته بالمرارة:

– ماذا تريدين أن أفعل؟ أضحك؟ أرقص؟ ليس ما بى فقط تلك العقوبة التى يلوحون بها. نسيت أنى فقدت أخى أيضاً؟

– الله يرحمه.

همست متأثرة، بينما عاد صوت رباح يهامسها: لا تنسى أنه كان على النقيض من أخيه. قلت لك عطاء الدين أتماز من مؤسسى حركة الإخوان المسلمين، من مؤسسى الجبهة الإسلامية الاشتراكية، أما هذا الذى دوّخه النبيذ..

وقطع صوت بدر الدين همس رباح:

– أين شردت؟

فانتفضت ولهجت بالرحمة على المرحوم، بينما اندفع بدر الدين مغالباً ثقل لسانه:

– للأسف، كلٌّ منا سار فى طريق. كانت له أفكار عجيبة. أفكار فيها ما يعجبنى ويعجبك. أنا أعرف أنه كان من أعلى أصوات الإخوان المسلمين التى طالبتْ بتحديد الثروة. طالبتْ بالضرائب التصاعدية وبتوزيع الأراضى التى لا يستفيد ملاّكها منها. مزرعة عمك مثلاً. لماذا لا أقول مزرعتك أنت وأختك؟ ماذا تستفيدون جميعاً منها؟ الأستاذ عطاء الدين أتماز كان سيوزعها لو أمد الله بعمره وصار نائباً أو وزيراً. بماذا يختلف هنا عن الاشتراكيين؟ الشيوعيون يتهمون الإخوان المسلمين بأنهم عملاء المخابرات البريطانية، والإخوان المسلمون يتهمون الشيوعيين بأنهم عملاء روسيا، والكل على حق. اذكروا محاسن موتاكم. محاسن الشيخ عطاء كثيرة، لا

أحد يستطيع أن ينكر. لولاه لا أظن أن الإخوان المسلمين كانوا شكلوا فى حلب كتيبتهم التى شاركت فى حرب فلسطين. تذكرين (القرش الفلسطيني)؟ أخى هو صاحب الفكرة: على كل أخ مسلم أن يتبرع يومياً بقرش من أجل فلسطين. هذا هو القرش الفلسطيني. لماذا إذن كان بينى وبينه كل هذا الجفاء؟

حيّر السؤال نديدا بينما راح بدر الدين يغبّ النبيذ غباً، جرعة كبيرة فجرعة أكبر. وخيّل لنديدا أنه يهرب من أمر ما، أو يخفى سراً مبهظاً. وحين سألته عما به، قال:

- إذا نقلونى من الشام ستأتين معي.

قالت بحزم:

- قلت لك من البداية لا تقرّرْ عني.

سأل ممتعضاً:

- من الذى يقرر: الرجل أم المرأة؟

- لا أعرف. ولا أريد أن أعرف. لا يهمنى أن أعرف. المهم أن أقرر بنفسى ما يخصني.

قالت مستاءة، ونقلت حقيبتها من الكرسى المجاور إلى حرجها فتصلبت قسماته كما تصلّب صوته، وأخذ يمطط الكلمات كلمة كلمة:

- مازالت السهرة فى أولها. أنت لم تأكلى شيئاً. أعيدى الحقيبة إلى مكانها.

- تستطيع أن تسهر وحدك. أنا تأخرت عن البيت، ويمكن أن أعود وحدي.

قالت وهى تقف، فنظر إليها بحدة، ووقف كظيماً.

لولا أن رباح دخل محيياً ثم صافح بحرارة، لما تذكرت نديدا أن اليوم هو الاثنين، وأن بدر الدين لم يتصل بعد السهرة.

ربما كانت فرحتها بعودة ماما افتخار ثم الدكتور عبد الواسع إلى الجلوس في الصالون، هي ما ألهاها عن بدر الدين، حتى احتضنت كف رباح كفها. ولما افترقت الكفان أحست أن حرارة كفه تلسعها، وأن كفها تتعرق، فتشهت نسمة باردة وهي تبتسم له وتومئ إلى الكنبة، ثم تسرع إلى الجلوس قبالته.

بالغ الأناقة: تسريحة شعره تؤكد أنه قادم من عند الحلاق، البذلة تزهو بلونها السماوي، والكرافتة تشع مثل لمعة الحذاء. لكن نديدا لم يلفتها ذلك إلا حين تسلل صوت رباح ينبئ بزواجه قريباً.

كان الصوت ينبض بالتناقض: حيَويٌ ومتشاوف، خافت وجهير، معتد ومتصاغر. وضحكت نديدا لما عدّته مزحة أو نكتة. لكنها بترت ضحكتها عندما أدركت أن رباح جادّ، فأقبلت تتملّى، وهمست معجبة:

- أنت عريس فعلاً.

- كأن الرجل يا نديدا لا يكون عريساً إلا مرة واحدة.

هذه المرة جاء صوته عميقاً، كأن صاحبه كبر عشرين سنة واختزن من الحكمة ما لا يصدق، لذلك سألته:

- والمرأة؟

- اسألي غيري. اسألي نفسك.

أطرقت كأنما تنتظر جواباً من بدر الدين ومنها. ولما طال انتظارها مثل صمت رباح، نظرت إليه بحنان، ربما كما لم تنظر إليه منذ بدأ زواجهما يتصدع، فسرت فيه القشعريرة، ونشف ريقه، وما كانت له منجاة من أن يختنق لولا أنها سألت:

- إذا كنت ستتزوج فماذا عن رمزي؟

- من أجل هذا جئت.

قال مغالباً ضعفه، وأكمدها أن تبلع الخيبة، فرباح لم يأت من أجلها كما تعودت، بل ولم يعتذر عن طول غيابه. ولعل ذلك ما جعلها تُسْتَفَز فتسأل:

- ما المطلوب مني؟

- لا شيء.

قال مدارياً ومستسلماً، فحاولت أن تلين، لكن صوتها ظل مجافياً:

- لن تربيه ضرة.

- ليتها كانت ضرة. نسيت أننا مطلقان؟

قال بمرارة، فأسرعت كأنها تصحح خطأ:

- لا ما نسيت، ولكن رمزى سيعيش معي.

- إلى متى؟ لن أسألك عن القانون، ولكن أنت أيضاً ستتزوجين.

- من قال لك؟

سألت مستنكرة، ووجه بدر الدين يتلبس وجهه.

- شائعة، والصحافة تلتقط الشائعات.

- وماذا تقول الشائعة؟

- بدر الدين أتماز.

- إذن أنت تتجسس عليّ؟

- أنا لست ضابطاً فى الاستخبارات مثل بدر الدين حتى أتجسس على الناس.

- أنت الصحفى الشمام.

- إذن الشائعة صحيحة.

- تستطيع أن تقول: صحيحة وكاذبة. إذا صحّتْ فستكون أول المدعوين. هل ستدعونى إلى عرسك؟

- لا أعرف. الأمر ليس بيدى وحدي. وأنت نفسك لن تستطيعى دعوتى إذا لم يوافق بدر الدين.

- بالمناسبة ما أخباره؟

- أنت تسألين؟ مساء الجمعة كنت معه. اسمحى لى أن أقول لك: مثل هذا السهر لا يناسبك. لا يليق بك، حتى لو كنت ستتزوجينه. انتظرى إلى ما بعد الزواج.

- ولكن لو دعوتنى أنت الآن إلى سهرة، وكانت نجاح فتحى تغنى (قلبى معاك) أو كانت فريزة جلال تغنى (حيرة)، فهذا مناسب. صح؟

- ليته يكون مع أنه غير مناسب.

- كيف تتمناه وأنت تستعد للزواج؟

- الجواب عندك.

- الجواب عند رمزي، عند ابننا رمزى يا رباح.

- لو أخذته مني ستفقد أمى صوابها. ستبكى الدم.

- وأنا يا رباح؟ أنا أم رمزى كما هى أم رباح.

- ستحرمينني منه إذن؟

- أعوذ بالله.

- بدر الدين سيحرمنى منه.

- أنت تتحدث كأننى تزوجت. ثم من قال لك: بدر الدين بهذا السوء؟ أنت تكرهه أو.

- أو ماذا؟

- أنت تغار منه يا رباح.

- أكرهه؟ لا أعرف. أنا لا أحبه، ولكن ليس هذا هو الكره. أغار منه عليك؟ نعم. لا تسألي: بأى حق؟ بلا أى حق يا نديدا. لكنها الحقيقة. ليتك تعرفين بدر الدين جيداً قبل أن تتورطي.

- قد أكون لا أعرف عنه أو منه إلا القليل. ما الذى تريدنى أن أعرفه؟

- ربما تعرفين أن القيادة عاقبته بسبب خطيب حفظي، فوضع تحت تصرف رئيس الأركان أو قائد الجيش. لا أعرف إن كانت هذه عقوبة أم مكافأة ما دام صار أقرب إلى الرأس الأكبر، ليس فى الجيش فقط، بل فى سوريا كلها.

- تقصد رئيس الجمهورية؟ ما له ولضابط مثل بدر الدين؟

- أقصد الرأس لا الرئيس.

- ومن يكون بسم الله؟

- سمّه مثلاً شلّيطا. وخلنا بعريس الزين. خلنا ببدر الدين. أنت سألت عما أريد أن تعرفى عنه. يكفيك آخر ما حرر، كما يقال عندنا فى الصحافة. للأسف أنت لا تقرئين ألف ياء ولا تقرئين ما أكتب، ولا تعرفين أننى أحتفظ ببعض المقالات التى كتبتها أيام الانقلاب الأول، ولم أجرؤ على نشرها. بعد الانقلاب الثانى نشرت بعضها، وبعد الانقلاب الثالث تابعت دون أن أحسب حساب ضابط مثل بدر الدين أتماز. أول مرة كانت المقالة مروّسة بما حفظت من صغري:

هسْ هسْ ع الخرساني

بدى إحكى ومقطوع لساني

- أذكر أنك كنت تردد ذلك وتلعن الرقابة.

- هكذا كانت حالة الصحافة مع الرقابة أيام العثمانيين، أيام فرنسا. أما فى هذه الأيام فقد بعثوا لى من مكتب بدر الدين من يذكرنى بطول اللسان. هو تحذير، فركة أذن. المقالة الأخيرة عدلت فيها. حشوتها بالأمثال حشواً وكلها تتعلق بالظلم والظالم. تذكرين الخصلة التى قلت إنها أعجبتنى ببدر الدين؟

- الأمثال. أخيراً نطق بها أمامي. لكن لسانه لم يفلت كما كنت تقول.

– اسمعي إذن: بدر الدين أبرد من طين الشتاء وأنجس من فار الحبس. بدر الدين مثل الصوف دوسو ولا تبوسو. طبعاً لم أكتب بدر الدين. كتبت: الظالم. كتبت دار الظالمين خراب. ياما قدامك يا ظالم. الظلم ظلمات يوم القيامة. يكفي؟

– وماذا فى ذلك؟

– فيه أن بدر الدين طلبني. مكتبه طلبني. وهناك راح ابن حرام من أزلامه يتشاطر عليَّ ويهزأ بي، وفجأة زعق: من تقصد بمقالتك يا أستاذ؟ من تقصد يا حمار؟

– كان عليك أن تقول كل هذا لبدر الدين.

– البركة بك. بدر الدين رفض أن يقابلني. على الأقل تهرّب منيّ. وعلى كل حال توقفت عن نشر تلك المقالات. الحمد لله أن صاحب الجريدة لم يطردني. عرفتِ الآن لماذا قلت: بدر الدين سيحرمنى من ابنى لو رجع إليك؟ الرقابة على الصحف ليست مسئولية بدر الدين، لكنه منذ عاد من واشنطن يتدخل فى كل شيء. وأنا لا أشك فى أنه يتابعنى شخصياً بسببك، وليس ما أكتب إلا حجة.

– انس بدر الدين الآن. رمزى ابنى كما هو ابنك، وأنا أوْلى بتربيته من كل نساء الأرض.

– وأنا أوْلى بتربيته من كل رجال الأرض.

– الآن أنا الأولى يا رباح. أنت عريس. إذا جاء يوم وكنت فيه العروس، فلن نختلف على من سيربيه. والآن قل لي: من هى العروس؟.

– لماذا تسألين؟

– حتى أعرف من ورثتك مني.

– لم ترثنى منك امرأة.

– هذا ليس كلام عريس. ما اسمها؟

- جمانة. أخوها غزال حاج تميم. أظنك تعرفينه.

- نعم من أخوال سنان.

- من أخوال والد سنان.

- وماذا تعمل؟

- لا شيء.

- كم عمرها؟

- تحت العشرين.

- أصغر منك بكثير. لماذا؟

- اسألى أم رباح.

- هى من اختار العروس؟

- أول مرة اخترت بنفسى وفشلت. سأرى هذه المرة.

- ما دمت هذه المرة لن تختار، كان عليك أن تكلفنى أنا بالاختيار.

- بعلمى أن الزوجة تختار أحياناً ضرتها، أما المطلقة فلا تختار لطليقها.

- إذن لو كلفتنى لكنت المطلقة الأولى.

قالت وهى تنتزع الابتسامة التى عجز هو عن أن ينتزع مثلها، فوقف بعسر، وحاول أن يودعها، لكن كفه عجزت عن أن تمتد، ولسانه عجز عن النطق.

تلاعبت ميريل بقسماتها لتبدو عجوزاً حكيمة، وخاطبت نديدا بجلال:

- صدق من قال: عشيقك لا تاخديه ومطلقك لا ترديه. لا بدر الدين يناسبك ولا العودة إلى رباح تناسبك.

وعلى الرغم من أن نديدا سخرت من ميريل، فقد أضمرت أن تأخذ بنصيحتها. لكنها بعدما انصرفت ميريل أقبضها أن تكون قد ضيعت الرجلين، وخافت من أن تكون قد أرادتهما معاً، أو أن تكون ما أرادت يوماً أياً منهما إلا ليكون طوع يديها مثل أية لعبة يلعب بها رمزي. ولكن لماذا لم

يأت رباح برمزي؟ هل سينتظر إلى يوم عرسه؟ تراه ينفض يده من العرس والعروس؟ ولو كان ذلك حقاً فما الذى يبهجك به؟ هل ستزغرد أم رباح لجمانة حاج تميم كما زغردت لنديدا الكهرمان؟ أية أنانية أنت حتى يراودك سؤال واحد من هذه الأسئلة، فكيف بها كلها معاً؟

كان سكون الهواء والحر اللاهب يلجئانها أحياناً إلى الماء البارد، كما فعلت فى هذا العصر الذى ضاق بما ضاقت به منذ انصرفت ميريل. ولأن الضيق بدّل من الحمام الفسيح، وغرفتها الفسيحة، والمطبخ الفسيح، والصالون الفسيح، فقد فرّت إلى العريشة التى قذفتها إلى بيت سنان، فوصلت مبللة بالعرق.

كان سنان قد عاد من نيويورك، لكنه تكتم على عودته، وألزم ابتهال بالتكتم ريثما أنهى عمله بعيداً، وأعيد إلى الجيش، فظهر بلباسه العسكرى ملء بيت أبيه، وملء بيت الدكتور عبد الواسع، ونادى الضباط، ومكاتب شتى فى الأركان ومطار المزة والشرطة العسكرية، ولم يتحاشَ إلا الشعبة الثانية.

خلال تلك الأيام التى تطاولت هتف بدر الدين لنديدا مرتين، تعلل لصمته فى الأولى بأهوال عمله الجديد، وهنأ فى الثانية بعودة سنان، فتساءلت:

– لماذا لا تهنئه هو؟

قال بدر الدين:

– لأنه لا يحبني. وحياة نديدا أنا لا أكن له إلا المودة، على الأقل كرمى لك، وهو لا يحبني. أنا متأكد من هذا لكن خلّه سراً بيننا.

إلا أن نديدا نقلت لسنان ذلك، فاربدّ، ونظر إليها متشككاً، فنكست رأسها كأنها تقرّ بذنب أكبر. ولبثت هنيهة تنتظر سؤالاً أو لوماً، ثم نظرت إلى ابتهال مستنجدة، ثم تشاغلت بملاعبة البنتين، بينما أمعن سنان فى الصمت حتى حضر ضيفان. وما إن غيبتهما مع سنان غرفة الضيوف حتى أسرعت ابتهال:

- الطويل هو المقدم مرقص العميا. كان مدير السجن عندما كانت أمنا فيه، والآن حلّ محل بدر الدين أتماز.

أصاب البهوت نديدا، ورويداً أحست كأن خطراً يقترب، كأن درة حفظى على وشك الظهور، أو كأن بدر الدين أتماز يقبض على ساعد نديدا ويجرها معه، إلى هاوية. ولعلها لذلك ناشدت ابتهال أن تبعد البنتين عنها، وتعلقت عيناها وأذناها بباب الغرفة المغلق، وكان أحدهم يتحدث مفاخراً عن تجربة شهدها بنفسه على صاروخ، فهدر صوت سنان ملتبساً بين الإعجاب والاستنكار:

- صديقى مرقص: صاروخ سوري؟

- قائد الجيش بنفسه حضر التجربة، وفرطت دمعته من التأثر.

قال مرقص، وتساءلت نديدا عما إن كان ذاك الذى فرطت دمعته هو الرأس الأكبر الذى سماه رباح شلّيطا. وكان الضيف الآخر يقول:

- ليس سراً أن عدداً من العلماء الألمان لجأوا إلى هنا بعد سقوط برلين، ولابد أن الصاروخ صُنع بفضلهم.

ويبدو أن الضيف ذا الصوت المفرط النعومة خص سنان بالقول:

- المقدم مرقص لا يعرف كم تكلف تجربة كهذه. حتى قبل تنفيذها، كان الكلام فى القيادة قد بدأ حول تأجيل التجربة أو إيقافها بسبب ميزانية الجيش الضعيفة، لذلك لا تتفاءل.

قال سنان:

- هذا رهن بالمستقبل.

قال ذو الصوت الناعم:

- إذن خلّونا فى الحاضر.

قال مرقص:

- فى الحاضر الكثير مما لا يرضى المقدم سنان.

قال سنان:

- فى الحاضر الكثير مما لا يرضينى ولا يرضيك. ماذا تقصد؟

- قل لى أولاً: لماذا تحاشيت زيارة الشعبة الثانية؟ على الأقل كنت قلت لى مبروك وجهاً لوجه.

- خفت أن أصادف بدر الدين أتماز. وحياتك سألت، قالوا لى مازال يتنقل بين مكتبه القديم وبين رئاسة الأركان، لذلك باركت لك بالهاتف.

- وأنا أكرر الشكر، إنما كنت أمزح. الآن تستطيع أن تزورنى دون أن تصادف بدر الدين.

- أظنك كنت تلمح إلى أمر ما.

- أردت أن أتأكد من أنك فهمت جيداً بلاغ قائد الجيش بملاحقة كل مدنى يشوّق أى عسكرى على الانضمام إلى حزب أو جمعية أو مؤسسة سياسية، وملاحقة المسئول فيها إذا قبل عضوية أى عسكري، بل وإلغاء ترخيصها.

همهمت نديدا بيقينها من أن قائد الجيش هو شلّيطا، وتوعدت رباح باكتشافها الهائل. وكان مرقص يقول:

- السياسة صارت ممنوعة فى الجيش. الحزبية ممنوعة. وعلاقتك صديقى سنان بالحزب السورى القومى معروفة للغادى والبادي. لو كان المقدم بدر الدين أتماز مطرحى لاختار طريقة أخرى للحديث معك فى هذا.

قال نو الصوت الناعم:

- على كل حال لن يكون بدر الدين أتماز بعيداً عن تنفيذ هذا البلاغ.

قال سنان بصوت بالكاد يُسمع:

- كان رئيس الأركان قريباً جداً من حزبنا.

قال مرقص:

- كان.

ويبدو أنه أخفض صوته أيضاً. وتراءى لنديدا خطرٌ يداهم سنان، فما عادت تفرق بين صمت غرفة الضيوف ورنين الهاتف الذى تقطع، ثم انقطع، ثم تواصل حتى تناولت السماعة وتمتمت معتذرة، بينما كان صوتٌ يسأل عن المقدم سنان. ولما علمت أنه غزال حاج تميم همت بأن تسأله عما إن كان له أخت اسمها جمانة، وعما إن كان سيزوجها من رباح أبو شلة. لكن غزال عاجلها بما جعلها تترك السماعة معلقة، وتقتحم غرفة الضيوف، وتخاطب سنان بهلع:

- قتلوا العقيد محمد ناصر.

قال المقدم مرقص العميا:

- مساء الاثنين خرج العقيد محمد ناصر من الشرطة العسكرية باتجاه الربوة. كانت الساعة التاسعة، وكان معه المقدم حسن الخير الذى نزل فى الطريق، بينما تابع المرحوم مع عبدالوهاب عاروض حتى مفرق كيوان. هناك حاذت سيارة المجرمين السوداء سيارة المرحوم. أطلقوا عليها النار فوقفتْ. نزل من السيارة السوداء ثلاثة، وكان الشرطى يحيى الجربوع قد وصل على دراجته النارية. تقدم نحو المجرمين شاهراً مسدسه. قال واحد منهم أنا المقدم بدر الدين أتماز. نحن نطارد هؤلاء الجواسيس. تراجع الشرطى وكان مجرم آخر يصرخ بالمرحوم: امشِ قدامى ع الشرطة العسكرية. رجع الشرطى وفى طريقه التقى بدورية. أخبر الدورية بما رأى فأمره رئيسها بالذهاب إلى دمر وإخبار رئيس القسم. نفذ الشرطى وحضر رئيس القسم إلى المكان نفسه: مفرق كيوان. كانت السيارة وكان عبدالوهاب عاروض قد فارق والعقيد محمد ناصر يئن ويتعتع: أنا بردان.

وقال سنان:

- مساء يوم السبت شرفنى العقيد محمد ناصر بزيارة. جاء ليهنئنى بسلامة العودة من نيويورك، وما كان بيننا زيارات فى البيوت من قبل. كنت

أزوره كل مــدة فى مطار المزة أو نلتـقـى فى النادي، ونـادراً فى مكتب من مكاتب القـيادة. كـان على غيـر عـادته بادى الهـم. قال إنه مراقَب، وأنت يا سنان، إذا لم تكن مراقباً اليوم، فسيراقبونك غداً. قال لديه معلومات بأن من سماه رباح أبو شلة بشلّيطا قرر التخلص من بعض الخصـوم والمنافسين. قـال إنه شبـه مـتيـقن من أن سلسلة اغـتيـالات ستـقع، وأنه إذا لم يكن هو الهدف الأول، فسيكون الثانى حتماً.

وقال رباح أبو شلة:

– لو ســمع بدر الدين أتمـاز بأننى من ســمّى الرأس الأكـبـر بشلّيطا لألحقنى بالعقيد محمد ناصر. أنا لم أسمّ أحداً، لا باسم شلّيطا ولا بغيره. ومن قال إننى سأتزوج فى هذه الأيام؟ البلاد على كف عفريت ورباح أبوشلة مشغول بعرسه وعروسه! لا. لا يا جمانة. لا يا أستاذ غزال. لا يا أم رباح. هذا موسم الصحفى الشمام. جريدة ألف ياء تنادى وأنا المجيب: السيارة القاتلة لبنانية، وليست سوداء، بل كحلية. من استـأجر السيارة ضابط من الاستخبارات، ضابط من الشعبة الثانية، كتب اسمه العقيد ناصر قبل أن يسلم الروح إلى بارئها. ألف ياء تسأل والصحفى الشمام يحمل روحه على كفه ويجيب: المقدم بدر الدين أتماز. فى المشفى الفرنسى وعلى سرير الموت كتب العقيد المرحوم أسماء من أطلقوا عليه الرصاص. أنا لا يهمنى منهم إلا بدر الدين أتماز. وزير الدفاع قرأ الأسماء، مدير العدلية، الدكتور شارل الذى زرق المرحوم بالمورفين ليخفف عنه الألم، كلهم كانوا حول السرير وقرأوا. أين هى تلك الورقة؟

وقال الشرطى محيى الجربوع:

– رأيت سـيارة عـسكرية تطارد سـيارة فى شـارع بيروت فـانطلقت خلفهما. سمعت صوت الرصاص فأسرعت. توقفت السيارة المدنية. تابعت السيارة العسكرية. لحقت بها إلى مفرق كيوان، ولكن المقدم الذى رأيته هناك غير هذا المقدم الذى تقولون إنه هو بدر الدين أتماز!

وقال موفق الجراح:
- كنت وزوجتي جاندارك في طريقنا إلى المزة. انتبهت إلى سيارة قادمة من الخلف بسرعة خارقة. انحرفت من وسط الطريق إلى أقصى اليمين وتمهلت حتى أتخلص من السيارة المجنونة. عندما صارت بموازاتي تمهلت وأطلق من فيها الرصاص. كانت المرحومة من جهتهم فاخترقتها رصاصاتهم في رأسها وعنقها وكتفها كما اخترقت باب سيارتنا. لم يتوقف القتلة. انطلقت سيارتهم بسرعة خارقة وكانت جاندارك التي حمتني بجسدها تئن. حضنتها وغرقتني بدمها وناديت أهل المروءة والناموس وظللت أنادي حتى وصلت الدورية، ولكن بعد ماذا يا حسرتي؟

وقال غزال حاج تميم:
- أنا أعرف العقيد محمد ناصر جيداً. تعرفت عليه في باريس. ولكن صداقتنا توثقت بعد عودتي. من بعد الانقلاب الأول سمعته مراراً يدعو إلى أن يعود الجيش إلى الثكنات، ويتوقف عن التدخل في الوزارة والبرلمان والحكم والأحزاب. في كل مناسبة كان يدعوني. مرة اصطحبني معه إلى حلب في طائرة فيرتشايلد. في حمص زرته مرتين عندما كان مدير الكلية الحربية. وبعد ما صار آمر سلاح الطيران حضرت معه حفلة تخرج دورة، ورأيت طيارة تلعب مثل البهلوان. رأيتها تقترب من الأرض وسمعت المرحوم يدعو: الله يستر، وفجأة اصطدمت الطيارة بالأرض واشتعلت.

لماذا اغتالوه؟ عمره ما طمع بالسلطة ولا نافس عليها. لماذا اغتالوه؟

لم تر نديدا سنان في مثل هذا الحزن منذ وقفا تحت العريشة ونشج: هذا المجنون حزّ رقبتي.

في ذلك المساء، قبل سنة، كان دم أنطون سعادة طرياً، وكان المجنون هو حسني الزعيم. الدم الطري الآن هو دم العقيد محمد ناصر - الشهيد، المرحوم، المغدور: تعددت ألقابه - فمن هو المجنون؟

كانت نديدا تتساءل في سرها وتسأل في علنها. ولم يكن رباح وحده من يهمس أو يصرخ: المجنون هو الرأس الأكبر للبلاد، المجنون هو شلّيطا. وكان اسم شلّيطا قد شاع، وكان رباح سعيداً بذلك سعادته بنسيان من ابتدع الاسم. لكن نديدا لم تنس. ولأنها شهدت وقع النبأ على سنان، ما كان أمامها إلا أن تنادي الصحفي الشمام.

قال رباح:

– أنا شاركت في الجنازة. جنازة مهيبة تليق بصاحبها، لكن المسافة بعيدة والسفرة مرهقة من هنا إلى جبلة، ثم من جبلة إلى عين شقاق قرية الشهيد. أثناء الدفن وقفت إلى جانب سنان، وأستطيع أن أقول إن رفقاء سنان كانوا كثراً. ولما أشرت إلى ذلك أكده سنان وقال: سيحاول حزبنا أن يكون تأبين الشهيد لائقاً بمكانته.

قالت نديدا:

– لكن الشهيد لم يكن عضواً في الحزب السوري القومي.

– هذا ما قلته لسنان فقال: نحن نكرم العقيد محمد ناصر، ليس فقط كضابط كبير أو كآمر لسلاح الطيران، بل كوطني، كنزيه ونبيل. وقال أيضاً: نحن نخاف من أن يثير بعضهم النزعة الطائفية. الشهيد من الطائفة العلوية، ويمكن أن يدعو متعصب أو مجنون للثأر. علينا أن نكون حاضرين ومتيقظين.

– هل يعقل أن يلجأ سوري واحد إلى ذلك؟

– من اغتال العقيد محمد ناصر يمكن أن يفعلها ويفعل ما هو أسوأ. أم تظنين أن المجرم ليس سورياً؟

– لا، ليس سورياً، وإن يكن أبوه سورياً وأمه سورية.

كان ذلك هو اللقاء الأول لنديدا ورباح منذ زارها معلناً عزمه على الزواج. وحين تبلّغ دعوتها هذا الصباح، فكر في أنها ستسأل عن عودة

رمزى إليها، أى عن زواج رباح أبو شلة من صاحبة العفة جمانة حاج تميم. وأعدّ نفسه ليعلن تأجيل زواجه بسبب ما هى عليه البلاد. ووسوست نفسه: إذا لمحت ظلاً - ولو باهتاً - لفرحة نديدا بالتأجيل، فعليك أن تفكر بإلغاء هذا الزواج، حتى لو ظل أملك بنديدا مثل أمل إبليس فى الجنة.

لكن نديدا انتظرت حتى اللقاء الثانى الذى لم تَدْعُ إليه، بل فاجأها به رباح - وكان موعد رمزى مع أمه فى الغداة - فسألت:

- هل سيعود معك رمزي؟

- إلا إذا كنت تريدين أن يبقى معك.

- أنت من أراد. نسيت؟

تبلبل رباح، وحرن لسانه عن ذكر الزواج، ثم حرن عن النطق حتى سألت نديدا عما إذا كان لدى الصحفى الشمام جديد يتصل باغتيال العقيد محمد ناصر. عندئذٍ تذكر ما قدم من أجله بلا موعد، وقال:

- البارحة نام بدر الدين أتماز فى سجن المزة.

- بأية صفة؟

- سجين، متهم باغتيال العقيد محمد ناصر.

- كانت الأخبار تذكر اثنين غيره فى الأيام الماضية. لم يذكره أحد بين المتهمين.

- ما عداى. اسألى سنان. أنا ذكرته من اليوم الأول. آه لو رضى رئيس التحرير بأن أنشر اسم بدر الدين أتماز بين المتهمين، بل على رأسهم، بل كمتهم وحيد. ضيّع الفرصة عليّ وعلى الجريدة.

- هذا الكلام خطير يا رباح. المتهم بريء حتى تثبت إدانته.

- اقرئى إذن هذا الذى كتبته اليوم فى ألف ياء. أظن أنك مازلت تقاطعينها، لذلك أحضرت لك هذه النسخة.

قال وهو يخرج الجريدة من حقيبته. وقرأت حيث أشار:

بدعة الذلِ حين لا يذكر الإنسان فى الشام أنه إنسانُ
بدعة الذل أن يُصاغ من الفرد إلهُ مهيمنٌ ديّانُ
يا لها دولةٌ تُعاقَب فيها
كالجناة، العقولُ والأذهانُ

وسألت:

– ما هذه البداية؟

– أبيات من قصيدة بدوى الجبل الأخيرة فى رثاء ابراهيم هنانو.

– لكنها تؤشر إلى الرأس الأكبر، كأنها تعنى شلّيطا.

– ربما كان الشاعر يعنيه، أما أنا فأعنى بدر الدين أتماز. لو تابعت القراءة فسترين ذلك بوضوح.

– كأنك اخترت الهدف الأسهل. لو كنت شجاعاً حقاً لكتبت هذا عندما كان بدر الدين فى عزه. لو كنت أكبر شجاعة لذكرت شلّيطا، بل وباسمه الحقيقي.

– تريدين أن تلحقينى بالمقدم بدر الدين أتماز أم بالعقيد محمد ناصر؟

قال وهو يقف ملسوعاً، وتكلّفَ الابتسامة وهو يسرع بالخروج.

أسرّت نديدا لميريل أن لديها حجراً تحسبه فريداً، ولا اسم له، فأشارت ميريل عليها بزيارة الصائغ هايك توكانجيان: أشطر من فى الشام، ليس بالذهب والألماس والفضة فقط، بل بالياقوت والمرجان والزبرجد وكل ما يخطر ببالك من الأحجار الكريمة.

بصحبة ميريل حملت نديدا الحجر الذى أدهش هايك كما أدهش ميريل، ولم يعرف له اسماً كما لم تعرف ميريل، ولا ماما افتخار ولا الدكتور عبدالواسع قبلهما. لكن هايك اقترح على نديدا أن تسميه حجر السر، أو الحجر السري، ريثما يُعرف له اسم. وهللت ميريل للاقتراح، بينما ظلت نديدا صامتة، فأضافت ميريل: سمّه الحجر المجهول، ولم تخرج نديدا عن

صمتها إلا عندما اقترح هايك أن يثقب الحجر ليكون له أن يزين عنقها وصدرها. عندئذٍ بدت كأنها تؤوب من غياب، وأمرت هايك أن يبدأ فوراً، بينما راحت أصابعها تحرر عنقها من العقد الذى أذهل هايك، فاستأذنها بتأمله، وسرعان ما تمتم:

– عقدك هذا حلو كتير يا خانم. حلو وثقيل، بسّ حجر السر أحلى وأثقل. الخانم لازم تصير زبونة المحل.

من الصائغ تابعت وميريل السير إلى مكتب الأستاذ منذر كتو. وطوال الطريق كانت ميريل تتباطأ ونديدا تباريها فى البطء، فالوقت مازال مبكراً على الاجتماع الذى سينعقد فى مكتب الأستاذ منذر، وميريل ما عادت قادرة على أن تطوى فى سرها ما تطوي، لذلك أعلنت بالعربى الفصيح وبالبنط العريض – كما قالت – أنها تحب الأستاذ منذر، وهو يحبها، منذ كانا يتدربان فى مكتب الدكتور عبد الحنان مراد، فقالت نديدا:

– كنت أعرف أنكما عاشقان.

– من قال لك؟ لا أحد يعرف.

– عيناه وعيناك قالت لى ولكل الناس.

– أخيراً أخبرت أهلى فجن جنونهم: مسلم يا متعلمة يامربّاية يا...

– يمكنك أن تبقى مسيحية. ألا يكفيهم هذا؟

– أهله لن يقبلوا حتى أصير مسلمة.

– هذه مشكلته هو. عليه أن يحلّها.

– يريدون أن يعلموه ويعلمونى أنه لا يستطيع لا هو ولا الأولاد أن يرثوا منى. قال لهم: ميريل فقيرة، لا تملك ما تورثه، فزاد غضبهم. أمه قالت: بكرة يصير عندها ما تورثه. قال لهم: الأعمار بيد الله، قد أموت قبلها. اطمئنوا لن ترث مني. قال لهم. اطمئنوا ستكتب وصية للأولاد إذا أنعم الله عليها.

أهله فقهاء بالقانون والشرع، كأن منذر ليس محامياً، ولا أنا. قالوا: لا تستطيع أن توصي إلا بالثلث.

– اتركيه هو يحسم أمره مع أهله وأنت احسمي أمرك مع أهلك.

– من شهر ونحن في هذه الدوامة. الطائفية سممته وسممتني.

– المهم ألاّ تسممنا جميعاً بعد اغتيال العقيد محمد ناصر.

– منذر على يقين من أن هناك من ينفخ في هذه النار. أقله ما يقال من أنهم تخلصوا من أكبر ضابط علوي. من هم يا ترى؟

طرق السؤال باب مكتب الأستاذ منذر، وظل يطرقه حتى امتلأ المكتب بهم وبهن، وما بقيت شائعة إلا وتبادلوها، أو خبر في جريدة إلا وتعاوروه، ليختموا بما بدأوا به: التكتم في التحقيق على أشده، وهذا وحده يثير الشبهات.

كان الدكتور عبد الحنان مراد آخر من حضر، متشامخاً بطربوشه الذي أقسم منذ شبابه على ألاّ يتخلى عنه، حتى لو تخلى عنه كل من في الشام. وكانت ميريل أكبر ترحيباً به من منذر، ومنذر أكبر ترحيباً به منها، قبل أن تفتتح الأستاذة ملك كبارة اللقاء:

– أستاذنا الدكتور عبد الحنان والأخوة الذين يحضرون مـ لأول مرة: نحن البقية تعودنا أن نجتمع أحياناً مرة في الشهر وأحياناً في ـهرين، لنتبادل الرأي في مسألة قانونية ما. للأسف قلّتْ اجتماعاتنا بعدما كثرت الانقلابات في بلادنا. وآخر مسألة شغلتنا كانت إعداد الدراسة القانونية لقيام محكمة تحاكم الوزراء ومن في مقامهم. الآن نحن بصدد موضوع آخر عنوانه حالة الطوارئ والأحكام العرفية والإدارة العرفية. هنا عليّ أن أذكر أن الموضوع كان يشغل الأستاذ منذر من أيام الحرب، أقصد قبل نكبة فلسطين، قبل سنتين وأكثر. وأظن بعض الحاضرين يذكرون ذلك، غير ميريل وغيري. وبعد الانقلاب الأول عاد الأستاذ منذر للموضوع نفسه، ولكن الخوف كان أكبر.

قال الدكتور عبد الحنان ممازحاً:

– يعنى الخوف الآن صار أصغر؟

فتعالت همهمات وضحكات مبتورة، وتابعت ملك:

– المهم أننا نجتمع الآن حتى نبحث فى هذا الموضوع. والكلام للأستاذ منذر.

توجه منذر إلى الدكتور عبد الحنان، وتبسّم قائلاً:

– عندما أعلنت الحكومة الأحكام العرفية بحجة الحرب فى فلسطين، ماذا كان أول أمر أصدره رئيس الوزراء بصفته الحاكم العسكري؟

قال الدكتور عبد الحنان ممازحاً:

– ذكّرني. نسيت. العتب على الكبر.

قالت ميريل:

– كان الأمر بمنع سفر أحد إلى الخارج قبل أن يطلع رئيس الوزراء بنفسه على جواز سفر المسافر وهويته ويعرف سبب السفر.

توجه الدكتور عبد الحنان نحو الآخرين وقال متظاهراً بالجد البالغ:

– الزمن كان زمن حرب، ورئيس الوزراء مسكين ماله شغل إلا أن يضبط السفر إلى الخارج!

صخبت الغرفة بالضحك والهمهمة، وانتظر منذر حتى غلب الصمت، فأشهر رزمتين من الأوراق قائلاً:

– هذا هو القانون الذى أقره مجلس النواب ونشره رئيس الجمهورية فى يوم الإعلان عن قيام اسرائيل. القانون الذى يتضمن تنظيم الأحكام العرفية. وهذا هو المرسوم التشريعى الذى أصدره حسنى الزعيم، والمتضمن تنظيم الإدارة العرفية. أنا أظن أنه من الضرورى جداً ومن المفيد جداً أن ندرس هذا المرسوم وذلك القانون، حتى ننقيهما من كل ما قد يجنح بالسلطة التنفيذية نحو الديكتاتورية.

قال الدكتور عبد الحنان:

- أنا أؤيد الأخ منذر. السلطة التنفيذية شهيتها دائماً مفتوحة لكل ما يشدد قبضتها على الحكم، على رقاب العباد ومقدرات البلاد.

قالت ملك:

- رأينا من هذا ما يكفي خلال السنة الماضية، بعد الانقلاب الأول.

قال المحامي مهران راقط، وكان أول من حضر:

- القوانين العرفية وحالة الطوارئ وما أدراك مؤقتة، استثنائية. تنقيتها مفيدة ولكن الأهم لمثل هذا الاجتماع أن ندرس القوانين الدائمة.

قالت نديدا:

- أرجو من الله ألا يتحول ما هو مؤقت إلى دائم، وألاّ يصبح الاستثناء هو القاعدة.

قال المحامي سماح شوقي بك، وكان أصغر الحاضرين:

- خصوصاً إذا استمر مسلسل الانقلابات.

قالت ملك:

- قل خصوصاً أن شهية الضباط مفتوحة على الحكم، حتى لو لم يستمر مسلسل الانقلابات.

قال الدكتور عبد الحنان:

- للأسف غالباً ما كان القانون غائباً أو معطلاً أو أعرج، منذ أيام العثمانيين إلى أيام فرنسا. وللأسف لا يزال كذلك في الحاضر. أما التعطيل أو التغييب أو التعريج فكان ولا يزال يتم تحت عنوان المجلس العدلي، أو المجلس العرفي، أو الحرب، أو المصلحة العامة، أو العصيان، أو معارضة الدولة، إلى آخره. أنا أتوقع أن تجرى محاكمة المتهمين باغتيال العقيد محمد ناصر حسب الأحكام العرفية، وفي محكمة خاصة أو استثنائية. لذلك علينا أن ننقي كل ما يتعلق بالإدارة العرفية، كل ما يتعلق بحالة الطوارئ. إذا لم

يكن من أجل الحاضر فمن أجل المستقبل. إذا لم يكن من أجلنا نحن فمن أجل أبنائنا وأحفادنا، من أجل الأجيال القادمة.

هللت أصوات مستحسنة، وتهامست أصوات، وانتظر منذر حتى غلب الصمت، فلوح برزمتي الورق قائلاً:

- هل ترون أن أقرأ عليكم القانون والمرسوم مادة مادة، ونجمع التعليقات أو الاقتراحات بالتعديل والتطوير أو الحذف؟ أم ترون الأفضل أن ننسخ على عدد الحاضرين، وكل منكم يدرس نسخته على مهل، ثم نجمع فى الاجتماع القادم ما تكونون قد سجلتم، ونغربله فى صيغة نهائية؟

تعالى اللغط حتى علا عليه صوت الدكتور عبد الحنان مقترحاً التصويت.

ولما فاز الاقتراح بتوزيع نسخ على الحاضرين وقف مهران راقط قائلاً:

- لم يقل أحد ماذا سنفعل بهذه الدراسات حين تصبح جاهزة؟

قالت ميريل:

- يمكن أن نقدمها لنقابة المحامين، لوزير العدل.

قال سماح شوقى بك:

- قولى لرئيس الوزراء، لرئيس الدولة، لِمَ لا؟ لماذا لا نعرضها على الصحافة؟ على الأحزاب والرأى العام؟

- أخشى أن يحاسبوكم على هذا النشاط أمام محكمة استثنائية، وطبقاً للقوانين الاستثنائية التى ستعالجونها.

قال الدكتور عبد الحنان وهو يقف مبتسماً، وبدا طربوشه كأنه يبتسم للجميع ويلوح مودعاً، ووقف الجميع، وتعالى اللغط مجدداً.

ما كاد سنان يألف قيادته للفوج على الجبهة حتى أخذت صحة والده تقلقه. كان الأمر فى البداية زكاماً عادياً مما يباغت الصيف به بعضهم. لكن الزكام تواصل واشتد حتى أعيا الأطباء.

عبر ذلك كثيراً ما ضاق البيت بالعواد: أصدقاء وجيران وزبن ومنافسون، تجار كبار وصغار، جملة ومفرق، شيوخ ووجهاء ونواب، ضباط من أقران سنان وحزبيون من رفقائه. الدكتور عبد الواسع والست افتخار لم تسمح لهما عودة الإعياء بعد تحسن طفيف، بزيارة المريض، بينما تواترت مرافقة نديدا لابتهال إلى بيت حميها، كما تكررت مصادفاتها لغزال حاج تميم وشقيقته جمانة، ولرباح وشقيقه مطيع.

بحضور سنان، كان والده يأمر بأن يجتمع حوله من يكون حاضراً من الأقربين، نساء ورجالاً. وكان ذلك يصادف غالباً بعيد المغيب، وقبل العشاء. ولم يكن أحد يأبه بتحذير من العدوى، حتى لو كان من يحذر طبيباً. وربما كانت نديدا أكثرهم استمتاعاً بما يتدفق به والد سنان من حكايات عمره، وبخاصة ما اتصل منها بطفولة سنان أو مغامراته هو وغزال فى التجارة والصناعة والزراعة. ولم يكن فضول نديدا ليرتوى من جمانة: تتدبر أن يتجاور مجلسهما كلما تصادف حضورهما، تتقرى سمرتها الشفيفة، وزغب سالفها، وحيرة ما يظهر من شعرها بين لون الكستناء ولون الخرنوب، تسألها عما تقرأ، عما تسمع من الراديو، عن السينما، ويغبطها أن ليس لجمانة من ذلك ما يشكل جواباً. غير أن كل ذلك ما كان ليبرد غلة نديدا، ما دامت غير قادرة على أن تسأل جمانة عن عرس ولا عن عريس.

كانت جمانة حيية ومتحفظة دوماً، على العكس من غزال الذى سرعان ما بدا يهتبل أية فرصة ليخص نديدا بسؤال. ولم يفت نديدا ذلك منذ البداية، لكنها كانت أحياناً ترتبك بما تحسبه استفزازاً، وكانت أحياناً تلوى السؤال ليناسب ما عزمت على قوله، أو ترمى عامدة بجواب ملتبس يبطل السؤال أو يزيد حرقته. ويبدو أن والد سنان وحده لم تفته اللعبة، فكان يشارك فيها، مناصراً نديدا مرة، وغزال مرة.

ربما كانت البداية حين تطوح سؤال غزال بين المجاملة والاستفزاز:

- هل تناسب المحاماة المرأة فى بلادنا؟

تمهلت نديدا، وطال تمهلها، حتى بدا كأنها لم تسمع السؤال، أو لن تجيب، ثم سألت وهى تنقل نظراتها بين غزال ورباح ومطيع:

- هل تناسبها فى فرنسا؟

قال غزال باستخفاف:

- عندما كنت هناك لم أفكر فى السؤال ولا فى الجواب. ماذا قلتِ؟

قالت بصوت تلبّس بالجفاء:

- قلت: فى المحاماة ما يناسب المرأة فى كل مكان.

قال باستخفاف أكبر:

- مثل ماذا؟

قالت وهى تحدق فى سنان كأنها تشهده على صدقها:

- مثل الدفاع عن الحق.

- هذا يناسب الرجل.

قال غزال مناكداً، فحدقت نديدا فيه وقالت بصوت خفيض:

- كما يناسبه الدفاع عن الباطل.

- والمرأة؟

سأل وهو ينقل نظره بين الرجال كأنه يحرضهم ضدها.

- إذا دافعتْ عن الباطل فلأنها تضطر إلى أن تسترجل، أى تتخلى عن أنوثتها.

قالت وهى تتلفت كأنها ملت السجال. ورمى والد سنان بمفاجأته، إذ أيد نديدا بصوت عال أعقبه سعال أعلى، وضحك الجميع إلا غزال.

فى مساء آخر تناءى عن ذلك المساء، وغابت جمانة عنه، سأل غزال عما إذا كانت نديدا تفكر بأن تتابع دراسة الحقوق فى المستقبل لتحمل الدكتوراة، فعقب مطيع:

– بعدما شاب أخدوه ع الكتاب.

وضحك، وبتر ضحكته عندما اكتشف أن أحداً لم يشاركه بها. وقال غزال بصوت اشتبه بالسخرية وبالمغازلة معاً:

– ما شاء الله! من يرك يصعب عليه أن يصدق أنك محامية، بل لن يصدق أنك تخرجت فى الجامعة.

فرمته ومطيع بنظرة لائمة، ثم أشاحت عنهما لتخاطب والد سنان:

– لا أحد يكبر على التعلم. لم أفكر من قبل فى متابعة الدراسة. فكرة جيدة. قد أفعل في يوم من الأيام.

قال غزال مومئاً إلى مطيع:

– لا تؤاخذيه. مزاحه أحياناً غليظ. لو حملت الدكتوراة ستكونين أول امرأة سورية تفعل.

قال مطيع مسترضياً:

– ستكونين أول امرأة عربية تفعل. ستكونين أول امرأة فى الشرق.

– بماذا يعنيك الأمر أنت وهو؟

سألتْ بتعال، بينما داهمت والد سنان نوبة حادة من السعال، فظل السؤال معلّقاً حتى نُسي، إذ تغيبت نديدا أياماً، فلما ظهرت تحاشاها غزال وتحاشته، لكأنهما فى خصام. وللمرة الأولى تشككت فى أن رباح يترصدها ويترصد غزال، وبخاصة بعدما لحقت جمانة بابتهال فى الداخل مع من اجتمع هناك من شقيقتى سنان الكبرى والصغرى وحماتيهما وبناتهما. وكان والد سنان يسأل ابنه عما يشاع من أن الحكومة سوف تجند النساء فى الجيش عما قريب، فقال سنان:

– لا علم لي. أنا بعيد عما تخطط القيادة. أنا على الجبهة كما تعلم.

قال غزال:

– اليوم سمعت امرأة فى الإذاعة، لم يذكروا اسمها، تحضّ النساء على التطوع فى الجيش من أجل تحرير فلسطين، وبعدها أنشدت نهوند:

يا روابى القدس نادى

وانشدى لحن الجهاد

قالت نديدا:

– أنا أيضاً سمعت مثل ذلك من أيام، ولكن كان من يحض رجلاً، وبعده أنشدت سلوى مدحة: كم لنا من ميسلون نفضت. هذه الأغنية ساحرة. نشيد ساحر.

قال أبو سنان بأناة وتلذذ مكملاً ما بدأته نديدا:

– عن جناحيها غبار التعب.

قال رباح وهو ينظر إلى نديدا:

– الله يرحمك يا طارق مدحة، أبو سلوى، استشهد وهو يدافع عن البرلمان.

قال غزال:

– طارق مدحة أفضل من سمعته يعزف على الكلارينيت فى الشام.

وفجأة تطاير الحديث بين غزال وسنان عن السنّ الذى يفترض أن تُجنّد فيه المرأة، وعن تجنيد العازبة أو المتزوجة أو الأم أو الأرملة. وأضاف غزال وهو ينظر إلى نديدا:

– والمطلَّقة أيضاً. ما رأيك؟

فسألت بانزعاج:

– بماذا؟

– بتجنيد المطلَّقة.

قال محاذراً، فالتفتت عنه إلى رباح، واصطنعت ابتسامةً قائلة:

– لو سألتنى عن تجنيد المطلِّقة ربما أجبتك. اسأل رباح.

بوغت رباح وتمتم بضيق:

- عن ماذا؟

- عن تجنيد المطلِّق وعن تجنيد المطلَّق.

قالت وهى تقف وتحدق فى غزال متنمرة، كأنها مقبلة على نزال. وكانت أصوات ابتهال والبنتين تقترب مطالبة بالانصراف، لكن الجميع لبثوا ينظرون إلى نديدا وغزال مترقبين.

لم يبكر رباح بزيارة نديدا من قبل مثله الآن.

كانت قد انهمكت فور وصولها بالمراجعة الأخيرة لدراستها قوانين الإدارة العرفية والطوارئ والأحكام العرفية فى سوريا، مستأنسة بنظيرها فى مصر، ومستهدية بنظيرها الفرنسي. وما كاد رباح يجلس حتى بادرته وهى تشير إلى كومة الأوراق:

- جئت فى وقتك. كنت سأتصل بك. أظنك تعرف ما تعده مجموعة من المحامين والمحاميات حول قوانين الطوارئ، القوانين العرفية والمحاكم الاستثنائية. هذه نسختى من كل ذلك ومعها دراستى لها، ملاحظات، اقتراحات. خذها وادرسها بعناية.

- نسيت أننى صحفي؟ اعطها لقاضٍ، لمحام، لواحد من أساتذتك فى الجامعة، ينفعك، أما أنا!

- أنت مواطن أولاً، وللمواطن رأيه فى هذه القوانين. وأنت الصحفى الشمام، لا يفوتك أمر. أنا واثقة بأن غيرى سيعطيك مثل هذه الأوراق. نحن متفقون على أن نشرك معنا فى دراساتنا الصحافة والرأى العام. والآن قل لي: ما الذى جاء بك فى مثل هذا الوقت؟

تريث رباح ريثما تنهد وبلع ريقه ودعك أصابعه، ثم قال:

- أنت وغزال.

- ما بنا؟

- ما هذا الذى يجرى بينكما؟

- هو يستفزنى وأنا أرد. ولو استمر فسيرى منى العين الحمراء.

- هل هو الغزل المغلف بالنقار؟

- افرض أنه كذلك، لماذا تسألني؟ بأى حق تسألني؟ عندما كنا زوجين ما ظهرت منك مثل هذه الغيرة. وبالمناسبة: جمانة لطيفة ومناسبة لك جداً. ما زلت تؤجل العرس؟

- ما عدت قادراً على التأجيل. صار المطلوب إما العرس وإما مع السلامة. ولكن دعينا فى الأهم.

- وما هو؟

- أنت وغزال.

- إذا كنت مصراً فمن الأفضل أن أودعك بأمان الله.

قالت باستياء وهى تتأهب للوقوف، فتجاهل ما أتت وقال:

- ليس قبل أن تعرفى أن غزال يفكر جدياً فى الزواج منك. أنا الصحفى الشمام يا نديدا.

- هذه المرة لن يتكتم الصحفى على مصدره. هل هو غزال نفسه؟

- غزال وأخى مطيع ووالد سنان. أظن سنان أيضاً صار يعرف.

- الكل يعرف ما عداي!

- عند والد سنان كانت البداية. منذ سنوات وهو يحض غزال على الزواج. هذه المرة لم يحضه فقط. هذه المرة اشتغل خاطبة، وهذه هى العروس كاملة مكمّلة.

- لكنها مطلقة.

- وغزال على أبواب الخمسين.

- تقصد تعادلنا؟ لماذا لم يتزوج حتى الآن؟

– لأن نهاره مليء دوماً بالعمل وليله مليء دوماً بالغناء والموسيقى. لا تنسي الكأس أيضاً. مطيع يقول إنه يقرأ يومياً.

– وإن شاء الله وافق غزال على عرض الخاطبة؟

– أنت جادة أم تمزحين؟

– في الحالتين صار يهمني أن أعرف من هو غزال حاج تميم.

– الخبر اليقين عند أخي مطيع. سنان أيضاً يعرف الكثير.

– والصحفي الشمام ماذا يقول؟

– اشتهر غزال بأنه نواقة الموسيقى والغناء. حتى في أول شبابه، هنا في الشام ثم في باريس، وبعدها في الشام وفي بيروت. جمال ومال وليلة في ملهى العباسية، ليلة في ملهى القطة السوداء... وفي هذا الملهى أو غيره أنَس غزال لشاب يصغي عميقاً وتنطق ملامحه بالتأثر، فبادره بالسلام. أقصد أخي مطيع. تعرفين أنه قضى ثلاث سنوات في الجامعة دون أن يغادر السنة الأولى من قسم اللغة العربية.

– وأعرف أنك دبرت له العمل مصححاً في ألف ياء، ثم تركها وصار ينتقل من جريدة إلى جريدة.

– حتى جمعه الله بغزال. في أقل من سنة صار مطيع عينَ غزال التي لا تغمض وذراعه التي لا تهدأ، في المكاتب، في معمل الكونسرة، في مستودعات شركة الاستيراد، وبعيداً في حقول القمح والبساتين وغيرها من مملكة غزال ووالد سنان.

– وكله بفضل الغناء والموسيقى.

– هذا صحيح. مطيع أبو شلة صار يحضر حفلات معهد أصدقاء الفنون لهواة الموسيقى الكلاسيكية. يريد أن يقنعني أنه صار يتذوق هذه الموسيقى. هو يتشبه بغزال في هذا وفي غيره. كرمى له كتبت مرة ريبورتاجاً عن الفرقة السيمفونية الصغيرة التي شكلها جاك دورلي وضم إليها عازفين من فرقتي الجيش والدرك.

- هل هو سورى؟

- جاك ألماني، ومعه تشيشيل على البيانو وألبرت فيتززنر على الكمان. هما أيضاً ألمانيان. ثلاثتهم لجأوا إلى سوريا بعد الحرب. ويبدو أن الريبورتاج الذى كتبته رفع من مكانة مطيع عند الفرقة وعند غزال الذى كافأنى بالدعوة إلى سهرة فى بيته.

- لا تقل: كانت سهرة على الموسيقى الكلاسيكية.

- كانت سهرة على القانون. عزف رجب خلقى حتى أنسانا الطعام والشراب. كان مطيع يقول اليوم سهرنا مع عمر النقشبندى على العود، اليوم مع بارسيخ بارسخيان على الجيتار، اليوم غنت لنا دلال صالح، واليوم غنى لنا مصطفى هلال، وكله أين؟ فى بيت غزال حاج تميم. سألته: حوّل غزال بيته إلى ملهى أم مسرح؟ بعد سهرة القانون رجوت غزال ألا ينسانى فى أية سهرة مماثلة. لكنه بدلاً من ذلك دعانى إلى حفلة لفرقة جاك نورلى فى الأوريانت بالاس، وليتك تعرفين ماذا قدمت؟

- أنا جاهلة بالموسيقى الشرقية فكيف بغيرها!

- قدمت مقطوعة لبيتهوفن نسيت اسمها، ومقطوعة خليفة بغداد لموسيقى نسيت اسمه. وقدمت الفالس الأمبراطورى لشتراوس. وبعد هذه الحفلة دعانى غزال إلى حفلة للعازفة نجلاء عيسى فى الأوريانت بالاس أيضاً، ولكنه لم يحضر. اضطر للسفر إلى بيروت كما قال مطيع. وهذه المرة كتبت عن هذه العازفة لأنها أعجبتني، وليس إكراماً لمطيع أو لغزال.

- إذا صار نصيب بينى وبين غزال فدعوتك مفتوحة لأية سهرة، فى البيت وخارج البيت.

- هذه المرة أنت جادة حتى لو كنت تمزحين. إذا صدق مطيع، فوالد سنان قال لغزال عندما ذكرك له: بنت العشرة لوزة مقشرة، بنت العشرين

نزهة للناظرين، وبنت الثلاثين أم البنات والبنين. قال: نديدا الكهرمان بنت الثلاثين. هل أقول مبروك؟

قالت وهى تناوله الأوراق متجاهلة ما أشار إليه:

– لا تجعلنى أنتظر طويلاً. أريد ملاحظاتك.

ثم وقفت ومدت كفها لتصافحه، فتركها معلقة مثلما ترك عينيه تتعلقان بها.

منذ جاء رباح بنبأ توقيف بدر الدين أتماز فى سجن المزة، راودتها فكرة زيارته. لكنها استنكرت الفكرة، حتى جاء رباح بنبأ غزال حاج تميم. وربما لم يكن ذلك فقط بحثاً عن سر فى اغتيال العقيد محمد ناصر، بل كى تكون أقدر على أن تصوغ جواباً على ما طلب بدر الدين منها فى عشائهما الأول والأخير، أو جواباً على ما قد يطلبه – سيطلبه غزال.

من ستتزوجين؟

أخذ السؤال يلاحقها بلطف، حتى عندما غدا: هل ستتزوجين؟ ودفعها إلى أن تزين لسنان زيارة المتهم – قالت – والمجرم – قال. واشترط لموافقته على الزيارة أن تنخرط فى فريق المحامين الذين سيمثلون ذوى العقيد محمد ناصر، فوافقت بحماسة.

بفضل سنان وصلت إلى المقدم مرقص العميا. وبفضل المقدم مرقص وصلت إلى سجن المزة. ولم تغب عنها طوال الطريق الصاعدة بمشقة فى خاصرة الجبل صورة أمها درة فى لباس السجينة الذى شاهدته مراراً فى نظارة أو فى قفص محكمة. كانت درة تتماثل لنديدا أيضاً خلف قضبان حديدية مرة، وخلف قوائم خشبية مرة، كئيبة أو قذرة أو شعثاء أو مشبوحة من سجن إلى سجن، لا فرق بين أن يكون سجناً للرجال أو سجناً للنساء، ما دام المقدم مرقص العميا هو المدير دوماً. وللمرة الأولى تغص نديدا لأنها رفضت أن ترافق ابتهال فى أية زيارة لأمها.

أمٌ من يا نديدا؟

لكى لا يظفر السؤال بها نادت خطيب حفظي، فحضر، وعندما حاولت أن ترميه فى سجن ملص منها، فاستنجدت ببدر الدين. لكن بدر الدين لم يحضر فى إهاب سجين: هذه ذقنه حليقة، شعره مسرّح ولامع، بذلته العسكرية نظيفة ومكوية، غير أن كتفيها عاريان، بلا نجمة وبلا نسر. ولولا ذلك لحسبته قادماً إلى الغداء معها، على الرغم من أنه بدا مذهولاً بحضورها، ولسانه ليس زرباً كعادته، بل راح يتعثر بالسؤال عن شجاعة هذه المحامية الشابة التى لم تدخل سجن المزة امرأة قبلها، وعمن دبر لها زيارة السجين الذى لا يستطيع الوصول إليه إلا العقيد أديب الشيشكلي!

أهلاً أهلاً يا شلّيطا: هتفت فى سرها، وقالت بشغف:

– حدثنى عنه.

تلفت حوله فى الغرفة التى خصّهما بها مدير السجن: مكتبان خشبيان صغيران، خلف كل منهما كرسى تشقق جلده بوضوح، جدران باهتة وخشنة، ستارة قاتمة ومهترئة لنافذة ضيقة، باب حديدى مفتوح. وقبل أن يتكلم بدر الدين تأكد من أن أحداً لا يتنصت عليه قرب الباب، ثم قرب كرسيه من كرسى نديدا وقال:

– هو سيدى وحبيبي. هو سيد الجميع وحبيب الجميع.

– منذ متى تعرفه؟

سألت وهى تفكر فى أن ابتداء الحديث على هذا النحو سييسّر الحديث عن اغتيال العقيد محمد ناصر وعن توقيف بدر الدين الذى انطلق :

– أحياناً يخيل لى أننى أعرفه منذ سنين بعيدة، على الأقل منذ كنا طلاباً، وإن يكن درس فى المدرسة الزراعية فى السلمية، بينما درست فى تجهيز حلب. صدقيني، أحياناً يخيل لى أننى رافقته فى كل مراحل حياته، وخصوصاً فى الصعب منها وفى الخطير. وعندما تجرأت وصارحته بذلك

ضحك وقال: ما تتخيله يا بدر الدين صحيح، ولكن ليس بما مضى، بل بالآتي.

قالت بحذر:

– هل كان هذا هو شعورك نحو حسنى الزعيم؟

– أمامك وحدك أقول: تقريباً. وبالمناسبة حسنى الزعيم أبعد سيدى وحبيبى عن الجيش.

– كأنه كان يرى فيه منافساً؟ لماذا لا يظهر فى الواجهة حتى اليوم، إذا كان كما يقولون هو صاحب الانقلاب الثالث؟

– الانقلاب الأخير، لا الثالث: قولي. وما الفرق بين أن يظهر أو لا يظهر ما دامت كل الخيوط فى يده؟

– هل هو الزهد؟

– يكفى أنه الطبخ على نار هادئة. رأيتِ ماذا فعل الطبخ على نار حامية بالانقلاب الأول وبالانقلاب الثاني؟

– لكن سيدك وحبيبك لم يحمك من العقوبة بسبب خطيب حفظي.

– لا تسألى عن حكمته. ثم من قال إنها عقوبة؟

– وهذا الذى أنت فيه الآن؟

– قلت لك لا تسألى عن حكمته.

– أنا خائفة عليك.

– وحياتك سأخرج من هنا أقوى مما كنت. لا تخافي.

– أنا خائفة منك.

– إذن أنت تصدقين الأعداء. تصدقين الجرائد.

– ليس هذا. أنت غامض. أنا لا أعرف عنك شيئاً. من سيدافع عنك فى المحكمة؟

– المحامية نديدا الكهرمان.

- إذن قل لي: من اغتال العقيد محمد ناصر؟

- هذا ما على التحقيق أن يكشفه.

- أحياناً يعجز التحقيق وتظل الحقيقة ضائعة. يقال : العقيد محمد ناصر كتب أسماء القتلة، وأولهم أنت.

- يقال. أين هى الورقة التى كتب عليها؟ ثم هل كانت حالته العقلية سليمة وهو على سرير الموت؟ أنت من سيبطل أسئلة الادعاء لا أنا.

- هل كان العقيد محمد ناصر ينافس العقيد...

وبترت السؤال كيلا تقول شلّيطا بدلاً من أديب الشيشكلي، فأسرع بدر الدين:

- لا أحد يستطيع منافسته.

- لماذا؟

- كأنك لا تعيشين فى سوريا. سيادته وعد بأن يجعل سوريا بروسيا العرب، وسترين.

- وحسنى الزعيم وعد بأن يجعل سوريا سويسرا الشرق، ولم نر.

- إياك أن تقارني. لا تقارنى سيادته بأحد. لا تخطئى مثل هذا الخطأ مرة ثانية. هل أعدد لك ما أنجز فى هذا الزمن القصير؟ أنت محامية. لن أعدد إلا القليل مما يخصك. ما قولك بقانون الإصلاح العقارى وتنظيم العلاقة بين المستأجر والمالك؟ لولا أنْ وزع سيادته من أملاك الدولة على الفلاحين الذين لا يملكون شبراً، ماذا كان حل بهم؟ سيادته وعد بإنارة الريف وسيفى بالوعد. سيادته...

- لن نقضى الزيارة بمثل هذا الحديث.

- أنت السبب. جعلتنى أنسى أن أقول: مشتاق. مشتاق لك يا نديدا.

- وأنا لا أستطيع أن أقبل هذا الشوق، ولا أن أقول لك مشتاقة، حتى أطمئن إلى أنه لا يد لك فى اغتيال العقيد محمد ناصر.

- كيف يمكن أن أطمئنك؟ دليني.
- لو طلب منك سيادته أن تقتل العقيد محمد ناصر أو سواه، فهل تنفذ؟
- لو طلب مني روحي لما بخلت عليه بها.
- وهو طلب منك...
- نديدا.
همس مقاطعاً وغاضباً ووقف آمراً:
- ابتعدي عن هذه القضية. لا أريدك حتى أن تدافعي عني، ولا تزوريني مرة ثانية. لنا لقاء بعد خروجي. لو أعرف من سممك بهذه الأفكار. أقسم بالله سأشنقه من خصيتيه كائناً من كان.
وما كاد يطبق شفتيه حتى اندفعت نديدا خارج الغرفة، تنشد النجاة في كل خطوة. ولم تلتفت خلفاً إلا حين بلغت السيارة التي أرسلها بها المقدم مرقص، وفوجئت بأن لا أثر لبدر الدين!
طوال الطريق من المزة إلى المهاجرين، أي من السجن إلى البيت، كانت أصابع نديدا تتهجى عقدها، أي حجره اليتيم الذي مازال بلا اسم، لكأنها كانت تنشد منه عوناً:
شلّيطا أمر باغتيال العقيد محمد ناصر وبدر الدين نفّذ. بدر الدين خطط وأمر عسكرياً أو أكثر بالتنفيذ.
على التحقيق وعلى نديدا شخصياً الكشف عن هذا العسكري أو هؤلاء العساكر.
ستقول لسنان: شكّي ببدر الدين يكبر كل ساعة. ستقول للمقدم مرقص: شكي ببدر الدين صار يقيناً. لا فرق بين أن يكون العبدَ المأمور أو الآمرَ للعبد المأمور؟ لكن إياك أن تذكري شلّيطا بسوء أمام أحد. وسنان؟ ما عدا سنان. لا تنسى أن تحذري سنان كما حذره العقيد محمد ناصر. اسأليه:

برأس من سيطيح الاغتيال القادم؟ اسألى المقدم مرقص نفسه، ولكن بصيغة أخرى: هل تتوقع أن يقع اغتيال آخر؟

عندما أخذت السيارة تهرّ جراء الصعود فى المهاجرين، أحست نديدا أن حجر العقد هو الذى راح ينشد منها عوناً:

اسم،

اسمي،

سمّيني،

فتمنت لو كانا وحيدين، لكانت حررته من عنقها، ومرغت شفتيها على خدوده، ومرغته على صدرها وخديها وعينيها ولهفتها وشهوتها، وعندئذ سيبزغ للحجر اسم من سريرته، أى من سريرتها. لكن صوت السيارة بات يجرش جرشاً، وصوت السائق يجرش جرشاً وهو يحذر السيارة من أن تقف فى منتصف هذه القطعة القصيرة الباقية من الطريق. والتفتت نديدا إلى الوراء فارتدت أصابعها عن العقد وحجره جزعاً، إذ لم تر الطريق من قبل بمثل هذه الحدة، لا فى الصعود ولا فى النزول، وعندما عادت تنظر إلى الأمام، كان محرك السيارة قد خمد، ولكن قرب باب البيت.

كان النهار قد انتصف، وفكرت نديدا وهى تتنسم البرودة منذ أغلقت الباب خلفها، فى أنها قد أخطأت، إذ صرفت الوقت منذ التاسعة صباحاً بلا جدوى، وكان الأوْلى بها أن تنسى بدر الدين وأن تهتم بالمكتب.

كانت ماما افتخار والخادمة زهور تجلسان متقابلتين فى الصالون. وخيل لنديدا وهى تحييهما وتتأملهما أنهما باتتا منذ أسابيع تتباريان فى عبسة الإعياء وفى بسمة العافية، لكأنهما جارتان، بل شقيقتان، وليستا سيدة وخادمتها، لولا الثياب. ولما توجهت إلى غرفتها خاطبتها ماما افتخار وكأنها تزفّ بشرى:

– عمك فى المكتب.

فانعطفت إلى المكتب الذى هلل لقدومها مثل الدكتور عبد الواسع، قبل أن يتساءل:

- جئت مبكرة!

ففكرت فى أن عليها أن تستشيره بما يحتشد فى دربها: الاغتيال، بدر الدين، بل وغزال. وجلست بجانبه عازمة على أن تبدأ، لكنها أحست بأنها مشوشة وثائرة، لا تعرف كيف تبدأ، ولا ما ينقصها، ولا ما هى بحاجة إلى أن يعينها عليه الدكتور عبد الواسع الذى ظللها بنظراته الحانية، وطال صمته كأنه ينتظر أن تهدأ، ثم جاء صوته عميقاً:

- أعادتنى قضية العقيد محمد ناصر أكثر من عشرين سنة إلى الوراء، إلى اغتيال والدك رحمه الله، إلى اغتيال الدكتور عبد الرحمن الشهبندر رحمه الله، إلى اغتيال صديقى الشيخ تاج الدين الحسنى رئيس الجمهورية رحمه الله. كنت كلما وقع اغتيال أفتح دفاترى وأكتب. أفتح كتبى وأقرأ. أغلق كتبى ودفاترى وأفكر فى هذه البلوى التى ابتلينا بها منذ مئات السنين، بل منذ آلاف السنين، مثلما ابتلى بها غيرنا من الأمم والدول. تذكرين اغتيال برنادوت قبل سنتين؟ تذكرين اغتيال النقراشى باشا قبل سنة؟ لم يحمه أنه رئيس وزراء مصر، كما لم يحم برنادوت أنه رجل الأمم المتحدة أو أنه أديب أو أنه ابن عم ملك السويد. وهذا هو اليوم العقيد محمد ناصر. أسأل الله أن يكون آخر الضحايا. يجب أن يغلق باب الاغتيال فى بلادنا يا ابنتى. إذا ظل مفتوحاً فخلّى البومة تبشر بالخراب.

تساءلت نديدا وهى تصغى عما إذا كان اغتيال والدها هو ما دفعها، كعمها، إلى الاهتمام بقضية العقيد محمد ناصر. ولما سكت عمها احتضنت كفه وأقبلت عليه قائلة:

- أنت وعدتنى بأن أكون أول من يقرأ ما تكتبه، حتى قبل ماما افتخار.

- ومازلت عند وعدي.

- إذن هات ما كتبت عن الاغتيال. سوف أحاول أن أكون فى فريق المحامين ضد من اغتالوا العقيد محمد ناصر، ودفاترك ستنفعني. سأعتمد عليك فاستعدّ وادع لي.

- كان الله بعونك. مثل هذه القضايا هى معركة. الدفاتر لك على كل حال، وأنا معك.

قال ويده تسبقه إلى أحد الأدراج، ولم تكد تختفى حتى ظهرت مع مجموعة من الدفاتر النحيفة الصغيرة، تلقفتها نديدا كلقيا، وأسرعت إلى سريرها، وأطلقت عينيها تجوسان جزافاً، حتى استوقفتهما الصفحة الأخيرة من دفترٍ ما، وقرأتا:

حجر السم:

خاتم واحد يا أخى وحبيبى اشتريته من بعدك ومن أجلك. للخاتم فص زيتونى مشرب بالصفرة. لو وضع المسموم الفص فى فمه يبرأ من السم. سبحان الله يا رمزي. لو كان هذا الخاتم فى إصبعك وجلست أمام طعام مسموم، لتعرّق. آه ثم آه ثم آه. أين كان هذا الخاتم عندما كنت أنت بيننا؟

من أجلك يا أخى وحبيبى حفظت فصل (كشف السموم) من كتاب المنهج المسلوك فى سياسة الملوك. من أجلك أضفت إلى الكتاب فصلاً جديداً وسميته (حجر السم). ثم سميته (روح السم) ثم سميته (الترياق). وقد قرأت لأمك رحمها الله يوماً فى كتاب أن من حق هذا الحجر أن يفوق الجواهر كلها، لأنها لعب ولهو وزينة وتفاخر، لا تنفع لشيء من أمراض البدن، بينما البازهر يحافظ على البدن وعلى النفس وينجيها من المتالف.

قبل أن تلحق أمنا بك رحمها الله كانت كثيراً ما تأتى بالصندوق وتخرج منه البازهر. كنت أقول لها: حجر السم يا أمى فتأمرني: قل البازهر يا عبدالواسع، فأقول كما أمرت: البازهر يا أمي، فتقول: قل البازهر يا عبدالواسع. وفى كل مرة لابد أن يكون الوقت عصراً من عصارى الصيف

الحارة أو من عصارى الشتاء الباردة. فى كل مرة تقول لو كان هذا الحجر فص خاتم ووضعته فى فم رمزى لبرئ بإذن الله.

افتخار تقول إنها سمعت أمنا فى أيامها الأخيرة تندبكَ وتقول: لو وضعت هذا الحجر على معدة رمزى لبرئ بإذن الله. سألتها افتخار: كيف يكون هذا؟ قالت: هذا الحجر يلتصق بالمطرح المسمم من الجسم ويمتصّ السم حتى يمتلئ. سألت افتخار: ما الذى يمتلئ؟ قالت: الحجر. سألت افتخار يمتلئ بماذا؟ قالت: بالسم. ولا تنسى بعد أن يمتلئ أن تضعيه فى الماء حتى يفرغ ما حمل من السم ثم عودى فألصقيه على مطرح السم. سألت افتخار: إلى متى؟ قالت: حتى يبرأ المسموم بإذن الشافى المعافي.

كأس السم:

أرانى صديقى الشيخ تاج الدين الحسنى رحمه الله كأساً، بل كئيساً من اليشب. من اليشب المصرى الذى كان يحدثنا عنه والدنا رحمه الله. قال لى الشيخ تاج: لون الشراب يتغير فى هذا الكأس إذا كان مسموماً. قال لي: إذا لففت شعرة من شعرك باليشب ورميتها فى النار فلن تحترق. هل تذكر حكاية جدتنا عن ذلك الشيخ الذى كان يرمى شعرة أمام الناس فى النار ويقول: هذه شعرة من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، لا تحترق، فيجود من حوله بما فى جيوبهم؟ ما كانت تلك الشعرة إلا من شعر الدجال ملفوفة باليشب، كما يجزم الشيخ تاج رحمه الله. لم يحمه الكأس أو الكئيس من الموت غيلة بالسم كما كان لك يا أخى ويا حبيبي.

بصدرٍ مثقل وأنفاس مثقلة عادت نديدا ذلك المساء، ولم يكن ما بها غمّ ولا رهق. كان مثل حملٍ مؤنس وشفيف، لكنه كبير ورجراج، تكاد تنيخ تحته حيناً، وحيناً تكاد تختنق به، ولا تزيده طريق الشام إلا استغلاقاً.

هناك، بعيداً، خلّفت فى عين شقاق الدلبة الهائلة، لا تدركها عينان مهما تسامقتا إلى نؤاباتها أو إلى غيماتها. لكن ذراعى نديدا ستزنرانها بالحلم:

تنفتحان على مداهما وتدوران حول الجذع المتشقق الذى زاده اليباس خشونة. تتصل الدورة بالدورة وتنفصل الدورة عن الدورة ريثما تنقلب الخشونة طراوة، كأن الذراعين اندغما بالجذع فصارت له ملاستهما. والآن، ما دامت الدلبة قد سكنت لنديدا ونديدا قد سكنت للدلبة، سيتضاعف دفق النبع، كأنّ الوقت ليس التاسع أو العاشر أو أى يوم آخر من أيلول، بل كأنه أى يوم من نيسان: لماذا لا يكون مثل يوم عيد الرابع، الذى بات يصادف يوم عيد الجلاء، من أجل أن تتبرج الدلبة والعين والساحة والمنحدرات والسهل والصبايا والشبان، كما قال واحد من رفقاء سنان، قبل أن يبدأ حفل التأبين؟

قبل أن تنفرد نديدا بالدلبة والنبع، رغم المئات الذين ملأوا المكان، كانت قد انفردت بالضريح الهائل المغمور بالزهور، والذى ستغمره كلمات الخطباء والشعراء، بينما نديدا تسترق النظر من النساء المفجوعات، لا تفرق بين زوجة وأم وأخت، كما تسترق النظر من الرجال المفجوعين، لا تفرق بين طربوش وبنطال أو قنباز أو قبعة عسكرية، فقد وحّد بينهم الشهيد البطل العقيد المرحوم المغدور الضحية - تعددت الألقاب وهو واحد: محمد ناصر الذى يربض الآن وحيداً فى عتمة القبر، كما تربض نديدا الآن وحيدة فى عتمة السيارة، خلف سنان وغزال، وكما كانت فى العصر تربض قبالة البحر وهما مستغرقان خلفها فى الصمت.

كان البحر يهفهف على خديها برطوبته، ويتلغز بغواياته، بينما تتسلل أصابعها إلى عقدها، تحنو عليه وتمسده طويلاً، ثم تلوح للبحر بالحجر الذى بلا اسم، فيجود عليه البحر باسمه، لكن الحجر يتقد امتناناً ويهمس لنديدا: ليس هذا اسمي، فتناشده الصبر وتلحق بعينيها اللتين غافلتاها ونزلتا إلى البحر، مثلما فعلت أية امرأة قبلهما فى رواية أو فى فيلم سينمائى أو على

شاطئ محفوف بالسحر في بيروت، وليس على كل ما رأت من هذا الشاطئ: من طرطوس إلى جبلة.

رويداً تغدو نديدا واحدة من نساء الحلم أو الوهم أولاء، فيكون لها أن تتخفف من ثيابها، وأن تنغمس في الزبد حتى الكاحلين، بل أن تنغمس في الماء حتى الركبتين. ولِمَ لا تبحر حتى السرة؟ متى تتعلمين السباحة، كي تناكدي العيون، حتى لو لم تكن مكارة شهاءة مثل عبي بدر الدين أتماز؟ غير أن بدر الدين ينفض عنه هذه الغواية، بل وكل غواية، ويشهر كفين مغمستين بالدم، فلا يبقى لنساء الحلم أو الوهم جميعاً، وليس لنديدا وحدها، ولا لعاهرة حلب وحدها، أن تنشد حباً ولا زوجاً، بل حسبها السلامة.

إلا أن نديدا ستنضم إلى فريق المحامين الذين سيخاصمون بدر الدين وسائر القتلة. بل إن نديدا قد انضمت فعلاً إلى هذا الفريق ما دام نوو الفقيد، وليس زوجته وحدها، قد محضوها الثقة ظهيرة هذا اليوم. وستنظم الأوراق والأختام كل ذلك يوم الخميس، فماذا لو أن بدر الدين أتماز ملص من هذه القضية مثل الشعرة تملص من العجين، وجاء لينتقم؟

قبل أن ينطق قاضٍ بحكم، على نديدا أن تكون قد تدرعت بأحدهم. وعلى من تتدرع به أن يكون نداً لبدر الدين. بل عليه أن يكون أقوى ليغلبه، إذ لا يكفي أن يتكافأ معه. فليكن درعك واحدٌ من هذين اللذين ينتفضان الآن من عتمة السيارة، أو من صمت العصر، على مشهد من البحر: سنان. لالا. سنان هو الشقيق الأكبر الذي حُرمتِ منه، وقد يصير الأب الذي حُرمتِ منه. غزال؟ إنتظري حتى تتبيني بم يلغوان منذ العصر، بل منذ غادرت السيارة الشام هذا الفجر: سنان تكفيه عودة سوريا المشلّعة الآن إلى ما كانت عليه منذ ثلاثين سنة، فكيف بعدما أضاف إليها زعيمه العراق وقبرص ليكتمل الهلال الخصيب ويحضن نجمته؟ غزال لا تكفيه الوحدة السورية، ولا القومية السورية. غزال ينشد الوحدة العربية والقومية العربية، مثلما ينشدهما رباح.

لِمَ لا تجاهرين: مثلما أنشدهما أنا أيضاً؟ وبدر الدين يا نديدا؟ ما الذى ينشده؟ ستقولين: ينشد شلّيطا، أو أن يكون هو شلّيطا كما سيصحح لك رباح. ولكنه ينشد أيضاً الوحدة السورية والوحدة العربية والوحدة الإسلامية والقومية السورية والقومية العربية، وما بقى إلا أن تقولى إنه ينشد الأممية الشيوعية والأمة الإسلامية!

بدر الدين لا ينشد إلا بدر الدين، فدعيك منه وعودى إلى هذين اللذين يحتد اختلافهما على الأمة السورية والأمة العربية، وعلى الوطن السورى والوطن العربي، وعلى الشعب العربى والشعب السوري، فبمن منهما ستتدرعين لتسلمى من شرّ بدر الدين؟

سنان أولاً أو ثانياً، لا فرق، ما دام هو الأخ الأكبر وهو الأب. وغزال؟

ما بينك وبينه سوى النقار أو الغزل بشرح رباح. بل بينك وبينه خطوة قادمة إن صدق رباح. وكما تزوجت رباح، بشبهة حب، بربع حب، بنصف حب، ستتزوجين غزال. لِمَ لا تنتظرين حباً صريحاً وكاملاً؟ أنت مطلَّقة أو مطلَّقة، ليس لها سن عنوسة. لِمَ لا تراهنين على أن يتشكل زواج غزال حباً كما راهنت على زواج رباح؟ لا تتركى خيبة رباح تأسرك. حتى لو صرت مطلِّقة أو مطلَّقة من جديد، لن تقوم القيامة، بل ستعودين إلى هذا البيت الذى تعودين إليه الآن بعد منتصف الليل، وقد يكون رمزى صار شاباً، وصار له شقيق أو شقيقة بمثل سنه الآن، سيكون البيت قد فرغ من ماما افتخار والدكتور عبد الواسع والخادمة زهور، ستكونين المحامية اللامعة، وربما الدكتورة المحامية، والشابة التى لا تغادر الشباب حتى لو بلغت الأربعين، بل والخمسين، فلماذا لا يتوقف سنان وغزال عن هذا الاختلاف؟ لماذا يتركان السياسة تسمّم هذه اللحظة التى تشفّ فيها نديدا مثل النسمة الشامية، يضيئها القمر ويضوّعها الياسمين، ولا ينقصها إلا أن تحضن سنان مودعة، ثم تحضن غزال ملاقية؟

السيدة نديدا الكهرمان:

لا أعرف كيف أبدأ أول رسالة إليك.

أحكى نكتة أو أكتب: زوجتى السابقة العزيزة: صباح الخير.

مطلَّقتى الغالية.. عفواً: مطلِّقتى الغالية: مساء الخير.

والله العظيم لن تكون نكتة لو أكتب: حبيبتي.

كم كتبتها ومحوتها عندما كنت أتقفى أثرك فى الجامعة مثل أى مراهق عاشق وغرّ.

كم حاولت أن أكتب لك رسالة فما تجرأت. الآن يا نديدا، الآن بعد هذا العمر، بعد كل ما مضى من سنوات العشق والزواج والطلاق أكتب لك أول رسالة. لماذا؟

رباح أبو شلة صار جباناً بفضل نديدا الكهرمان. ما عاد يجرؤ على لقائك. لا. ليس هذا. ما عدت أرغب فى لقائك. ليس لأننى ما عدت أحبك. أنا أحبك وأقولها بالفم الملآن. أظن أننى سأظل أقولها حتى لو تزوجتِ أنتِ غزال حاج تميم أو تزوجت أنا أخته. بل حتى لو تزوجتِ بدر الدين أتماز لا سمح الله.

سأظل أحبك ولكننى ما عدت أرغب فى لقائك.

شعورى بالغربة عنك ما عاد يطاق.

شعورى بأننا غريبان طغى على فى الفترة الأخيرة.

ما كان هذا إحساسى بك بعدما تركتنى مع رمزى وغبتِ، يعنى بعدما طلقتِ. يمكن أن يكون هذا الإحساس قديماً أو مطموراً ولم أنتبه إليه إلا أثناء زياراتنا لوالد سنان. كنت أحياناً أرى أى شخص من الحاضرين أقرب إلى منك لذلك كنت أسكت أغلب الوقت. هل لاحظت؟

كم تساءلت يا حبيبتى منذ بدأ الجفاء بيننا ونحن ما زلنا على مخدة واحدة: هل أحبتك نديدا يا رباح؟ كنت أتشاطر على السؤال بالسؤال: لماذا

تزوجتك إذا كانت لا تحبك؟ كنت أتجرع المرّ وأقول لنفسي: هي تحبك ولكن على طريقتها. نديدا لا تحبك بقدر ما تحبها ولا كما تحبها.. وفي الفترة الأخيرة رجع لي السؤال نفسه ولكن مع تبديل كلمة واحدة: هل أحبتك نديدا يا حمار؟

ألا ينطق السؤال بالجواب؟

لا يا حمار.

لم تحبك نديدا يا حمار.

لن تحبك نديدا يا حمار.

لماذا؟

لأنك حمار.

عندما ذكرتِ الغيرة في لقائنا الأخير خاطبتك بيني وبين حالي: اللي ما بيغارْ حمار. قلت لك: أنا بغارْ لأني حمار. قلت لك أنا بغارْ إذن أنا حمار.

أرجو ألا تستائي من كلامي على هذه الشاكلة.

من الأفكار الحميرية التي راودتني كثيراً كلما كنت أحلم برجوعنا إلى بعضنا، أنه لابد بعد الطلقة الثالثة من أن تتزوجي غيري، ثم يطلقك، لتحل العودة، يا سلام!

هذه هي التجحيشة.

الكلمة جاءت من الجحش والجحش هو ولد الحمار قبل الفطام. عندنا في الجريدة (لسان العرب) وفيه بحثت وعرفت أيضاً أن الجحش هو ولد الظبية وهو البليد الذهن... بعد ذلك أكد لي المثل شبهي بالحمار: قالوا للحمار ليش أذنيك كبار؟ قال من الركض وشمشمة الأخبار. هكذا اكتشفت أن لي أذنين ما شاء الله، كل واحدة أكبر من أختها. كيف لم تلاحظي ذلك؟ لاحظي كم هو هذا السؤال سؤال حمار! إذا كانت قد لاحظتْ يا حمار فقد نسيتْ.

الصحيح أنها لم تلاحظ لأنها لم تكن تراك. هذا عن أذنيك، أما عن شمشمة الأخبار فهذه مهنتك وأنت وصفت نفسك بالصحفى الشمام.

بقى مثلٌ حماريٍ واحد يا نديدا هو: حمار موالف ولا غزال مخالف. الحمار أنا والغزال هو غزال حاج تميم. لن تتفقى أنت وغزال. تذكريني إذا صار نصيب. تذكريني كلما اختلفتما وعندما تنفصلان. أنا أعرفك جيداً، وعلى قلة معرفتي به فهى كافية. سأبدأ من أنك شابة وهو أكبر من سنان. هل انتبهت لبياض سالفيه ولجلحه؟ هو يدخن بنهم وأنت تكرهين الدخان. هو يشرب كل يوم وبيته مليء بالويسكى والكونياك والنبيذ والعرق وأنت تمقتين الشراب. لا أعرف ماذا تغير من طباعك بعد انفصالنا. يكفى أن غزال متزوج قبلك زواجاً كاثوليكياً من اثنتين: واحدة نهارية هى أعماله، وواحدة ليلية هى الموسيقى والغناء والكأس والرقص والندماء. هناك شيء واحد تتشابهان به وإن كان ضعيفاً عنده كما أظن وعندك أقوى. أقصد القراءة أو المطالعة.

صدقينى ما كنت أنوى أن أكتب كلمة واحدة من كل ما مضى من هذه الرسالة. لكنه القلم وما يهوى.

أردت أن أكتب هذه الرسالة ما دمنا لن نلتقي، لأقول لك ما عندى بخصوص الأوراق التى أعطيتنى إياها وطلبت منى رأياً فيها.

وصلتنى نسخ أخرى من الأوراق، واحدة من الدكتور عبد الحنان مراد، واحدة من صديقتك المحامية ميريل جميرا وواحدة من المحامى مهران راقط صديق أخى مطيع.

أنت أول من أكتب لها بهذا الخصوص. وأبدأ بالقانون رقم ٤٠٠ تاريخ ١٥ / ٥ / ١٩٤٨ والمتضمن تنظيم الأحكام العرفية.

أؤيدك وكل سورى يؤيدك بالإضافة التى اقترحتها حتى يكون تحرى المشتبه بهم أثناء سريان الأحكام العرفية بأمر من النيابة العامة، وبمرافقة المختار لمن ينفذ التحرى.

أؤيدك وكل سورى يؤيدك فى اقتراحك إلغاء فرض الرقابة المسبقة على الصحف والمطبوعات والأنباء وإلغاء فرض المراقبة البريدية والهاتفية أثناء سريان الأحكام العرفية.

اقتراحك تبديل المادة ٦ وإحلال كلمتى المحاكم المختصة محل كلمتى المحاكم العسكرية اقتراح صائب.

ومثله تعديل الفقرة ٦ من المادة ٢ بحيث لا تزيد فترة مراقبة المشتبه بهم والمتشردين على عشرة أيام، وبحيث لا يزيد توقيفهم وإحالتهم إلى المحاكم المختصة وليس العسكرية عن ثلاثة أيام.

تعرفين أكثر منى أن هذا القانون صدر بسبب الحرب بيننا وبين العصابات الصهيونية. وقد صار من الماضي، أى كأنه لم يكن وذلك بعد الانقلاب الأول الذى قاده شلّيطا الأول حسنى الزعيم. أما عن المرسوم التشريعى رقم ١٥٠ تاريخ ١٢ / ٦ / ١٩٤٩ والذى أصدره حسنى الزعيم لتنظيم الإدارة العرفية. فهذا ما عندى بصدده وبصدد ملاحظاتك عليه:

أنت تقترحين أن تحل كلمة الحاكم العرفى محل الحاكم العسكري. هذا يذكّره باقتراحك السابق حول المحاكم المختصة بدلاً من المحاكم العسكرية. أنا أؤيدك فى ذلك وفى الوقت نفسه أرجو ألا نكذب على أنفسنا. فالانقلاب الأول انقلاب عسكري، والانقلاب الثانى والانقلاب الثالث والانقلاب القادم. هل من انقلاب غير عسكرى؟

قد تقولين هذا هو حزب البعث العربى والحزب العربى الاشتراكى والإخوان المسلمون وماذا أيضاً.. كلها أحزاب مدنية وإن يكن لها أذرع عسكرية. كلها أحزاب تعلن أول ما تعلن أنها انقلابية. ولكن هذا شيء وما جرى على أرض الواقع شيء آخر.

ما جرى هو الانقلاب العسكري.

هذه الأحزاب كلها سبقت الانقلاب الأول. هل أستطيع إذن أن أقول إنها هى التى مهدت له؟

هل أستطيع أن أقول إن تلك الأحزاب هى التى ألهمت العسكريين الانقلاب بعد الانقلاب مثلما استلهمت هى نفسها فكرة الانقلاب من ثقافتها الغربية أو من الشيطان الرجيم؟

ولكن هل كان من سبيل للخروج مما كنا قد وصلنا إليه إلا بالانقلاب، وبصورة خاصة بعد الهزيمة التى يسمونها تلطفاً بالنكبة؟

مهما يكن فستكون المحاكم عسكرية بالاسم الصريح أو باسم المحاكم العرفية، وستكون هى النافذة خلال سريان الأحكام العرفية أو الإدارة العرفية أو حالة الطوارئ التى تقترحين فى نهاية ملاحظاتك الاكتفاء بها بدلاً مما سبقها.

أنت لست هينة ولكن الآخرين ليسوا أغبياء.

لن ينطلى عليهم أنك تقترحين حالة الطوارئ حتى تبعدى المسافة عن كلمة عسكرى أو عرفي. أى حتى نبتعد عن العسكرية.

لن يستمع أحد لك ولا لأمثالك من المحامين والمحاميات ولا لأمثالى ممن يؤيدونكم.

هم يا حضرة الأفوكاتو يريدون عسكرة المجتمع.

يريدون أن تكون سوريا كلها ثكنة عسكرية.

ليت هذا يكون ولكن ليس ليضبطونا على مقاساتهم بل لنحارب الصهيونية ونحرر فلسطين.

كنت أتوقع منك أن تلاحظى أن مرسوم شلّيطا الأول لا علاقة له بالحرب مع عدو خارجي. إنه موجه للداخل بتخصيصه الكلام بالعصيان ضد الحكومة أو ضد الدولة. أليس عجيباً أن هذا المرسوم أغفل الأوبئة أو

الزلازل مثلاً من الأسباب التى تستدعى إعلان الإدارة العرفية أو حالة الطوارى؟

كلنا نؤيد اقتراحك بإلغاء المادة ١٢ من هذا المرسوم والتى تمنع الاجتماعات والتجمعات وتقضى بحل الجمعيات والأحزاب وبإغلاق النوادى والمحال العامة المشتبه بها. بأى شيء هو هذا الاشتباه؟

أنت محامية تكتبين ملاحظاتك بوقار كما كنت تكتبين مرافعاتك. أعرف هذا. ولكن أنا أجد نفسى ملزماً بأن أخرج عن الوقار وأقول: هذه مسخرة فى ألطف تعبير. أقصد تعقيبك على الفقرة آ من المادة ٨ من المرسوم السيئ الذكر الذى يأمر المحكمة العرفية بأن تأمر بإعدام كل من يحمل السلاح أو أية آلة جارحة ضد الحكومة أو قواتها العسكرية بما فيها الدرك أو ضد الشرطة.

هذه مسخرة يا نديدا.

هذا يعنى فعلاً كما كتبت أنت أنه يمكن الحكم بالإعدام على التلميذ الذى يحمل مقص الأوراق الملونة فى درس الأشغال اليدوية، وذلك إذا ما بدر منه أى تصرف غير مقصود نحو دركى أو شرطي، فعدّه هذا الدركى أو هذا الشرطى تصرفاً ضد الحكومة.

هذه مسخرة.

ألا يعنى هذا أنه يمكن الحكم بالإعدام على كل من يقبض عليها وهى تقص أظافرها أو تنتف حاجبها؟ أليس مقص الأظافر مثل ملقط الشعر أداة جارحة قد يعدها عنصر التحرى عملاً عدائياً؟

هذه مسخرة.

حبيبتي: المرسوم التشريعى لعام ١٩٤٩ أدهى من قانون ١٩٤٨. والأدهى أن يتحول كل ذلك إلى قانون شفوى سائد وأقوى من القانون المكتوب كما ترين فى عهد شلّيطا الثالث. وكما يقال: الله يستر من اللى

جاى، فمن يدري، قد نعيش لنرى مراسيم وقوانين تجعلنا نترحم على قانون شلّيطا الثالث الشفوى أو على مرسوم شلّيطا الأول التشريعى وما قبله وما بعده وما...

والآن ما بقى غير الختام.

الآن يا نديدا ليتنى أعرف ما الذى يدور فى رأسك؟

وقبل كل هذا وبعد كل هذا كنت وسأبقى أراك أبيض من الحليب وأحمر من الشفق، أزهى من الطاووس وأرشق من الغزال.

الله يبعد عنك غزال حتى يبعد عنى أخت غزال.

المخلص دوماً

أبو رمزى رباح

وليس رباح أبو شلّة

حين تجاوزت الساعة العاشرة ليلة الأربعاء ٢٧ أيلول، كانت نديدا تحدق فى الراديو، لعلها ترى هذا الصوت الذى يتموج كما شاء صاحبه لقصيدة نزار قبانى (من شاعر إلى ظالمة)، أو كما شاءت القصيدة ونزار نفسه لمصطفى هلال، حتى يكون له هذا الصوت، أو حتى يكون له هذا اللحن!

فى لحظة غامضة تراءى لها أن رباح هو الشاعر، والظالمة هي: نديدا التى قرأت رسالته مرتين، واحدة على عجل وواحدة متأنية، وترددت: هل تكلمه بالهاتف فوراً أم تتجاهله؟ وها هما: نزار ومصطفى معاً يكادان يرسمان جواباً، لولا أن الراديو يخرس، ثم يطلق وشيشاً فاحماً، فنحنحة طويلة، قبل أن يهدر المذيع: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تراجعت نديدا لتبتعد عن المذيع محتارة: هل سيقرأ نشرة أخبار فى مثل هذا الوقت؟ أم سيقرأ بلاغاً من بلاغات الانقلاب؟ وسرعان ما انطلق:

بلاغ صادر عن المديرية العامة للدعاية والأنباء:

منذ نيف وشهر يُجرى القضاء العسكرى تحقيقاً مع بعض العسكريين بتهمة التآمر على سلامة الدولة، وَأُوْقِفَ بعض العسكريين بنتيجة التحقيق، ثم اتسع نطاق التحقيق فأوقف بعض المدنيين أيضاً.

أسرعت نديدا إلى الهاتف لتتصل بابتهال. ينبغى أن تطمئن على سنان. هى تعلم أنه الليلة فى الجبهة. ولكن ماذا لو أنه كان بين هؤلاء الذين يتحدث عنهم المذيع؟

توقفت قبالة الهاتف الذى راح يحذرها من أن تُقلق شقيقتها فى مثل هذا الوقت، ثم راح يطمئنها: سنان فى قيادة الفوج على الجبهة، عودى إلى الراديو، فعادت، وإذا به يصدح بنشيد (فى سبيل المجد والأوطان..).

أليس هذا بأفضل من أن يصدح بالمارشات العسكرية؟

المارشات مخصصة للانقلابات حقاً كما قالت ميريل غداة الانقلاب الثاني، وكما كررت غداة الانقلاب الثالث.

ميريل ستغادر الشام. قد يكون ذلك بعد شهر، بعد شهور، لكنها ستغادر. ميريل مصممة على أن تبتعد. ستلحق بمنذر بعد أن يكون قد استأجر بيتاً صغيراً ومكتباً وأثثهما كما يليق بالعروس والعريس. ميريل تتهيأ منذ حين ونديدا غافلة. قصت ميريل شعرها، ثم جعّدته: هذه أولى علامات العروس. منذر يحبّه هكذا، وميريل تعده منذ سنوات بما يحب، ونديدا لا تصدق أن العروسين قررا اللجوء أو الهرب أو الهجرة أو النفى إلى اللاذقية، طلباً للنجاة من شر أهلهما وإيثاراً للسلامة.

- ولكن لماذا اللاذقية يا ميريل؟

- اسألى منذر يا نديدا.

- لماذا اللاذقية يا منذر؟

- لأن أخوالى فيها ولى فيها أصدقاء من أيام الجامعة. بمعونتهم يمكن أن نتجاوز صعوبات البداية.

- وإذا خاب الرجاء يا ميريل؟

- نرجع إلى الشام يا صديقتى وخلّى أهلى وأهله يبلطوا البحر.

- لماذا لا تجعلينهم يبلطون البحر الآن؟

- اسألى منذر يا نديدا.

تؤجل نديدا السؤال لأنها خائفة على صديقيها من هذه المغامرة. سيكونان غريبين - فكرت - وسيكون من الصعب أن يبنيا علاقات عمل وحياة اجتماعية كما فى الشام. منذر نفسه يقول: صعب على من عاش فى الشام أن يعيش فى مدينة صغيرة مثل اللاذقية، فتقول نديدا: إذا كنتما مصريّين فاذهبا إلى بيروت. العريس خاف من بيروت: كيف سيشق دربه فيها كمحامٍ؟ والعروس خافت من بيروت: كيف ستشق هناك دربها كمحامية؟ ونديدا تتنبه أخيراً إلى أن القلق يزاحم الأمل فى عينى ميريل ومنذر، وتخاف من أن يغلب القلق هنا، فيستسلمان للأهل، وأن يغلب هناك فى اللاذقية، ولو بعد حين، فيبدأ الندم والنقار، وتبهت السعادة.

هذه طريق وعرة: تفكر وهى تغلق الراديو وتجر قدميها إلى السرير. طريق صعبة فى الصعود، وأصعب منها فى النزول، ونهايتها هى ما أنا عليه الآن: ابنى فى حضن جدته وأبوه لا يريد أن يراني، فيكتب لى الرسائل، فماذا لو أن ميريل ومنذر صبرا حتى صار لهما مثل رمزي، ثم انهار الصبر، وتحتم عليهما الانفصال؟

سيظل من المحتمل إذن أن تنتصر الطائفية ولو بعد سنين، ولكن فى إهاب آخر، فردى أو شخصي، أسرى أو مجتمعي، لكنه يظل أهون من أن تنتصر الآن فى قضية العقيد محمد ناصر: سنان هو من سوف يقول عندما يعود عصراً إلى البيت، وتكون نديدا قد سبقته لتبرد هجسها بأن يكون واحداً من الذين لم يسمّهم الراديو البارحة.

كان اللغط منذ الصباح حتى الظهيرة، حين أسرعت إلى ابتهال، قد سمى ضباطاً كثيرين. سماح شوقى بك الذى صادفته فى بهو المحكمة سمّى ضابطين، ليس سنان أحدهما. ملك كبارة سمت خمسة ضباط ليس بينهم سنان. ولكن بينهم المقدم مرقص العميا صديق سنان. ولم تطمئن نديدا إلا عندما أكدت ابتهال أن سنان فى الطريق إلى البيت.

متمهلاً كأنه يدفع اضطرابه، تناول الغداء متأخراً، وهو ينفى أن يكون مرقص بين العسكريين المعتقلين. بل إن مرقص هو من يعتقل أولاء بأمر مباشر من شلّيطا. وكما انقلب صوت مرقص هامساً ومحاذراً وهو يُسرّ لسنان منذ قليل، انقلب صوت سنان وهو يُسِرّ لابتهال ونديدا:

- النائب العام العسكرى يحقق منذ فترة مع الموقوفين فى سجن المزة، وقاضى التحقيق لا علم له ولا خبر. مدير العدلية العسكرية يشترك فى التحقيق، فهل يجوز هذا؟

قالت نديدا وقد تراءى لها بدر الدين أتماز واقفاً باعتداد ملء بوابة السجن:

- قانونياً لا يجوز.

قال سنان:

- هذا ما قاله مرقص. كأن أمراً يدبَّر فى السجن.

قالت نديدا وهى تدفع طيف بدر الدين بعيداً:

- مؤامرة خارج السجن، مؤامرة فى السجن! ما هذا؟

قال سنان:

- استطاع مرقص بحكم موقعه أن يقرأ إفادات الموقوفين. فى إفادة واحد منهم أن ضابطاً كبيراً قُتِلَ منذ شهرين تعاون مع المتآمرين من أجل التخلص من شلّيطا.

تساءلت ابتهال:

- يقصد العقيد محمد ناصر؟

قال سنان:

- ومن غيره؟ لكن الأدهى ما جاء في إفادة أخرى من أن ذلك الضابط الكبير المقتول منذ شهرين كان يسعى لضمّ مناطق العلويين إلى لبنان! موقوف ثالث قال إنّ دوره كان أن يجسّ نبض بعض الشخصيات العلوية لمعرفة رأيهم في مقتل العقيد محمد ناصر.

قالت نديدا:

- رجعنا إلى الطائفية! أعوذ بالله. متى نبرأ من هذا السّم؟ متى نتخلص من هذه المصيبة؟

قال سنان:

- كأنهم يريدون أن يشوهوا سمعة العقيد محمد ناصر ليبرروا اغتياله. لن يسمح شليطا بأن يبقى صوت واحد ضده. لا فرق بين الاغتيال والاعتقال. من يصدق أن الوصيف صار يتجسس على سيده!

تساءلت نديدا:

- ومن يكون الوصيف؟

قالت ابتهال متعالمةً:

- الحاجب العسكري الذي يخدم الضابط.

قال سنان:

- أخبرني مرقص أن شليطا أمره بأن يضعني تحت المجهر، فكلف الوصيف بأن يرصد أنفاسي، وطلب مني اليوم بالهاتف أن أشرب عنده فنجان قهوة، فتبين لي أنه ما دعاني إلا ليحذرني من الوصيف.

قالت ابتهال:

- لا أعرف أنكما صديقان إلى هذه الدرجة.

قال سنان:

- مرقص ابن حلال.

قالت نديدا:

- من كان فى مثل موقعه لا يؤتمن، حتى لو كان ابن حلال.

- قلت لمرقص: من كان يتخيل أننا سنصل فى يوم من الأيام إلى ما نحن فيه، فقال: الخير لقدام. أنا عائد إلى الجبهة. لولا دعوة مرقص ما جئت اليوم.

قال سنان وهو ينهض، فأسرعت ابتهال إلى غرفة البنتين منادية، وأخذت نديدا تتأهب للخروج، وهى تحاول أن تجمع فى صورة بين مدير السجن وبين سجينة. وما إن تشكلت الصورة حتى هتف مدير السجن: أنا الكابتن مرقص العميا، وهتفت السجينة: وأنا درة حفظي، أنا أم ابتهال ولست أمك، فدوّمت فى أعماق نديدا الهتفة: وأنا لست ابنتك.

للمرة الأولى تقترب نديدا من الموت، حتى لتكاد تراه وجهاً لوجه. تشمّ رائحته وتسمع دبيب خطواته وهسيس أنفاسه ثلاث ليال طال فيها احتضار الدكتور عبد الواسع.

لالا.

لم يحتضر الدكتور عبد الواسع.

ما كانت عليه شبهة الموت فى أى من هذه الليالي. كان خداه قد توردا منذ أهلّت الليلة الأولى، كما لم ترهما نديدا منذ سنة، لكأنه لم ينقطع عن النبيذ ليلة. كانت أنفاسه هادئة ومنتظمة، وكان صوته نقياً وهو يرجو نديدا أن تساهره بعد أن ينام رمزي. ولما عادت إليه، كان قد أدى صلاة العشاء بمشقة، وتربع فى سريره، وأمر زهور بوسادة فوق وسادة خلف ظهره، وكان فى يده كتاب أحمر الجلد، وإلى يمينه، فوق اللحاف، كتاب كحليّ الجلد.

قبل أن تستقر على الكرسى الملاصق للسرير بادرها بالسؤال عما إذا كانت تعلم من يشيّع المؤمن، فنفت، فقال وهو يحضن الكتاب:

- سبعون ألف ملك يشيعونه إلى قبره.

ثم خص زهور بالسؤال:

- ومن يشيّع الكافر؟

فارتعدت، فتلا وهو ينظر فى الكتاب:

- «قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكّل بكم ثم إلى ربكم ترجعون».

وعاد إلى نديدا يسأل دون أن يرفع عينيه عن الكتاب:

- هل يعلم ملك الموت من يقبض؟

فارتعدت، فقرأ من الكتاب:

- إنما هى صكاك تنزل من السماء، والويل للكافر. يأتى ملك الموت بوجه كريه، عيناه كالبرق الخاطف وصوته كالرعد القاصف. لونه كقطع الليل البهيم ونفسه كلهب النار، رأسه فى السماء الدنيا ورجل له فى المشرق ورجل له فى المغرب، ومعه سفود كثير الشعب، ومعه خمسمائة ملك معهم سياط جهنمية تتقد.

استولى الهلع على نديدا. وفجأة انقلب الهلع طمأنينة، لكنها مثلجة. وما إن فرّت زهور حتى أخذت الطمأنينة تدفأ، فتدفأ، فتدفأ، حتى كادت أن تكون حمّى، وكانت نديدا قد توحدت بالصوت، وبالموت، وبالكتاب، لتشهد ملك الموت يدخل على كافرٍ سيملأ قبره كما يملأ سريره. وبصوت الملك يزلزل البيت: أنا سحقطائيل، خذها مني، فيأخذ هذا الكافر ضربة لا تبقى منه شعبة إلا أنبشها فى كل عرق ومفصل؛ ثم يرمى سحقطائيل هذا الكافر بجذبة تسيل معها روحه من قدميه، فإذا بلغت الركبتين هرع أعوان سحقطائيل ليذيقوا هذا الكافر سكرات وغمزات مثل الضرب بألف سيف، لتبلغ روحه الحلقوم، فينتزعها سحقطائيل ويضعها بين مطرقة وسندان،

ويأمر بسرير الكافر فيحمل إلى قبره، لكن القبر يجأر: اللهم لا تجعله فى بطني.

غير أن دعاء القبر لن يستجاب، كى تشهد نديدا الروحَ التى خرجتْ من بدنى يا ابنتى أمس، بل عصر أمس الأول، تناجى الحى الذى لا يموت:

– يا رب ائذن لى أن أنظر إلى الجسد الذى كنت فيه.

فأذن لها، فجاءت إلى قبري، ورأت الماء يسيل من أنفى وفمي، فبكت بكاءً طويلاً ثم ناحت قائلة:

– يا جسدي: هذا منزل الوحشة والبلاء والندامة.

وفى مستهلّ الليلة الموالية عادت إليّ فرأت الدم قد سال من فمي، والصديد من أذني، فبكت بكاءً طويلاً، ثم ناحت قائلة:

– يا جسدي: هذا منزل الغمّ والهم.

ولما أحييتم ذكرى مرور أسبوع على فقد الغالي، عادت روحى إلى قبرى فوجدت الدود ينهشنى نهشاً، فبكت بكاءً طويلاً، ثم ناحت قائلة:

– أين أولادك وأقاربك يبكون عليك وعلى إلى يوم القيامة!

قلت:

– مالى أحد إلا افتخار ونديدا وابتهال، فما ذنبهنّ حتى يحلّ بهن مثل هذا العذاب؟ يا رب ارأف بهنّ وأنت الرؤوف الرحيم.

فاستجاب ربى لدعائى وطوى الأزمنة طياً، ليأمر إسرافيل أن يهبط إلى هذه الدنيا حاملاً الصُّوْر ذا الرأس الواحد والطرفين المتنائيين، حتى ليبلغ ما بين طرف وطرف ما بين السماء والأرض.

فِي القدس سيهبط إسرافيل يا ابنتي. وحين يستقبل الكعبة سينفخ فى الصُّوْر نفخة، فيخرج الصوت من الطرف الذى يلى الأرض، فما يبقى ذو روح إلا يصعق، ثم ينفخ فى الصور نفخة فيخرج الصوت من طرف الصُّوْر الذى يلى السموات، فما يبقى فيها ذو روح إلا يصعق، ما عدا إسرافيل،

فيأمره الله بالموت، فيموت، ثم يأمر الله السموات فتمور، والجبال فتسير، ويعود العرش على الماء، وتعود الأرض كما دحاها سبحانه أول مرة، وينادى سبحانه: لمن الملك اليوم؟

لله الواحد القهار.

والويل لى ولك من هذا اليوم. الويل لمن كتب هذا الكتاب، والويل لمن يقرأ مثلى أو يسمعنى مثلك إذْ أقرأ. قبرى قبرك قبرٌ تستعر ناره حتى ينادى المنادى فيلفظنى قبري، وتصير الأرض تحتى ناراً، والشمس فوقى ناراً، ويطير كتابى من خلف ظهرى حتى يقع فى شمالي، فيعجل إليّ ملك يدق عنقي، ويكسر صلبي، ويشد ناصيتي، حتى يأمر صاحب العزة: خذوه فغلّوه، فيبتدرنى سبعون ألف ملك غلاظ شداد، ويخلق الله لى سبعين جلداً، كل جلدٍ غلظته أربعون ذراعاً، وبين الجلد والجلد أربعون ذراعاً تضيق بالحيات والعقارب، ويصير مشفرى أطول من مشفر الفيل، وأذناى عضوضين بينهما سرادق من نار، ويكسونى سبعون سربالاً من قطران من نار، وفى رأسى الذى يصير مثل الجبل العظيم ينقبون ١٦٣ نقباً، فيخرج من النقب الدخان، ولكن بعدما يسيل من دماغى ٣٦٠ نهراً من نتن تعصفه ريح ذات أظفار كأظفار السنونو والعقبان. وما كل ذلك إلا مزاح إزاء ما ينتظرنى يا ابنتي: قطرة من الزقوم لو قطرت على جبال الأرض لساخت إلى أسفل سابع أرضين، فكيف بى وهو طعامى كما الغليّين طعامي، وكما هو الضريع؟ كيف بى يا ابنتى إذْ أسأل الشراب فيأتينى الحميم الذى يغلى فى جهنم منذ خلقتْ؟

ربما كان الليل قد انتصف عندما أنقذت ماما افتخار وزهور نديدا: يدان تتناولان الكتاب الأحمر من يدى الدكتور عبد الواسع، والكتاب الكحلى من فوق اللحاف إلى يمينه، يدان تساعدانه على أن يتمدد، كفّان تمسحان على جبينه لعله يغفو، يدان تساعدان نديدا على النهوض، وعليهما تتوكأ حتى

تبلغ الغرفة وتصحو من سدورها، يدان تساعدانها على أن تتمدد في السرير، كفان تمسحان على جبينها لعلها تغفو. وستغفو، ولن تغفو. وسينقضي نهارها وهي زائغة البصر، حتى إذا أهلّت الليلة الثانية من ليالي احتضار الدكتور عبد الواسع، تسللت إلى غرفته، وسرّها بقدر ما أقبضها أن لم تجد على وجهه لا غبرة الموت ولا صفرته، بل كان خداه متوردين كما لم ترهما منذ سنة، لكأنه لم ينقطع عن النبيذ ليلة.

كانت أنفاسه هادئة ومنتظمة، وكان صوته نقياً وهو يرجوها أن تساهره بعد أن ينام رمزي. ولما عادت إليه كان قد أدى صلاة العشاء بمشقة، وتربع في سريره، وأمر زهور بوسادة فوسادة خلف ظهره، وكان في يده الكتاب الكحلي، وإلى يساره، فوق اللحاف، الكتاب الأحمر. وقبل أن تستقر نديدا على الكرسي الملاصق للسرير بادرها مبتسماً:

- الموت قبقاب من حور، كل واحد يلبسه شوي.

ثم سألها عما إذا كانت تعلم أن الرجل إذا ابتكر المرأة تزوجها في الجنة، فنفت، وساءها أن تعود إلى رباح في الجنة، وتراءى لها رباح عريساً وهي عروس، هو يتعرى وهي تتعرى، وفجأة عضت شفتيها وجعاً وتأوهت، فصمت الدكتور عبد الواسع هنيهة، ثم تابع بصوت حنون وهو يحضن الكتاب:

- المطلّقة التي لم تمت في عصمة أحد أزواجها، لها أن تختار أحسنهم.

فهمّت بأن تذكره بأنها لم تتزوج إلا رباح. لكنها فكرت بأن عليها أن تتزوج مرة أخرى على الأقل، كي يكون لها أن تختار، وساءها أن لن يكون بمقدورها أن تختار إلا ممن تزوجوها.

بعد صمت طويل هذه المرة، أركز الدكتور عبد الواسع نظارتيه، وأكبّ على الكتاب الكحلي، فتوفزت نديدا خشية أن يتجدد هول ما سمعت في الليلة الماضية، لكن صوت الدكتور عبد الواسع جاء بهيجاً:

– ما من عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجليه قينتان من الحور العين، تغنيان بأحسن صوت سمعه الإنس والجن، وأول ما تغنيان:

نحن الحور الحسان

هدية لأزواج كرام

وبينما حدقت نديدا فى لون الكتاب، واستبشرت بما تسمع منه، تابع الدكتور عبد الواسع بحرارة:

– إذا أراد أهل الجنة أن يطربوا، أوحى الله إلى رياح يقال لها الهفّافة، فدخلت فى آجام قصب اللؤلؤ الرطب، فحركته، فضرب بعضه بعضاً، لتسرى فى الجنة ألحان كأنما صيغت من سحر. والذى نفسى بيده إن الله ليوحى إلى شجرة أن أسمعى عبادى الذين شغلوا أنفسهم عن المعازف والمزامير بذكري، فتسمعهم بأصوات ما سمع الخلائق مثلها وهى تتخلق فى حورية فحورية ينشدن:

نحن الخالدات فلا نموت

نحن المقيمات فلا نظعن

ونحن الناعمات فلا نبؤس

ونحن الراضيات فلا نسخط

طوبى لمن كان لنا وكنا له

طوبى لمن كتب هذا الكتاب. طوبى لمن يقرأ مثلى ولمن يسمعنى مثلك إذْ أقرأ.

الجنة الجنة يا ابنتي. أنهارها تفجر من جبل المسك، والعنقود من عناقيدها يقصر عنه ما بين الشام واليمن. الرمانة من رمانها كمثل البعير المقتب، ولأهلها طير عظام كمثل الإبل العظام الخرسانية، ظهورها خضر من ياقوت وآذانها وصدورها من ذهب، حمر المناقير زرق الأجنحة، تتلون ألواناً شتى فتصير صفرتها حمرة وحمرتها خضرة وخضرتها بياضاً. وكان قلب

نديدا يضاعف خفقه كلمة كلمة حتى باتت كائناً من نجوى، بينما يشف صوت فى ركن قصيٍ من أركان السماء، وهو يعدد كيف خلق الله الواحدة من الحور العين. من أصابع رجليها إلى ركبتيها من الزعفران، ومن ركبتيها إلى ثدييها من المسك الأذفر، ومن ثدييها إلى عنقها من العنبر الأشهب، ومن عنقها إلى رأسها من الكافور الأبيض، شعرها أطول من جناح النسر، وعليها سبعة آلاف حلة من شقائق النعمان.

أخذت نديدا تمّجد الخالق، بينما كان الصوت القصيّ يدنو وينجلى حتى ما عاد يفرق عن صوت الدكتور عبد الواسع، وهو يصف حوراء: جبينها كالهلال، وفى طول البدن منها ١٠٢٠ ذراعاً، وفى رأسها مائة ضفيرة، ما بين الضفيرتين ٧٠٠٠٠ نؤابة، والنوائب أضوأ من البدر، خلخالها مكلل بالدر وصنوف الجواهر.

رويداً تلاشى الصوت بينما راحت نديدا تلهج بحمد الله على أن خلقها أنثى. وكانت أصابعها تتلمس عنقها وعقدها قبل أن تحضن الحجر الذى بلا اسم. ولما تدفأ الحجر وأخذت الأصابع تتعرق، عاد صوت الدكتور عبدالواسع إلى شبابه، وقرأ أن الرجل من أهل الجنة ليتنعم مع زوجته فى تكأة واحدة سبعين عاماً، فتناديه أبهى منها وأجمل من غرفة أخرى:

– أما آن لنا منك دولة بعد؟

فيلتفت إليها سائلاً:

– من أنت؟

فتقول:

– أنا من اللائى قال فيهن سبحانه وتعالى: ولدينا مزيد.

فيتحول إليها، فيتنعم معها سبعين عاماً فى تكأة واحدة، فتناديه أبهى منها وأجمل من غرفة أخرى:

– أما آن لنا منك دولة بعد؟

فيلتفت إليها سائلاً:

- من أنت؟

فتقول:

- أنا من اللائى قال فيهن سبحانه وتعالى: «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون».

فيتحول إليها، فيتنعم معها فى تكأة واحدة سبعين عاماً، فهم كذلك يدورون.

أطبق الدكتور عبد الواسع الكتاب، ورامق نديدا قائلاً:

- الله جل جلاله فضل الآدمية على الحوراء فى الدنيا، وفى الجنة. الآدميات يا ابنتى أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف.

عندئذٍ كان حجر العقد الذى بلا اسم قد أوشك أن يقع على اسم له، لولا أن الدكتور عبدالواسع شهق شهقة عظيمة، كأنها شهقة الموت، لكنه لم يمت، بل أغفى طويلاً وعميقاً بقية ليلة احتضاره الثانية، وشطراً من الليلة الثالثة، ثم فتح عينيه، وشهق شهقة أعظم من شهقة البارحة.

مع الخادمة زهور ساهرت نديدا الموت. لم تغادر غرفة عمها، ولا سمحت لزهور أن تُقلق ماما افتخار، ولم تستنجد بأحد، حتى إذا شهقت زهور وولولت، شهقت نديدا مثلها، إلا أنها لم تولول، على الرغم من أن فزعها، ربما، كان أكبر من فزع زهور: صفرة الشمع الباهتة هى جلد الراحل، يباس، محجران فاغران، بَلَهٌ قاسٍ، أثر ما متناقض، ليس بالخوف ولا بالطمأنينة ولا بالسلام، وهذا هو صوت ماما افتخار يسبقها، ويسأل زهور عن ولولتها ثم يملأ الغرفة بالشهادة والنحيب الصامت. وبما أبقى العجز من أناملها تطبق عينى رفيق العمر رحمه الله.

ليل طويل ونهار أطول. ليل لا ينتهى ونهار لا ينتهي. ولأنه لم يبق فى بيت الكهرمان رجل، كان على نديدا أن تصير رجلاً ريثما يحضر سنان من

الجبهة. لكن سنان سيتأخر، لذلك طلبت من رباح أن يحضر، وأمرت ابتهال أن تخبر والد سنان، وسرعان ما امتلأ الصالون بالرجال، كما امتلأت غرفتا ماما افتخار ونديدا بالنساء، وبقى المرحوم وحيداً حتى جاء من يحمله إلى الجامع، ثم إلى المقبرة، حيث عاد وحيداً كما ستكون نديدا بعدما خلا البيت من الرجال، وتمددت زهور على حشية، على الأرض، إلى جوار سرير ماما افتخار.

دفعة واحدة استفاق الرهق والجوع والنعاس، كأن ما كان بنديدا من الخوف لا يكفي، فالموت لم يغادر البيت. مازال جاثماً فى غرفة الدكتور عبدالواسع. ومنذ غادر جثمانه البيت، تسللت ذراعُ للموت إلى غرفة ماما افتخار، فكان على نديدا أن تستنفر ما تبقى من قواها، وترابط فى سريرها، تنادى نظرتها الأخيرة لعمها، فتلبى أشتاتٌ وأصداء هى بنت ساعتها، أو بنت يومها، أو بنت زمن بعيد كانت نديدا قد نسيته تماماً لولا أن ذكّرها الموت به.

الموت؟

الشهيد رمزى الكهرمان؟ نديدا بنت السنوات العشر نسيت أباها، فكيف تتذكره ابتهال؟ هل كان له شبه بالدكتور عبد الواسع أم كان للدكتور عبدالواسع به شبه؟ لماذا لم تدققى مرة فى وجه عمك لعلك تتذكرين وجه أبيك وتستعيدين ما نسيت، وما كنت لتذكريه لولا الموت؟

صورة الشهيد لاتزال تتصدر الصالون، وغداً، أى بعد أيام، حين ينفضّ العزاء، ستحملين إلى ميناس كوزيان صورة صغيرة لعمك كى يكبّرها سريعاً سريعاً، ثم ترفعينها إلى يمين صورة الشهيد، أو إلى يسارها، فيكتمل عقد رجال بيت الكهرمان، ولكن على الجدار وفى الصور، إذْ لم يبق على الأرض من أثر لذَكَرٍ كهرماني. ولكن ماذا لو انقلبت الآية، وصارت الأنثى هى صاحبة الأثر، وليس الذكر؟

رجّ السؤال السرير، فارتجتّ نديدا، وتذكرت أنها وعدت ميناس كوزيان بصورة صغيرة لأبيها، كى يكبّرها ويضعها فى الواجهة الزجاجية البراقة. لكن نديدا نسيت الوعد كما نسيت صورتها هي: غداً إذن، أى بعد أيام، حين ينفض العزاء، ستحملين إلى ميناس كوزيان من الصور ما لا طاقة لك به، ولا له، كى يكبّرها على مهل، ثم تملئين بها جدران البيت جميعاً، فيحفّون ويحففن بك كما كان منذ الصباح: رباح بذقنه النابتة والكرافتة الكامدة مثل نظراته، شقيقه مطيع بشعره الفاحم اللامع ونظراته القلقة ووجنتيه الغائرتين كأنه نحل، بل وقصر، على العكس من والد سنان الذى سبق سنان، وجاء بطربوشه المتشامخ، يتكئ على عكاز بيمناه، وعلى ذراع غزال بيسراه، ويتقدمه كرشه الذى استعاده بعد المرض على عجل. أما غزال فقد ظهر وحده بالبذلة السوداء، والكرافتة السوداء، والقبعة السوداء. وحين صافح نديدا لم تسمع تمتمته، لأن أذنيها كعينيها كانتا تتأملان الخاتم الذى يتربع على الخنصر اليسرى، لكأنه واحد من الخواتم التى وزّعها الدكتور عبدالواسع وماما افتخار على نديدا وابتهال، لكنه خاتم زينة، وعليه إذن أن يفسح لخاتم الزواج الذى ستختاره نديدا من كنزها، وتهديه لغزال، حتى لو لم تكن هى العروس. ولعل غزال أدرك ذلك، فغلبه التأثر وهو يعود إلى مجلس الرجال، مفسحاً لهذا العريس الذى تهدل كتفاه، لكن صدره لا يزال عريضاً ومقبباً كأنه جاهز للمعركة: منذر كتو وقد تراجع شعره لأول مرة! إما أنه أجلح منذ سنين وإما أن نديدا لم تكن تبصر. عيناه أيضاً تتقد زرقتهما، وواحدة على الأقل من أسنانه الأمامية كسيرة، وواحدة على الأقل غائبة، لذلك لثغت تمتمته وهو يعزى نديدا التى لم تكن تبصر فقط، بل ولم تكن تسمع، مثلما باتت الآن وقد أعجزها النوم، واختلطت الأشتات والأصداء، فصارت الخادمة زهور أكبر عجزاً من ماما افتخار، لكأنها تنافسها على الموت، وصارت ميريل أحلى بالثوب الأسود، بينما بالغ الثوب

الأسود بسمنة ملك كبارة، وأعتم وجهها ونظراتها، كما فعل بالكثيرات، وبخاصة بجمانة: هل هى كذلك حقاً، أم إن هذا ما تريدين، على الرغم من أن رباح ما عاد يريد حتى أن يلقاك؟

ها هو الثوب الأسود يغمرك أنت أيضاً منذ الصباح. وها أنت ترفلين بالسواد على الرغم من أنك رميت الثوب هناك، فى أسفل الخزانة، وها هى سمنتك أربتْ على سمنة ملك، ها هى شقرتك انقلبت عتمة أشْوَه وأقسى من عتمة جمانة. ومن يدري، فقد يكون الموت أقرب إليك منه إلى ماما افتخار أو الخادمة زهور، بل وإلى والد سنان، ووالدة رباح.

ولكى لا يكون ذلك حقاً، انتفضت نديدا، فانتفض السرير، وانتفضت الغرفة، وتبددت الأشتات والأصداء، وما كاد الصمت يرين حتى تسلل حجر العقد الذى لا يزال بلا اسم، إلى أصابع نديدا، ثم حضن كفها، ومشى بها الهوينى إلى غرفة الدكتور عبد الواسع، وحمل - بدلاً منها - الكتاب ذا الجلد الأحمر، والكتاب ذا الجلد الكحلي، من على سطح الطاولة الأبنوسية، وتلفت بحثاً عن مطرح ليوئدهما فيه، فلم يقع إلا على الدرج الأسفل. ولما اختفى الكتابان فتحت نديدا النافذة، وأخذت تعبّ النسائم الباردة المعطرة التى أسرعت إليها من بعيد، من الغوطة ومن النهر. ولما أحست أن الروح تعود إليها، تراءى لها رمزى يقترب أسرع فأسرع ونداؤه يقترب أعلى فأعلى: ماما، ففكرت فى أن رمزى هو منقذها الوحيد من الموت، وقررت أن تستعيده من رباح غداً، أى بعد أيام حين ينفضّ العزاء.

من أجل ذلك ضربت لرباح موعداً فى البيت بعد الغداء فى الساعة الثانية. وبانتظاره اضطجعت على الكنبة فى الصالون، قرب الراديو الذى كان يلغو على هواه، قبل أن يخرس لثوان، ثم يطلق وشيشاً فاحماً، فنحنحة طويلة، هدر المذيع بعدها: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فزفرت نديدا

بضيق وحيرة: هل سيقرأ نشرة أخبار في مثل هذا الوقت، أم سيقرأ بلاغاً من بلاغات الانقلاب؟ وسرعان ما انطلق:

حوالي الساعة الواحدة من صباح الخميس ١٢ / ١٠ / ١٩٥٠ تصدى مجهولون لسيارة عسكرية كانت في طريق عودتها إلى دمشق بالقرب من دمّر وأطلقوا عليها الرصاص فأصيب أحد الضباط بجراح خفيفة، وقد استلم القضاء العسكري التحقيق في الحادث.

وفكرت نديدا بأنها محاولة اغتيال جديدة، وتعللت لتأخر رباح عن موعدها معه بسعيه خلف الخبر. لكن انتظارها لم يطل، وقبل أن يجلس حيث أشارت، قبالة المكتبة، بادرها متحسراً:

– نجا شلّيطا من محاولة اغتيال. حظه يفلق الصخر.

فاحتارت فيما إن كان لها الآن أن تطالب بعودة رمزي إليها، أم تؤجل ذلك ليوم آخر.

بعدما أسر السواد نديدا دهراً بطوله، تفتحت بالتايور الأزرق الصوفي المحلّى بالقطيفة، كأنها النجمة بول ريموند في آخر أفلامها، كما بادرتها ملك كبارة في ذلك الضحى التشريني البارد والغائم كأنه يعلن عن شتاء مبكر. وما إن جلست ملك قبالة نديدا حتى فتحت الملف المنتفخ وقدمت لملك ورقة قائلة: هذا تقرير الشرطة اقرئي. ثم قدمت ورقة قائلة: هذا بيان رئيس الوزراء اقرئي. ثم قدمت ورقة قائلة: هذا هو القرار النهائي لقاضي التحقيق العسكري والذي رفعه إلى مديرية العدلية العسكرية لإجراء الترتيبات اللازمة لتقديم المتهمين أمام المحكمة العسكرية، اقرئي. ولما انتهت ملك من القراءة انطوت الأيام بسرعة البرق، وظهرت نديدا بمعطف رمادي مطعّم بلون مبهم مثل لون الأزرار التي تصطف على الكتفين كأنها نجوم ضابط، وفوق النجوم مظلة، وفوق المظلة قطرات المطر تداعبها، ونديدا مصممة على أن تحضر الجلسة الأولى للمحاكمة على الرغم من أنها لم تعد وكيلة أسرة العقيد محمد ناصر، بعدما قررت الأسرة أن تقاطع المحاكمة.

قبل أن يلتئم شمل المحكمة رأت نديدا بدر الدين أتماز خلف القضبان قبل أن يراها فتلتفت عنه، ولا تسمح لعينيها بالعودة إليه، حتى لو كان من أجل أن تتأكد من أن ذقنه ليست حليقة، ومن أن شعره هائج كنظراته، بل وقبة قميصه وسخة وليست مكوية. وبدلاً من النظر إليه أدامت النظر إلى محاميّ الدفاع عنه وعن المتهمين الآخرين، وحاولت أن تتبين فارقاً بين السوريين واللبنانيين من أولاء المحامين، فقطع عليها المحاولة نداءٌ ووقوفٌ وجلوسٌ وصمتٌ وصوتُ رئيس المحكمة اسماعيل قولى يسأل النائب العام:

- ما رأيك فى أن تكون المحاكمة سرية بالنظر لصلة القضية بالنظام العام وبالجيش؟

قال النائب العام:

- سيدى الرئيس: لما كانت القضية تتعلق بمتهمين عسكريين، وتكنفها أمور خاصة لها تأثير على مصلحة الجيش، ولما كانت تتعرض لذكرى ضابط كبير راحل، فالنيابة تطلب اتخاذ القرار للسير بهذه القضية بصورة سرية.

عندئذٍ التفتت نديدا إلى بدر الدين، فتراءى لها أنه سُرّ بالقرار، وكان واحد من محاميّ الدفاع يترك أمر سرية المحاكمة للمحكمة. وسرعان ما أمر رئيسها بإخراج الحاضرين من القاعة.

أسرعت نديدا إلى البيت شأنها كلما غابت عنه منذ عاد رمزى ليدفئ سريرها، ولتحشر ثيابه ثيابها فى الخزانة، وتتراكم لعبه يوماً فيوماً فى أرجاء البيت كله. واقشعرّ جلد نديدا حين سمعت رمزى ينادى ماما، فترد ماما افتخار عليه: يا روح ماما، وترد الخادمة زهور عليه: يا حبيب ماما، فلا يبقى لنديدا إلا أن تسكت ليترقرق الدمع ملء عينيها، وهى تشرع ذراعيها وترفع عنقها، فيملأ رمزى صدرها بعبقه، ولا يترك لها دقيقة واحدة كى تعنى بنفسها مثلاً، أو تهتف لميريل فى اللاذقية، أو تفتح ملفاً ما من الملفات التى تعودت أن تحملها من المكتب لتدرس قضية أو تعد مرافعة.

وكان عليها قبل ذلك وبعده أن تشهد كيف تغسل الخادمة زهور رمزي، وكيف تطعمه مثلما كانت أم رباح تفعل. لكن نديدا تحاول هذه المرة أن تشارك في خدمة رمزى الذى بكى فى اليوم الأول لعودته إلى أمه، مطالباً بالتاتا، والتاتا ليست ماما افتخار ولا زهور، بل هى أم رباح التى تبكى انتزاع حفيدها منها كل يوم على ذمة رباح. غير أن رمزى ما عاد يبكى جدته، بل هو يتذكرها فقط، وفى أوقات يزداد تباعدها. ولعل هذا لا يرضى رباح، كما لعله لا يرضى التاتا أم رباح. ومهما يكن فما لا يرضى نديدا هذه المرة هو أن رباح أخذ يحضر كل يوم إلى بيت المرحوم عبد الواسع منذ صباح الوفاة حتى انتهى العزاء، حين أخبرته بأنها تريد أن يعود رمزى إليها، وتركته تائهاً بين الرفض والقبول، أى بين الفرح بقيام صلة جديدة أو مختلفة بينه وبينها، وبين الحزن، إذ لن يكون بمقدوره أن يرى رمزى أو أن يأكل معه أو يلاعبه أو يخرج به كل يوم، عدا عن أن أم رباح صاحت وناحت وعيّرت رباح بالخنوع لمطلقته، ودعت على المطلقة التى لا ترحم بشرّ الدعاء، ثم استغفرت ربها، وظلت تكرر ذلك أياماً بعدما خرج رمزى من حياتها ليملأ حياة أمه، ويجعلها تعترف بالصوت العالى أمام ماما افتخار أولاً، ثم أمام ابتهال، بأنها كانت أماً جاحدة لابنها، ولا تعرف الآن سبباً أ يبرر تخلّيها عنه، بل إن عودته جعلتها فى الآونة الأخيرة تسأل نفسها وهى ترمق رمزى غافياً، عما إن لم تكن بنتاً جاحدة أيضاً، فتتنكر أمها وتتشدق بدرة حفظي! وكان ذلك يخلّف لها وجعاً، كما كان الإحساس بالذنب يخزها أحياناً إثر حلم ما من الأحلام التى صارت تتكاثر على ليلها، ومنها ما يغلظ حتى ليكاد يكون كابوساً، كأن تظهر ماما درة وحيدة متهالكة وشبه عارية، كأنها شجرة مخلّعة،أو كأن تظهر مستغيثة، ولا من مغيث إلا نديدا. لكن نديدا لا تغيث، وفى حلم - كابوس - ظهرت ماما درة مثل واحدة من العاهرات اللواتى يقال إنهن يملأن باريس، وبجوارها يربض رجل مثل قاتل

فى فيلم، يضحك ويتغامز بفجور، وماما درة تباريه وتفجّ: حبيبى خطيب، ثم ترتمى فى حضنه أمام الناس، فيشد شعرها، ويعض شفتيها، ويشخر وهو ينظر إلى نديدا، فتستغيث ولا من مغيث حتى يظهر بدر الدين أتماز، ولكن فى حلم - كابوس آخر - قادماً من بعيد، من الفضاء أو من الظلام أو من جوف سيارة فارهة أو من قفص حديدى مخلّع. وعلى الرغم من أن خوف نديدا قد ضاعفه ظهور بدر الدين، إلا أن أنفاسها أخذت تهدأ كلما اقترب. ولما حاذاها أحست بالأمان، وقهقهت شامتة عندما رأت خطيب ودرة يتلاشيان. لكن بدر الدين باغتها بصفعة فصفعة فصفعة، وهو يشد شعرها، ثم يشخر ويندفع إلى شفتيها كأنه سيعض، فتستغيث، وإذا بكثيرين يندفعون لنجدتها، يتقدمهم ضابط مضرج بدمائه. وما إن رآه بدر الدين حتى ابتعد عن نديدا وهو يبربر هلوعاً: سيدى العقيد ما ذنبى إذا كان شلّيطا أمرنى بأن أقتلك؟ لو رفضت يا سيدى لأرسل من يقتلني. ونظرت نديدا إلى العقيد مشدوهة لأنها لم تره من قبل، لا فى يقظة ولا فى منام، ووشوشتها ميريل التى انتصبت إلى يمينها: هذا هو العقيد محمد ناصر، فقالت: لا يجوز أن ينتقم من قاتله، بل عليه أن يدعه للمحكمة، فاختفى القاتل والقتيل، وظهر سنان - ولكن فى حلم آخر - يلوح بجريدته، أى بجريدة حزبه (الجيل الجديد)، متسائلاً بغضب عن امتناع الصحف عن نشر بيان أسرة الشهيد، ومباهياً بالسطور التى أشارت إلى البيان. ثم دفع بالجريدة إلى نديدا لتقرأ فقرأت: تلقينا من أسرة المرحوم العقيد محمد ناصر بياناً مطولاً موجهاً إلى الرأى العام، تشرح فيه الأسباب التى دعتها إلى عدم حضور محاكمة المتهمين بقتل العقيد. ونحن إذ نمتنع عن نشر البيان لئلا يكون فيه حكم على نتيجة الدعوى قبل البت فى القضية، ولئلا يعتبر تدخلاً فى شئون القضاء الذى نحرص كل الحرص على استقلاله، لا نرى بداً من أن نعلن أن القضاء مفروض فيه أن يكون حارساً لقيم العدل فى المجتمع

السوري. ونحن واثقون أن القضاء الشامى لن يجعل الشئون السياسية أو الاعتبارات الأخرى من أية جهة كانت منسوباً إلى حصانته.

ولم يطل الوقت بعد ذلك حتى تبددت أحلام نديدا وكوابيسها ، ونشرت جريدة (الجيل الجديد)، نفسها كما نشرت سائر الصحف السورية واللبنانية، نبأ اغتيال محمد سامى حليم الحناوي، أى قائد الانقلاب الثاني، أى شلّيطا الثاني، وذلك فى بيروت، حين كان يصعد إلى الترامواي، فإذا بشاب سمّته الصحف حرشو، يشهر مسدسه ويطلق الرصاص على مهل، رصاصة رصاصة، حتى تلولب شلّيطا وانتفض وشهق وسقط.

ثم لم يطل الوقت بعد ذلك حتى هدر صوت رئيس المحكمة اسماعيل قولى فى جلسة علنية بالوقائع والأدلة التى تجعل أمر قضية اغتيال العقيد محمد ناصر مكتنفاً بكثير من الشكوك وغير قليل من الشبهات. وحيث إن الحدود تدرأ بالشبهات، والشك إنما يفسر لمصلحة المتهم، ولعدم كفاية الأدلة، ولذلك كله تقرر بالأكثرية ووفقاً لطلب النيابة العامة ومطالعتها براءة المتهم المقدم بدر الدين أتماز...

قبل ذلك بأكثر من شهر كانوا قد اجتمعوا فى مكتب الدكتور عبد الحنان مراد. كانت الرياح تعصف فى الخارج عصفاً، فترشق الوجوه بما تحمل، حتى بدا بعضهم فى المكتب كأنما لجأ إليه من الرياح، وليس من أجل الاجتماع الذى أخّره مرتين رحيلُ ميريل ومنذر إلى اللاذقية.

على عجل استذكروا العروسين، ولعنوا الطائفية والتخلف، ثم أقروا الصيغة النهائية لدراستهم الأحكام والإدارة العرفية، كما أعدّها الدكتور عبدالحنان الذى قال أخيراً:

- أنا أتعهد بتقديم ما اتفقتم عليه إلى وزير العدل. من يمكنه أن يقدمه للصحافة؟

قال سماح شوقى بك بحماسة:

- أنا. سأقدمه للصحف في دمشق وفي بيروت.

كان الاجتماع باهتاً. ولما انفض خيل لنديدا أن بعضهم يهرب منه، ولما همست بذلك للدكتور عبد الحنان قال:

- أظنهم قلقين. قلق البلاد يسرى فى الجميع. كما ترين: من قضية اغتيال العقيد محمد ناصر إلى قضية التآمر على سلامة الدولة إلى قضية اغتيال العقيد أديب الشيشكلي، وكل ذلك خلال ثلاثة أشهر.

وتابع، بينما مدت يدها إليه مودعة:

- مع أنى لا أظن أن من يعنيهم الأمر سيكونون مسرورين بما نقوم به، على الأقل فى هذه الفترة.

- نحن لا نقوم بشيء يذكر.

- لا تستهينى بما نقوم به. ماذا تعدين اقتراحك أنت بتقليص دور المحاكم العسكرية، بينما نحن ننتقل من محكمة عسكرية إلى أخرى فى قضايا هذه الشهور الثلاثة؟ إلى أين أنت ذاهبة؟

- إلى بيت ملك.

- ما كان لها أن تغيب عن هذا الاجتماع.

- ملك غاطسة فى قضية اغتيال الشيشكلي. ومن أجل ذلك تريدنى أن ألتحق بها فى البيت.

- أنا أيضاً عائد إلى البيت. يمكن أن أوصلك إليها. فقط دليني.

كانت سيارته مرابطة على أمتار من مدخل البناية، ورغم ذلك كان عليه وعلى نديدا أن يهرولا ويدرآ عن وجهيهما الغبار والقش. ولم تكد السيارة تلجئهما حتى سألت نديدا:

- هل تعرف من يدرب امرأة على قيادة السيارة؟

- لا. لا أعرف. ولكن لا يمكن أن يكون إلا زوجاً أو أخاً، هذا لو وُجِدَ. لماذا تسألين؟

قالت وعيناها تسرحان، كأنما تتذكران حلماً قديماً وغريراً:

– أريد أن تكون لى سيارة وأن أقودها بنفسي.

– رحمك الله يا رمزى الكهرمان. ما رأيتك مرة إلا قلت لنفسي: هذه البنت فيها من روح أبيها الكثير. كرمى له أنا مستعد لأن أدرّبك وإن كان ذلك مغامرة لى ولك أمام الناس.

قال والسيارة تدور حول نصب المرجة، ثم تنعطف صعداً. وأخذ الحلم ينتسج طوال الطريق من ضحكة، من خوف من الألسنة التى لن ترحم، من الاعتزاز بأول من تقود سيارة فى الشام، وبذكرى رمزي الكهرمان. وقال الدكتور عبد الحنان:

– أنا أكبر منه، عندما تخرجت فى معهد الحقوق لم يكن قد دخله بعد، ولم تتوطد صداقتنا إلا بعد عودته من فرنسا. أرجو ألا يحرجك أن أقول إن اغتياله شخصي، أقصد أنه ليس اغتيالاً سياسياً. أنت تعرفين دور أمك. يقال إنها اختفت بعد الانقلاب على حسنى الزعيم، هل هذا صحيح؟

كانت نديدا ضنينة بالحلم، ولذلك لم تسمع من كلام الدكتور عبد الحنان إلا ما يزوّق الحلم ويقربه، وأصمّت عما عداه. وبالحلم أقبلت على ملك كأنها هى من كان يقود السيارة للتو، وليس الدكتور عبد الحنان. لكن ملك دفعت نديدا أمامها إلى الطاولة التى تدافعت فوقها أوراق وملفات، وأمرتها بالجلوس إلى اليمين، وناولتها دفتراً صغيراً وقلماً قائلة:

– خفت أن تحضرى قبلي. عدت من نصف ساعة فقط.

– بعلمى أنك لن تخرجي. دوّختني وأنت تنادين: تعالى ساعدينى يا نديدا. القضية كبيرة، والوقت يضيق يا نديدا.

– ناداني من دبّر لى نسخة من قرار قاضى التحقيق العسكري، فهل أخرج أم لا؟ فى العودة عرجت لدقائق فقط لأطمئن على الأولاد عند جدهم

وجدتهم. أبوهم سيلحق بهم، والآن أنا مستعدة للعمل حتى المساء برفقتك الحلوة.

– وأنا لن أترك ابنى حتى المساء.

– إذن ركزى انتباهك على ما سأقرأ وسجلى ما يخطر لك. إذا لم أستفد من ملاحظاتك وأفكارك النيرة فلن أطلق سراحك حتى العشاء.

وبدأت ملك بالبلاغ الذى بثته محطة الإذاعة السورية منذ أسابيع، وفات نديدا سماعه، كما فاتتها قراءته. وربما كان ذلك ما جعلها تتابع ملك متشوقة، لترى شلّيطا شخصياً يخرج من قيادة الأركان إلى مطعم سقراط، فيتناول العشاء مع اثنين أو ثلاثة أو أربعة من الضباط الصغار، إذ لا يعنى نديدا عددهم ولا من يكونون، بل يعنيها أن تدقق فى قسمات وجه شلّيطا، فى لون عينيه، فى شاربيه وشفتيه وشعيرات أنفه وجوف فمه ولقمته ورشفة العرق والسيجار الذى لا ينطفئ. وحين يفرغ من العشاء تطير نديدا خلفه كما طار السائق والضباط الصغار حتى تحط السيارة أمام مقهى الأمير سعيد فى دمّر. هنا امتلأت الطاولة بالفواكه وحلت الأرجيلة محل السيجار، وتسارع امتلاء الكأس بالعرق وفراغها منه، حتى تجاوزت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، فنهض شلّيطا ونهض من حوله، وطارت بهم السيارة ونديدا تجهد للحاق بهم، وكادت أن تفعل لولا أن سيارة تجاوزتها ووازت سيارة شلّيطا وصبت الرصاص عليها مثل البرد، أو مثل زخة المطر، أو مثل غضب الله، فارتدت سيارة شلّيطا أمتاراً، وانقذف منها السائق والضباط الصغار وشلّيطا نفسه، وانبطحوا جميعاً على إسفلت الطريق وهم يطلقون الرصاص فى كل اتجاه.

عندئذٍ انطلقت السيارة المهاجمة، فأسرع شلّيطا ومن معه إلى سيارته التى ما كادت تنطلق حتى توقفت بموازاة شاحنة، وحرنت، فنزل شلّيطا

بنفسه ليحمل إليها مع السائق اثنين أو ثلاثة أو أربعة من الضباط الصغار الذين أصابهم الرصاص بجرح أو بمقتل، لا علم لأحد حتى الآن.

كانت نديدا ساهمة: عيناها جاحظتان وشفتاها متنائيتان وساكنتان، كمن يتابع بترقب فيلماً سينمائياً آسراً. ولما رأتها ملك كذلك هزت الأوراق في وجهها:

- اصحى أرجوك وركّزى معي. الآن سأقرأ تقرير قاضى التحقيق العسكرى.

فصحتْ نديدا وركّزت ما أمكنها ليكون بوسعها أن تتبين أسماء المتهمين من موقوفين ومن فارين. وأن تتبين التهم الموجهة إليهم. ولما ذكرت ملك مطيع أبو شلة صاحت نديدا:

- من؟ مطيع أبو شلّة؟

- نعم، شقيق رباح أبو شلة، نسيت طليقك يا خانم؟

قالت ملك ممازحة، ثم عادت إلى الأوراق وتابعت:

- اتهامه بجناية تأليف جمعية أشرار بقصد ارتكاب جنايات، والقتل القصد، وارتكاب أعمال إرهابية، والتدخل فى جناية، والظن عليه بجناية حيازة أسلحة بقصد ارتكاب جناية.

تمتمت نديدا بذهول:

- هذه التهم تكفى لأن تأخذه إلى حبل المشنقة.

قالت ملك:

- وصلنا إلى قائمة التهم الإجمالية. هذه تكفى الواحدة منها حقاً لأن تأخذ صاحبها إلى المشنقة. التهمة الأولى تشكيل جمعية كتائب الفداء العربي. التهمة الثانية إلقاء قنابل على الكنيس اليهودى مما أسفر عن قتل ١٣ شخصاً وإصابة ٢١ آخرين بعلل بالغة أو بعلل دائمة. التهمة الثالثة إلقاء قنبلة على المفوضية البريطانية بقصد الإرهاب. التهمة الرابعة تفجير

مؤسسة إغاثة اللاجئين الفلسطينيين بدمشق بقصد الإرهاب. التهمة الخامسة محاولة اغتيال الملك عبد الله ملك المملكة الأردنية الهاشمية. والتهمة الأخيرة محاولة اغتيال العقيد أديب الشيشكلي.

قالت نديدا:

– أريد أن أكون وكيلة مطيع. ما رأيك؟

قالت ملك متظاهرة بالغضب:

– لماذا مطيع وحده؟ لأنه شقيق رباح والحنونة حنّت؟

ولأن نديدا كظمت، أسرعت ملك تقول:

– مطيع أبو شلة وجورج حبش متواريان عن الأنظار. وعلمت أن مذكرتي توقيف على الغياب صدرت بحقهما. أنا توكلت عن هاني الهندي. يجب أن تكوني معنا يا نديدا. تقدم محامون كثيرون للدفاع عن المتهمين، وليس من سوريا فقط. من العراق أيضاً، من لبنان. والآن تعالي ندرس هذه التقارير.

– وماذا لو قلت لك: ما عدت قادرة؟

قالت نديدا وكفاها تحتضنان صدغيها، وشبّت فجأة كأنها مقبلة على شجار أو على فرار.

لم تهدأ الرياح طوال ذلك اليوم. ولم تكن أقل عصفاً في اليوم التالي، لكن نديدا بكّرت إلى المكتب، وإلى الاتصال برباح. ولما حضر كانت عاجزة عن الكلام، فأصغت إليه طوال الوقت. ولما انصرف احتضنت كفاها صدغيها، وأخذت تستعيد صوت رباح، وحركة شفتيه، ونظراته، وقلق أصابع يديه، ورجفة ساقيه، وتركته يحكي كأنه يبكي: مطيع؟! أنا أخوه الأكبر تعرفين، أنا أخوه الوحيد. أنا كأني أبوه. كأني صديقه. لماذا أهملته في السنوات الأخيرة؟ لماذا تركته لقمة سائغة لغزال حاج تميم؟ غزال هو من سمم رأس مطيع. مطيع بدأ يردد أفكار غزال في السنوات الأخيرة، بل كان

يردد كلامه. لم أنتبه، لم أهتم. كثير من تلك الأفكار هى أفكارى أيضاً. لكن غزال فى كثير من الأحيان هو قومى عربى متطرف. أنت لا تعرفينه. غزال أصاب أخى بعدوى التطرف. كان مطيع أقرب إلى الاشتراكي، مرة ترينه أقرب إلى الاشتراكى الشيوعى ومرة يصير أقرب إلى الاشتراكى الإسلامى ومرة أقرب إلى الاشتراكى العربي، وكان أيضاً أقرب إلى القومى العربي، لكنه لم يكن متطرفاً. منذ أكثر من شهر اختفى. أمى تكاد تموت قهراً. كانت لا تنطق إلا باسم رمزى بعدما فقدته، صارت لا تنطق إلا باسم مطيع. مطيع مسالم، تعرفين. لا يمكن أن يقتل. لا يمكن أن يطلق الرصاص أو يشارك فى مؤامرة ولا فى جريمة. أنا أتمنى أن نتخلص من شلّيطا. ولكن ليس على يد هذا الشاب الوديع الطيب. ليس على يد مطيع. لولا اختفاء مطيع لكنت تزوجت. طبعاً من جمانة. هل طلب غزال يدك؟ لماذا تنظرين لى بكل هذا الرثاء؟ اغتيال العقيد محمد ناصر أخّر زواجى أول مرة ومحاولة اغتيال شلّيطا أخّرته هذه المرة. ما هذا الحظ؟ أنا متشائم وجمانة متشائمة ولكننا سنتزوج. ماذا تريدين أن أفعل؟ وحياتك إذا اتصل بى مطيع سأحاول المستحيل أن أجمعك به. ثقى بى على الأقل هذه المرة. أنا ممتن وهو سيكون ممتناً لرغبتك بالتوكيل عنه. أمى لن تصدق. لا أعرف ما إذا كان سيسرها مثل هذا الخبر أم لا. نسيت أن أسألك عن رمزي. أحياناً أفكر أنها غلطتى وغلطتك. أقصد بقاء رمزى عندى أو بقاءه عندك. أنا أشتاق له ليل نهار. أشتاق له يا نديدا أكثر من أمي. أشتاق له أكثر مما كنت تشتاقين له وهو معي. آه من الجرح الذى تسببت لى به عندما بدأت تتذمرين من حضورى كل يوم بعد وفاة الدكتور عبد الواسع رحمه الله. أنا لست عاتباً. هذا حقك وهذا بيتك. ولكنى شعرت قبل أن تلفظى كلمة أننى مطرود. أنا لن أطالبك بحقى فى مشاهدة ابني. على الأقل عاملينى كما عاملتك. سأحضر فى الأسبوع مرة وأصطحب رمزى ليقضى معى ومع التاتا أمّ رباح النهار كله.

اختارى اليوم الذى يناسبك. بل لماذا لا ينام عندى مرة فى الأسبوع؟ أحياناً أفكر أننى ما عدت رباح أبو شلة، ما عدت الصحفى الشمام. ما عدت أساوى نكلة، وكله بسببك سامحك الله.

بعد الظهر سكنت رؤوس الأشجار، واتقدت الشمس ملء السماء الصافية، فأسرعت نديدا برمزى إلى ابتهال، ليلعب مع ابنتيها. وبعد قليل وصل سنان مرهقاً وجائعاً، وبادر نديدا معاتباً:

– ما عدت أراك إلا نادراً بعد وفاة الدكتور.

وأسرع إلى الحمّام، فانتظرت حتى خرج، ولم تنتظر حتى يتناول غداءه، إذ عاجلته بالسؤال عن رأيه بهذه السلسلة المقلقة التى ابتدأت منذ نهاية تموز، ولا تبدو نهايتها قريبة: من اغتيال محمد ناصر إلى محاولة اغتيال الشيشكلى إلى اغتيال الحناوى إلى ماذا يا سنان؟ لماذا كل هذا يا سنان؟

قالت ابتهال:

– أمهليه حتى ينهى طعامه.

قال سنان شاكياً ومتمسكناً:

– تخاطبنى كأنى المسئول عن كل ما يجرى.

قالت نديدا:

– من منا ليس مسئولاً؟ أقصد أنتم الرجال خصوصاً، وخصوصاً العسكرى منكم.

قال سنان:

– من يسمعك يظن أنك قائدة سياسية.

– ولماذا لا أكون مع أنى أحمد الله على أن لا علاقة لى بالسياسة؟

قالت وهى تندفع إلى الغرفة التى علا فيها صراخ رمزي، ولما عادت أعلنت نيتها بالدفاع عن مطيع أبو شلّة، فقال سنان:

– خلّ الدفاع عن هذا الطائش لغيرك.

قالت بانفعال:

- رباح ينعت أخاه بالتطرف وأنت تنعته بالطيش. أنت تعرف ما بين مطيع وصديقك غزال. وأنا أعرف أنك ضد الصهيونية وإسرائيل، ضد أمريكا وبريطانيا وكل من يساند الصهيونية وإسرائيل. لو أمكنك أن تضرب لهم مصلحة في أي مكان فهل كنت تقصّر؟ ماذا فعل مطيع ورفاقه غير ذلك؟

- أنا لا أضرب اليهودي لأنه يهودي. تعرفين: حزبنا ضد الطائفية. أنا لا أضرب الكنيس. هذه طائفية ونحن ضد الطائفية.

- ضرب الكنيس أبسط تهمة موجهة لهؤلاء الشباب. التهمة الكبرى أو الأساسية، حتى لا أقول الوحيدة، هي محاولة اغتيال الشيشكلي.

- كأنك تركضين خلف متاعب أنت في غنى عنها. لا تنسى أنك امرأة في هذا المجتمع. حتى لو كنت محامية، بل حتى لو كنت قائدة سياسية. وعلى كل حال أنت شقيقة ابتهال. حتى المقدم مرقص العميا بنفسه لن ينسى أن شقيقة زوجتي تدافع عن متهم باغتيال الشيشكلي.

- أنا خائفة يا سنان. منذ مدة أعددت مع مجموعة من المحامين والمحاميات مذكرة واقتراحات لتعديل الأحكام العرفية والإدارة العرفية. كان عليّ أن أطلعك على ما أعددنا وأسمع رأيك. أنا الآن زاهدة بكل ذلك. الآن أفكر أن سنان عبد المنعم عسكري وبدر الدين أتماز عسكري. هو مقدم وأنت مقدم. هو يمكن أن يقود انقلاباً في يوم من الأيام كما يتنبأ له رباح، وأنت أيضاً. تجمع العسكرية بينكما ويفرقكما ما عداها. ولكن ماذا لو كانت أقوى من كل ما عداها؟

- بدون العسكرية، بدون الجيش، لا تقوم للدولة قائمة. لا في هذه الأيام ولا في أي يوم من الأيام.

- هذا صحيح. ولكن بدلاً من أن يطمئنني ذلك، أراه يخيفني بعدما رأيت خلال أقل من سنة. كم انقلاب جرى وكم اغتيال؟ المقدم مرقص نفسه قال لك: الخير لقدام.

وفجأة هجم من الغرفة صراخ رمزى فاندفعتْ نحوه، بينما ظهرت ابتهال وهو على صدرها، وابنتاها تتقدمانها باكيتين، فاندفع سنان نحوهما، واشتبك لغط الصغار بلغط الكبار.

اللاذقية فى ١٠ / ١٢ / ١٩٥٠

صديقتى الغالية وأختى الحبيبة نديدا:

أقبل وجنتيك الضاويتين. منذر أيضاً يسلم عليك ويقبل خديك وأنا أسمح له.

لو كان لك زوج فهل كان سيسمح لمنذر بمثل هذا السلام؟

آه يا نديدا كم أنا مشتاقة لك وكم أنا مشتاقة للشام.

مشتاقة لأمى وأبى وأخى والبيت والبركة والأصايص وباب الدار وسقاطة الباب وحجر الزقاق ورائحته ونور السماء الهابط عليه وقطرات المطر الهابطة عليه يا ربي.

يا ربى كم أنا مشتاقة لك ولكل من فى الشام. حتى لمن أجبرونى وأجبروا منذر على الهجرة. حتى للدعاوى والمحاكم عندكم لها نكهة مختلفة عنها فى اللاذقية.

بالمناسبة حتى الآن ما استفتحت بقضية لكن منذر استفتح. وبالمناسبة منذر يرافقنى كل أحد إلى كنيسة اللاتين القريبة من البحر. وأحياناً إلى كنيسة السيدة فى سوق البازار. لو كنت أستطيع أن أرافقه إلى أى مسجد أو جامع لكان لا يفوّت يوم جمعة وكنت طبعاً سأرافقه.

أريد أن أحكى لك عن حياتنا هنا. بيتنا حلو وصغير ومطل على البحر ولكن من بعيد. أحلى مشوار يا نديدا يبدأ من شرق بيتنا نزولاً من وسط المدينة فى ساحة الشيخضاهر إلى البحر. هناك تمشين بجانب الماء وإذا صادفك غضب البحر فعليك أن تبتعدى وحتى لو ابتعدت سيصيبك الرذاذ على الأقل. أنا أمشى كل يوم هذا المشوار وأمشى عشرة غيره. تستطيعين

أن تقولي لا عمل لي إلا المشي. وجودي في المكتب مثل قلّته حتى الآن. بفضل المشي صرت أعرف اللاذقية أكثر من منذر بكثير. صرت أعرفها مثل أهلها. على البحر كازينو سنسهر فيه معا إن شاء الله. سنتغدى في مطعم شناتا مقابله وسنتناول قهوة الصباح في مقهى شناتا أيضاً. سنزور البطرني والمغربي. لاحظي أني أتحدث مثل أي مسلمة مع أني مازلت مسيحية. سندور في البساتين ونتفرج على المرفأ الجديد وعلى القناطر والعواميد. إنت بسّ تعالي. البرد هنا محمول غيره في الشام. أنا أطبخ على أرفع مستوى. لست مثل ست الحسن نديدا الكهرمان المتعودة على الخدم والحشم. والمسيح بتستاهلي يا نديدا يا حبيبتي.

منذر الذي لم يكن يجلس في المقهى في الشام إلا نادراً، ما بقي مقهى في اللاذقية يعتب عليه. في البداية كان يكتفي بمرة في الأسبوع أو مرتين، في مقهى السباهية القريب من البيت. بعد مدة صار يجلس يوماً في مقهى السوركة ويوماً في مقهى السماكة ويوماً في مقهى أبو سالم وكل يوم يرجع لي بحكاية جديدة. وبفضل المقاهي، وطبعاً بفضل عمله، صار لنا أصدقاء ومعارف بسرعة، وفي المقدمة أذكر لك جبرائيل سعادة. هو الآن أقرب من الجميع إلينا. فنحن نرافقه في المساء إلى النادي الموسيقي. أحياناً يذهب منذر معه إلى نادي اللاذقية الرياضي الذي أسسه جابي وترأسه كما أسس السنة الماضية رابطة أصدقاء أوغاريت. الرجل يفيض حيوية ودماثة وثقافته واسعة ولغته الفرنسية مثل لغة نديدا الكهرمان إذا لم تكن أفضل. حدثته هو وغيره عنك وعن الآخرين كما حدثهم منذر عن دراستنا للأحكام والإدارة العرفية. بعضهم حبذ الفكرة وبعضهم حذرنا من غضب من يهمهم الأمر. لا تحتاجين لمترجم. يقصدون شلّيطا ومن لفّ لفّه.

الجريدة التي نقرأها كل يوم هي الشاطئ الجديد. ويوم الخميس الماضي في المساء زارنا في البيت صاحب الجريدة ومعه ثلاثة رجال كبار ومتأنقين.

لم أسهر معهم لكنى كنت أسمع حديثهم من غرفة النوم. واحد منهم على الأقل ماسوني. سمعته يتحدث عن فرع المحفل الأكبر السورى العربى فى اللاذقية وفى القامشلى وفى معرة النعمان. سمعته يتحدث عن عودة المحفل إلى العمل بعد العطلة الصيفية. شو يعنى كأنه المحفل مدرسة؟ سمعت شخصاً آخر يتحدث كأنه يقرأ فى ورقة. الرجل كان فعلاً يقرأ كما قال لى منذر بعد انصراف الضيوف وهو يلوح بالورقة. كان الرجل يحرض على التخلص من الاستعمار الماسوني. هكذا قال بالحرف. كما كان يحرض على الاستقلال الماسونى التام لنا فى سوريا. هكذا قال بالحرف. منذر قلّد الرجل وهو يقرأ عليّ كأنه يخطب فى مظاهرة: ونحن نرفع آيات الشكر والامتنان والتهانى المقرونة بعواطف الصدق والإخلاص بالنهضة الجديدة والعام الجديد للجيش السورى الباسل الممثل بشخصية حامل لواء الحرية والعدالة والاستقلال الأخ العارف العقيد أديب الشيشكلى الفائق الاحترام حامى الماسونية السورية العربية. يكفى هذا. أنا أيضاً أقرأ عليك الآن ما نقلته من الورقة لك. شلّيطا إذن يا صديقتى ماسوني. منذر يظن أن كل شلّيطا ماسونى والعكس ليس صحيحاً. إخاء حرية مساواة... ماذا تريدين أحسن من هذا الشعار؟ كرمى لهذا الشعار يمكن أن أصير ماسونية. إياك أن تصدقي. أنت تعرفين: لا أنا ولا منذر نحب الأحزاب أو الجمعيات.

عندى من الفراغ كثير يا نديدا. أقرأ قليلاً وأسمع الراديو كثيراً. تولعت بصوت أم كامل وتمثيلياتها الساحرة. لا أستطيع أن أتصور أن أم كامل هى أنور البابا. كان عليّ أن أتعرف على هذا الفنان. جارة من جاراتى مولعة بالراديو مثلى ومنها تعلمت أغنية سمحة العراقية: على سرير النوم دلّعني. لا تستحي. بعدين أنا لسه عروس. من جارتى هذه تعلمت أغنية فريدة محيش: فين حزامى يا نينه؟ كل ما تحفظه هذه الجارة هو من هذه النوعية.

آه يا نديدا.

لا أصدق متى يأتي اليوم الذى أعود فيه إلى الشام وأتصالح مع أهلي ومنذر يتصالح مع أهله. حتى هنا فى اللاذقية بعض من سمعوا أنني مسيحية تزوجت من مسلم لم يرق لهم زواجنا. بين جاراتي واحدة مسيحية همست فى أذني غير مصدقة أو مستنكرة. تعالى يا نديدا زورينا. الدنيا مقبلة على عيد الميلاد ولأول مرة فى حياتي سأعيّد بعيدة عن أهلي وحارتي وكنيستي وصديقاتي. تعالى عيّدى معى ينولكْ ثواب. تعالى مع رمزى ومع من تشاءين لتشبعي من البحر ومن البساتين حتى ولا فى الغوطة. أنت ما وصلت إلا إلى جبلة وعدت مسحورة. كيف لو جئت إلى عند أختك وحبيبتك ميريل.

سلمى لى على الشام وأهل الشام وتراب الشام ومن جديد أقبل الوجنتين الضاويتين أنا وحبيبى وصديقك منذر والسلام.

المشتاقة

ميريل جميرا

بوغتت الشام بأيام من الدفء والنسائم اللطيفة، كأنما سُرقت من زهوة الربيع إلى زهوة الشتاء. وبمثل ذلك بوغتت نديدا منذ ناداها غزال إلى لقاء: فى مطعم، فى بيتك، فى بيتي، حتى فى بيروت، اختاري، ولكن ليس فى مكتبك ولا فى مكتبي.

كان المرض قد عاد إلى والد سنان. وكانت زيارة المريض قد جمعت نديدا وغزال، ولكن فى زحام أقلّ منه قبل شهور، وبخاصة: فى غياب رباح وجمانة، فضلاً عن غياب سنان.

بيد أن مطيع كان الغائب الحاضر، منذ بادرت نديدا بسؤال غزال عنه. وانقلب كدر غزال إلى بهجة عندما أعلنت نديدا عن عزمها على الدفاع عن مطيع: ولكن يجب أن أراه.

قالت نديدا وهى ترمى غزال بنظرة خاصة أربكته، فنظر إلى والد سنان كمن يستنجد، فتمتم المريض:

– اللهم خلّصنا من هذا الوباء.

– أي وباء؟

سألت نديدا، فقال غزال:

– شلّيطا. يقصد شلّيطا. هو يعد شلّيطا وباء. ولكن ما نفع الدعاء؟

قالت نديدا:

– أنا لا أؤيد الاغتيال. لا يمكن أن أؤيد القتل. أنا محامية والقتل يتّمنى ويتّم أختي. الاغتيال يتّمنى ويتّم أختي.

قال غزال بلهجة حاسمة:

– لا خلاص إلا بالانقلاب. والانقلاب يمكن ألا يكون دموياً. اطمئني.

– تقصد الانقلاب العسكري؟

– لا انقلاب غيره. دعيك ممن يتشدقون بغير هذا، وأنا كنت واحداً منهم. الانقلاب الأول لم تسل فيه قطرة دم، ولا الانقلاب الثالث.

– ولكن قائد الانقلاب الأول أُعدم أم لا؟ حسنى الزعيم كيف مات؟ وقائد الانقلاب الثانى اغتيل أم لا؟ كيف مات سامى الحناوي؟ ولكى تكون فضيحتنا لائقة بنا، جرى اغتياله فى بيروت.

– هل لديك حل آخر؟

– بدأت أفكر فى هذه الفترة فى أن الانقلابات مصيبة وقعت على رؤوسنا كلنا. حتى على رأس الانقلابى نفسه. هذه المصيبة لن تنتهى إلا إذا انتهت الانقلابات. انتهت الانقلابات يعنى انتهت الانقلابات العسكرية. يعنى أن يعود الجيش إلى الثكنات. أليس هذا ما كان ينادى به العقيد محمد ناصر كما نقلت أنت عنه؟

– ما عاد يُسْمَع لا نداؤه ولا نداء أمثاله.

– أما أنا فأظن أن الأحزاب التى تنادى بالانقلاب هى كلها عينها على البذلة العسكرية. شهوة السلطة تكاد تعمى الجميع. هذا سنان وأمثاله على

الجبهة، ماذا يفعل الآخرون هنا؟ ماذا يفعلون فى الإذاعة وفى المطاعم وفى الملاهى وفى الشوارع؟

– لا يمكن أن يكون الجيش كله على الجبهة.

– المهم ألا يكون فوق قبة البرلمان أو فوق القصر الجمهوري.

– أتاتورك كان عسكرياً أم لا؟

– أتاتورك حوّل الهزيمة إلى انتصار. انتصر علينا على الأقل وطارت اسكندرون من سوريا. لا تجوز هنا المقارنة، ومع ذلك ها هم أمامك: شلّيطا الأول وشلّيطا الثانى وشلّيطا الثالث حولوا الهزيمة فى فلسطين إلى انتصار ولكن على من؟

– إذا كنت تقصدين على الشعب فأنت مخطئة. الشعب هو الذى ينتصر ولا أحد ينتصر عليه.

– إذن من الذى هُزم فى فلسطين؟

– إلى أين تريدين أن تصلي؟

– لا أعرف. من فترة قلت لسنان: أنا خائفة. والآن أكرر: أنا خائفة. هل ما جرى فى فلسطين هو النهاية؟

– بل هو البداية. هو جولة لا أكثر ولا أقل.

– إذن أمامنا جولة أو أكثر من جولة، فماذا لو تكررت الهزيمة ورجع المهزوم لينتصر علينا من جديد؟ ماذا لو طاب له أن يبقى هنا منتصراً وأدار ظهره لفلسطين وللدنيا كلها إلا ما يؤبد انتصاره علينا؟

وبينما أرجح غزال رأسه وفرك كفيه بضيق تمتم أبو سنان:

– اللهم خلصنا من هذا الوباء.

لم يكن فى غرفة المريض إلا غزال ونديدا بعدما التحقت ابتهال بالنساء فى الداخل، وبدلاً من أن يتابع غزال الحوار، طلب من نديدا موعداً على مسمع من المريض الذى ابتسم، فابتسمت، واستمهلت غزال يوماً أو يومين.

وسرها من بعد أنها فعلت، كي يكون بمقدورها أن تقرر أن يكون اللقاء هنا، في الصالون، على مشهد من أبيها وعمها وجدها، ومن هذه المكتبة، وهذا الراديو، وصخب رمزي، وجرى الخادمة زهور خلفه، وفرحة ماما افتخار به، وشرود نديدا: أنت تتواطئين على من وعلى ماذا؟ أبو سنان يشتغل خاطبة والعنول هو رباح والعريس هو غزال، ولكن أنت من تكونين؟

بالفستان الصوف الذى يتموج به الأحمر الترابي، استقبلت غزال الذى أقبل حذراً بل واثقاً، بل متشنوقاً، بل مرتبكاً، وربما لذلك أسرع إلى القول:

- لك سلام من مطيع وهو سعيد جداً بأن تكونى محاميته. قال: الآن يمكن أن يسلّم نفسه.

وبدا كأن كل ما بغزال قد انتقل إليها: حذرة وواثقة ومتشوقة ومرتبكة معاً. وربما لذلك أسرعت إلى القول:

- نقل لى رباح أن والد سنان رشّحنى لك أماً للبنين. أرجو ألا تكون هنا من أجل ذلك.

تمهل حتى كررت عيناه الطواف فى أرجاء الصالون، ثم قال:

- ما نقله رباح صحيح. وأرجو ألا أكون فجاً لو قلت لك إننى لست هنا من أجل ذلك.

- إذن من أجل ماذا؟

- لأتعرف عليك جيداً إذا أمكن. أنا معجب بشخصيتك كشابة ومحامية. قلت هذا أكثر من مرة لسنان كما قلته لرباح ولمطيع وحتى لأختى جمانة. ولابد أنه وصلك.

- لم يحدثنى أحد منهم بذلك. لكنه ليس مفاجئاً. كنت أخمنه، وربما كنت أتمناه.

- صراحتك مخيفة.

- لست هكذا دائماً.

- هذا خاص إذن. هذا يسعدني جداً.
- لا تتسرّع ولا تبالغ.
- وهذا يسعدني أيضاً: أن أسمع مثل هذه النصيحة من شابة مثلك وأنا من يقترب من الخمسين، ويدّعي أن له من الخبرة أو الحكمة كما يقولون، ما يكفي.
- قيل لي إن الفن أساسي في حياتك.
- رباح أيضاً؟ هذا صحيح.
- أتمنى أن تحدثني عن هذا.
- يبدو أنك أنت من ستتعرفين عليّ.
- هذا صحيح.
- من أين أبدأ؟ من الأسبوع الماضي. من آخر فيلم شاهدته في بيروت: لص بغداد. لا أظنك شاهدته.
- ولا سمعت به.
- جون دوبريز تلعب به دور بنت الخليفة بشكل فاتن. أنا أتابع في هذه الفترة ممثلات هوليوود. أنا معجب بهيدي لامار التي لعبت دور دليلة. معجب بإيفين كير التي لعبت دور الجنية في فيلم ألف ليلة وليلة. هل يضايقك لو قلت إنها تشبهك؟
- وأنا هل أشبهها؟
- سأقول لك ما يقوله الشعراء: أنت لا تشبهين سواك. لي أصدقاء كثر من الشعراء، وعلى رأسهم نزار قباني. عندما يعود من أنقرة سأعرفك عليه.
- أتمنى، كما أتمنى أن تتابع.
- باريس هي التي علمـــتني الفن. يجب أن تزوري باريس. ولن تحلو زيارة باريس إلا برفقة من كان مثلي.
- غزل جديد وإغراء، قلت لك لا تتسرع ولا تبالغ.

– وأنا لم أنسَ النصيحة، لكنها باريس يا نديدا. سماء باريس سماء لطيور الحب. باريس المعتقة مثل نبيذها، نهر السين نهر من الحب. بعضهم يراه نهراً من حبر. هذا صحيح، باريس ثقافة، ولكنها أيضاً حب. بل أولاً هى حب. لن تصدقى أن باريس عاصمة استعمارية. وعلى كل حال أنا عرفتها عندما كانت كذلك. أنت ستعرفينها وهى ليست كذلك، على الأقل بالنسبة لنا.

– أنت واثق إذن من أننى سأزورها.

– من كانت مثلك لا يمكن إلا أن تعرف باريس، وليس فقط تزورها. ما لست واثقاً منه أنك ستزورينها برفقتي.

– للمرة الثالثة: لا تتسرع ولا تبالغ.

– حاضر. ما الذى تريدين أيضاً أن تعرفيه؟

– هذا كل ما عندك؟

– عندى الكثير. ولكننى لا أعرف من أين أبدأ. أظنك انتبهت فى بيت والد سنان إلى أين كان يذهب نظرى منك.

– إلى أين؟

– إلى حيث ذهب مرة بعد مرة منذ جلسنا هنا.

قال وعيناه ترمقان عنقها والعقد والحجر المجهول. ولحقت أصابعها بعينيه وهى تقول بغنج :

– أعرف.

– عمرى ما رأيت مثل هذا العقد ولا مثل هذا العنق.

– للمرة الأخيرة: لا تتسرع ولا تبالغ. كأن النصيحة لا تنفع معك.

– ولا العقوبة.

– ما اسمه؟

سألت وقد دفعت بالحجر إلى الأمام، فهفا إليه وهمس بذهول:

- لست جاهلاً بالعقود والحلى والأحجار الكريمة. لكنى لم أر مثله من قبل.

- سمّه إذن.

- سأفعل. سأفعل فى يوم غير بعيد.

- هذا كل ما عندك؟

سألت مصطنعة الجد، فتلون صوته بالنجوى:

- أنا بحاجة إلى ما لا عدَّ له من مثل هذا اللقاء كى تعرفى ما عندي. وقد أكون بحاجة إلى أكثر من ذلك كى أعرف ما عندك. لماذا لا نبدأ خطوة خطوة؟

- بماذا؟

تساءلت وهى تنهض لتتناول من زهور صينية القهوة، وكان رمزى يشد فستان زهور من الخلف بعنف. وقبل أن تستقر الصينية فى يد نديدا كان رمزى قد اندفع إليها وشدّ فستانها بعنف أكبر، فاندلق فنجانا القهوة فى الصينية، على رأس رمزي، وفستان نديدا، وحافة الكنبة، وبنطال غزال، وفرقع الضحك.

قبل ابتداء المحاكمة بيومين زارت نديدا وملك والدكتور عبد الحنان رئيس المحكمة اسماعيل قولى فى مكتبه، ليشكروه على اعتراضه وحده على قرارات المحكمة ـ وهو رئيسها ـ فى قضية اغتيال العقيد محمد ناصر، ولولا اعتراضه لصدرت القرارات بالإجماع.

وفى هذا الصباح الذى صفع الشام بإبر البرد وهو يَعِدُها بالمطر، انحشرت نديدا وملك بين المحامين، كما انحشر مطيع أبو شلة بين المتهمين، بينما جلس بدر الدين أتماز فى أقصى اليسار. وحين التقت نظرته بنظرة نديدا أومأ محيياً، فردت بجفاء. وسرعان ما بدأت المحاكمة وجاهياً بعدما قدمت النيابة العامة مطالعتها بالنسبة للمتهمين الفارين، وأولهم جورج

حبش، فتقرر تفريق محاكمتهم عن الموقوفين، كيلا يتأخر النظر فى الدعوى ضد هؤلاء: قال النائب العام، وصدّق رئيس المحكمة الذى تلا مذكرة الاتهام، فتقارير الشرطة عن حادث الكنيس اليهودي، وعن حادث نسف مؤسسة إغاثة اللاجئين الفلسطينيين، وعن حادث المفوضية البريطانية، ثم تلا الرئيس لائحة الأسلحة المصادرة ليلة محاولة اغتيال العقيد أديب الشيشكلي. وما كاد الرئيس يبلع ريقه حتى جلجل صوت النائب العام مطالباً بأن تقرر المحكمة تحذير أصحاب الصحف من نشر اسم أية دولة يرد ذكرها فى الدعوى والاكتفاء بذكر (دولة أجنبية)، فلبت المحكمة الطلب فوراً.

عندئذٍ طلبت نديدا باسم وكلاء الدفاع من المحكمة أن تقرر عدم صلاحيتها للنظر فى القضية المعروضة. لكن المحكمة تهامست لثوان قبل أن يرد الرئيس الطلب، ثم بدأ استجواب المتهمين، وكان مطيع أبو شلة أولهم.

خلف نديدا كان رباح وغزال يجلسان، وتتوسطهما أم رباح التى لم تنشف دموعها، ولم تغادر عيناها وجه مطيع الذى بدا بالغ النحول والشحوب.

أنكر مطيع جميع التهم المنسوبة إليه: لم أشارك فى حادثة شلّيطا - لم يقل العقيد أديب الشيشكلى - ولا فى أية حادثة أخرى. لم أحمل السلاح ولم أساعد جورج حبش على التوارى عن الأنظار. كل ما قرأه النائب العام من إفادتى كذب فى كذب. لم أقل حرفاً من هذه الإفادة، ولم أكتب حرفاً منها، ولم أوقع عليها.

علا الهرج، وزغردت أم رباح، وانتفض النائب العام: كذاب، هذا الكلام وحده دليل على خطورة صاحبه. وطال صبر رئيس المحكمة وصبر المطرقة، قبل أن يتابع مطيع وهو يشير إلى المقدم بدر الدين أتماز:

- هذا هو من أمرنى بأن أقول هذا الكلام المنسوب لي. هذا هو المقدم بدر الدين أتماز. كلما رفضت أمره كان يأمر رجاله بضربى حتى أغيب عن

الوعي. كان يوصيهم: لا تقربوا وجهه والباقى لكم. هذه آثار الضرب يا سيدي. اسأل قاضى التحقيق يا سيدي.

قال مطيع وهو ينزع عنه قميصه لتظهر آثار الضرب على صدره، وبخاصة على ظهره عندما استدار، وعلا الهرج، وولولت أم رباح، وصاح مطيع:

– المقدم مرقص العميا رآنى البارحة ودمعت عيناه وقال للمقدم بدر الدين وأنا أسمعه: حرام عليك يا أخي. اسأله يا سيدى وحلّفه على الإنجيل. حلّفْ المقدم بدر الدين نفسه على المصحف يا سيدي. انظر إليه يا سيدي: يغمزنى مهدداً. أنا أعرف أنه سينتقم منى عندما أعود إلى السجن. من يحمينى من هذا الوحش؟ نحن لسنا كتائب الفداء العربى يا سيدي. نحن كبش فداء لهؤلاء المجرمين.

كان الصمت الذى أطبق على القاعة يضاعف من دوى صوت مطيع ومن وجعه وأثره. ولما سكت وقفت نديدا مخاطبةً رئيس المحكمة:

– سيدى الرئيس: كانت النيابة قد سمّت المقدم بدر الدين أتماز بين الشهود. الدفاع سيتقدم بالطلب إلى المحكمة الموقرة بالادعاء على المقدم بدر الدين أتماز وبالنظر إليه كمتهم بالتعذيب، وانتزاع الأقوال بالقوة، وتزوير الإفادات، وتضليل المحكمة، وعدم النظر إليه كشاهد. كما أطلب من سيادتكم أن تأمروا بخروجه من القاعة هو وكل العناصر التابعين له حتى لا يؤثروا على المتهمين، ولضمان حُسْن سير المحاكمة.

بطلب نديدا رُفِعَتْ الجلسة فأسرع إليها بدر الدين، واستأذنها بلطف بالغ بكلمة على انفراد، فانسحبت من بين غزال ورباح، لكن الزحام ظل حولها وحول بدر الدين كثيفاً، فاكتفى بأن همس فى أذنها:

– الآن صدقت أن لسان المرأة سيفها. لكننى أشهد أن لسان نديدا حلو. لسانك حلو كيفما كان. والآن صدقت أن المرأة باب جهنّم. اللهم نجنّى من جهنم نديدا. لكننى أشهد: جهنم نديدا ولا جنة عدن.

ثم رماها بابتسامة عريضة واستدار.

وحدها في سريرها تطوى الليل ملفوحة بأنفاس رمزي، وفي صدرها يشتبك صوت بصوت كما يتوحد نَفَسٌ بنَفَس.

– أنا بحاجة لأن أخلو بنفسي يا غزال.

– لماذا اللاذقية إذن؟ لن تكوني فيها وحدك. ستكون ميريل وسيكون منذر. في بيروت يمكن أن تكوني وحدك.

– أنا بحاجة أيضاً إلى صديقة مثل ميريل.

– كأن المهم أن تبعدي عني. حاضر. سأبتعد، ولكن على طريقتي.

اشرح لي.

– كي أطمئن عليك سأكون قريباً جداً منك وبعيداً جداً عنك.

– حزّورة؟

– أبداً يا نديدا. سافري وحدك أو مع من تشائين. إلى اللاذقية إلى بيروت وإن شاء الله إلى القدس. كيفما اتجهت وأينما كنت سألحق بك. واطمئني، فلن تريني ولن تسمعي صوتي، لكني سأتبعك خطوة خطوة. بغير هذا لن يهدأ لي بال. بدر الدين لن ينساك ولن ينساني.

غير أن نديدا أصرت على أن تسافر وحدها، فسبقها غزال إلى اللاذقية، وهاتفَ منذر مبشراً بقدومها، وإلى أوتيل السياحة والاصطياف ـ حيث نزل ـ وافاه منذر تتقدمه ميريل.

من الأوتيل سابقوا سيارة غزال إلى الكراج، ووقفوا ينتظرون حتى كذّبت نديدا عينيها، وراحت تبهت، وتشهق، وتضحك، وتغرورق عيناها، وتعانق ميريل، ثم تعانق منذر، ثم تحدق في غزال وكفها تتمسح بكفه، ثم ترتمي على صدره ملء بصر من يضيق بهم الكراج.

كانت بقية قد بقيت من النهار، وكانت السيارة نشوى مثلهم، لذلك راحت تدور بهم على هواها: من الشيخضاهر إلى البحر، وبعدما أتمت دورة البحر

تطوحت من بساتين المشفى الوطني إلى رأس ابن هاني، بل بين الطابيات والقلعة، بل بالكاد طافت بالقوس المربع، لأن لحظة ممسوسة أوقفت السيارة في ركن ممسوس، ليسير الأربعة ممسوسين مثل مساء اللاذقية: هسيس موجة أو نسمة، قنطرة كنيسة السيدة مثلاً أو قنطرة حارة الموارنة، زاروب العنابة مثلاً أو سينما فاروق، خان الدخان مثلاً أو مدرسة الكرمليت، بل شارع الأميركان، بل مدرسة الأميركان، بل شارع الراهبات، بل شارع هنانو من آخره إلى أوله. وما كان هذا الختام ليكون، لولا أن أذان العشاء كان قد تعالى منذ ساعة - أعلن منذر - فأسرعوا يقطعون الأمتار القليلة التي مازالت تفصل عن ملجأ الفرارية: أعلنت ميريل بتباهٍ وهي تشير إلى شرفة البيت.

ومثلما كانت الساعات الماضية ومضة، كانت السهرة أيضاً، بعدما أعدّ منذر وغزال على عجل صينية مدججة بالبندورة والخيار والفليفلة، صينية مدججة بالسمك المقلي، صحن مدجج بالمخللات، صحن مدجج بالمكسرات، زجاجة مدججة بالعرق، وأربع كؤوس فارغة صغيرة: يلله يا حلوين.

نادى منذر، وكانت ميريل الجالسة على حافة السرير في غرفة النوم، تهمس بخوفها من أن يؤثر رهق المشوار على الحمل غير المؤكد بعد.

نطت نديدا المستلقية على السرير وأوقفت ميريل، وراحت تتملى البطن الضامر، ثم لهجت بالدعاء: إن شالله ولد وبنت سوا، واحتضنت ميريل، بينما نادى منذر: يلله يا صبايا.

وحدها لم تذق نديدا قطرة من العرق، لكنها وحدها كانت السكرى، لذلك رفضت أن ينتصف الليل سريعاً، فأذعن الليل ساعة، ثم ساعة، ثم غافلها ودفع بغزال إلى الأوتيل، وبمنذر إلى الصوفا الوحيدة في الصالون. عندئذٍ تبددت سكرة نديدا، وسبقت ميريل إلى غرفة النوم، لكن النوم جافاها، وقالت كأنما تصل حديثاً انقطع عندما انفضّت السهرة:

– أعرف أنك عاتبة. وأعرف أني مقصرة. غصباً عني تأخرت في الجواب على رسالتك الحلوة مثل صاحبتها. أرجو أن تقبلي اعتذاري. القضية التي علقت بها يا ميريل شغلت ليلي ونهاري.

– أية قضية؟

– لا تقولي إنك لم تسمعي بمحاكمة المتهمين بمحاولة اغتيال شلّيطا.

– قرأت في الجريدة عنها مرة، وحدثني منذر عنها مرة. ولكن لا الجريدة ذكرت اسمك ولا منذر.

– أنا كنت وكيلة مطيع أبو شلة، شقيق رباح. تعرفين أن الأحكام صدرت في أول الشهر. من بين جميع المتهمين وقعت الفأس برأس موكلي. مطيع وحده صدر الحكم عليه بالإعدام.

– لكنني أذكر أن العقوبة أنزلت إلى السجن مع الأشغال الشاقة.

– عشر سنوات، وفوقها المنع من الإقامة في الجمهورية السورية عشر سنوات إضافية، مع تكبيده نفقات المحاكمة. المحكمة برأت المتهمين الآخرين وأمرت بإطلاق سراحهم فوراً. هل كنت محامية فاشلة إلى هذه الدرجة؟

– فشر.

– لماذا إذن؟

– هل تكونين لم تقدري خطورة مطيع لأنك متعاطفة معه؟ إياك أن تكوني تعاطفت معه لأنه شقيق رباح.

– ولا لأنه صديق غزال أو يعمل معه.

– حدثيني عن غزال.

– لا تتعجلي.

– وأنت لا تلومي نفسك على نصيب مطيع.

– قلبي يحدثني أن الخبر اليقين عند بدر الدين أتماز.

– العاشق الولهان.

– كان. الآن هو الخصم اللدود.

– يمكن أن يكون واحدنا الخصم اللدود والعاشق الولهان معاً.

– علاقتي ببدر الدين خربت بعدما اتهم باغتيال العقيد محمد ناصر. أنا غير مقتنعة بتبرئته من ذلك الاتهام. وعلى كل حال استطعت أن أحوله فى قضية مطيع من شاهد ادعاء إلى متهم بتعذيب موكلى وتزوير أقواله وتضليل المحكمة، لكن المحكمة برأته. بدر الدين كان يحبنى يا ميريل، وأنا كنت ميالة إليه. الآن ما بيننا إلا الكره. بدر الدين طلب يدى ليلة صدور الحكم على مطيع.

– لم أفهم.

– حضر إلى البيت. لم أدعه إلى الدخول. طلب يدى على باب الدار. ستسخرين منى لو قلت إنى شعرت بأنه صادق؟

– ولماذا أسخر منك إذا كنت أنت التى ستسخرين من نفسك؟

– وإذا قلت لك إنه عاد فطلب يدى فى المكتب مرتين، وعلى الهاتف عشراً؟ من ماما افتخار طلب يدى على الهاتف. من سنان أيضاً، ولكن فى البيت.

– يبدو أنه فعلاً كان صادقاً، ولكن من أجل أن يعاقبك بالزواج.

– هذا ما تأكدت منه. فبعدما يئس منى صار يهددني. يتصل بالهاتف ويهدد. يحضر إلى المكتب ويهدد. مرتين رأيته ينتظرنى أمام البيت بسيارته ليشتمنى ويهددني. فكرت بأن أدّعى عليه، لكن ملك قالت لي: اصبرى حتى يملّ، ولا تجعليه يفقد صوابه. فكرت باللجوء إلى غزال، ولا أدرى لماذا فضلت أن يبقى بعيداً، لكننى فى النهاية اضطررت إلى أن أزجه فى المعركة. وحياتك يا ميريل هى معركة. بدر الدين لم يكتف بالتهديد.

– هل دس لك دسيسة أو دبّر لك تهمة عليها القيمة؟

- ليتـه فعل. بدر الدين أخذني بالقوة من أمام المكتب إلى بيتـه. قولي: اختطفني، وأنا خرست. لا أعرف ما الذى جرى لي. عندما رأيته قرأت الشر فى نظرته. ولما لاصـقنى وأمـرني: اطلعى بالسـيـارة، انهـرت. خـفت من الفضيحة ونفذت أمره. هو أيضاً خرس حتى أوقف السيارة أمام العمارة التى فيها بيته وأمرني: انزلي. نزلت، فأمرني: ادخلي. هنا عادت لى الروح ورفـضت. دفـعنى وظل يدفـعنى حـتى أغلق باب البـيت وجـرنـى إلى آخـر الصـالون وأنا أقاومه وأصرخ. ضربنى وضربته وشتمته وشتمنى ومد يده إلى صدرى وحـاول أن ينزع التايور. صـار مـثل الوحش الكاسر يا مـيريل، ولولا أن الله أخـذ بيدى لوصـل إلى مـراده. مـرتين وقـعت تحـتـه ولكن الله أعطانى القوة كل مرة وتخلصت منه. الله ألهمنى فاندفعت إلى الباب وقبل أن يلحق بى كان نصفى قد خرج وصـوتى يستـغيث. انفـتح البـاب المقـابل ورأيت عجوزاً تقترب، وسمعت امرأة تصيح من تحت: ولكْ شو فيه؟ لا أعرف كيف نجوت يا ميريل. لا أعرف كيف اختفى هذا الوحش، ولا كيف رافقتنى العجوز حتى مر تاكسي.

كان صوت نديدا قد تخافت حتى بات بحّةً، وكانت ميريل قد تجللت بالفزع، بينما ذراعها تدثّر كتف نديدا التى تنحنحت باحثة عن صوتها وهى تقول:

- أول من فكرت بأن أستنجد به هو سنان زوج أختي. وآخر من أخبرته بما جرى كان سنان. خفت عليه من بدر الدين، فلجأت إلى غزال. لا أدرى لماذا لم أخف عليه. هل لأنه لا يهمنى بقدر ما يهمّنى سنان؟ أم لأنه تراءى لى أنه أقوى من سنان، بل ومن بدر الدين نفسه؟

- للمرة الثانية أسألك أن تحدثينى عن غزال.

- هو اسم على مسمّى يا ميريل. رجل ملء ثيابه كما يقال. هو فعلاً سمين ولكن لا يظهر عليه ذلك بسبب طوله، صح؟ ما فيه علّة إلا عمره. تحت الخمسين وفوق الأربعين: احزرى كم؟

- هذه مزيّة تحسب له.

- غزال أرستقراطي وبيزنس مان ومثقف. رجع من فرنسا من حوالي عشرين سنة يحمل ماجيستيراً في الكيمياء ودبلوماً في التجارة. هو شريك وقريب لوالد سنان. والد سنان شاخ والمرض ما عاد يفارقه، وغزال هو الذي يدير كافة الأعمال. مطيع أبو شلة كان قريباً جداً منه في العمل والصداقة والأفكار. غزال ليس عضواً في أي حزب. تستطيعين أن تقولي هو قومي عربي. عرّفني على ميشيل عفلق وعلى صلاح البيطار من مؤسسي وقادة حزب البعث العربي. عرفني على نزار قباني. أصدقاؤه من الفنانين والأدباء كثيرون.

- هذا كله جميل جداً. كله حلو. هاتي الأهم.

- غزال لم يتزوج حتى الآن. واضح أن الرجل عاش شبابه بالطول والعرض في باريس. ولا أظنه يعيش في الشام كراهب. لا أدري إذا كان لهذا الأمر علاقة بأسفاره إلى بيروت أو عمان أو استنبول أو القاهرة. لا أصدق أن ضرورات العمل وحدها هي سبب أسفاره.

- نديدا: هاتي من الآخر.

- والد سنان نصحه بالزواج من صديقتك نديدا.

- انطقي بهذه الدرة من الأول. أقول مبروك؟

- قلت لك إني لجأت إلى غزال من الوحش. قال أفديك بروحي. أقسم على أنه لم يقل ذلك لامرأة. وقال: نتزوج فوراً. قلت: لا. أنا الآن مكسورة. لن أتزوج إلا وأنا قوية. سألني: بأية صفة يمكن أن أدافع عنك، ليس ضد بدر الدين أتماز وحده، بل ضد الدنيا كلها؟ قلت: لا أعرف. قال: نعلن الخطوبة فوراً. قلت: اتركني أفكر. اتركني ألتقط أنفاسي. وهكذا جئت إليك. فكرت بأن أبتعد حتى أقرر بهدوء ما سأفعل. رباح تزوج من أخت غزال. أنا واثقة جداً جداً بأن رباح لا يزال يحبني. رباح يا عزيزتي يغار عليّ من

غزال كما كان يغار عليّ من بدر الدين أتماز. لكن رباح انتهى بالنسبة لى كما انتهى بعده بدر الدين: طبعاً أنا لا أقارن بين الرجلين. حذاء رباح أشرف من رأس بدر الدين.

– نحن فى سيرة غزال. مالك ولرباح ولبدر الدين؟

– كل هذا لأقول لك إنى كنت طوال الطريق من الشام إلى هنا أسأل نفسي: هل عرفت الحب يا نديدا حتى الآن؟ أنا تزوجت ولى ولد ما شاء الله، ولكن أحياناً أرى نفسى مثل من لم تتزوج، بل ومثل من لم تنجب.

– حتى لو كان كل هذا صحيحاً، فأنت الآن غاطسة حتى أذنيك فى الحب. أنا أعرفك. ولكن احذرى من الغرق إذا كنت لم تتعلمى السباحة حتى الآن.

– أنا فعلاً لم أتعلم السباحة.

– غزال سيعلمك.

– هو يعلمنى فعلاً فى هذه الفترة قيادة السيارة. قبله دربنى الدكتور عبدالحنان مراد فترة قصيرة. الدرس الماضى كان على طريق المزرعة. غزال معلم ماهر. الطريق صعبة خربها الشتاء. انقطاعنا عن المزرعة أضرّ بها وبالطريق، ولكن السيارة بين يدى غزال ما شاء الله! سأهتم بالمزرعة من الآن فصاعداً. الربيع فيها ينعش الروح، والغوطة كلها فى هذه الأيام عروس. عروس أحلى من ميريل جميرا.

– ولكن العروس القادمة نديدا الكهرمان ستكون أحلى.

– غزال وعدنى بأن تعود المزرعة إلى عزها فى هذا الصيف. ماما افتخار فرحت بالخبر وانتهزته لتسألنى عن علاقتى بغزال، فهربت منها. ما عرفت بماذا أجيبها. ماذا أقول لها يا ميريل؟

– قولى لها: غزال اليوم حبيبى وبكرة زوجي.

همست ميريل، ورددت نديدا في سرها الوصية، ولم تكن ميريل بحاجة إلى صمت أطول حتى تغفو. وربما لحقت بها نديدا، وربما ظلت ساهرة بعينين مغمضتين، لترى نفسها في غروب رطب تمشي حافية على الرمل، وتلوح للبحر بفستان مشجر وهفهاف ترفعه أصابعها حتى تسطع الركبتان. وبعد خطوات تبدأ ذبالة موجة تلحس قدمي نديدا، كما تبدأ ذبالة موجة تطرطش ساقيها. وفي غفلة مسحورة يتبدل الفستان السابغ بتنورة قصيرة زرقاء ومزبدة، كأنها من نسل هذا البحر الذي تشلح الشمس على وجهه جديلة موشاة بالذهب الأصفر، وجديلة موشاة بالذهب الأحمر.

إلى الخلف واليمين - حيث التفتت نديدا - كانت شجيرات الصنوبر الفتيّة تتسامق خلل أعشاب جهولة، في منتهى الرمل. وإلى الخلف واليسار - حيث التفتت نديدا - التمعت وضحة من تراب التبست ألوانه: بنيّ هو أو أشهب، وأياً يكن فله مثل ملاسة الحصيات المموهة اللاهية التي تدغدغ قدمي نديدا وهي تتقدم خطوة راغبة، فخطوة عاثرة، فخطوة خائفة، فخطوة سكرى، حتى إذا بلغ الماء فخذيها، عرّاها البحر من التنورة ومن الفستان معاً، فاندفعت فيه لعله يغطي عريها، لكنه لم يبق لها على ورقة تين.

كان الماء قد بلغ سرتها، وكانت خطواتها قد أخذت تتزعزع، فأسرعت أصابعها إلى العقد، وناشدت الحجر الذي بلا اسم أن ينجدها، فجعل لها من الأمواج محملاً، وتمتم: بسم الله مجراها ومرساها، ثم ناشدها أن تسميه، فقربته من شفتيها وتمتمت: حجر السرائر.



الكاتب فى سطور

نبيل سليمان

- ولد عام ١٩٤٥ .
- تخرج فى جامعة دمشق ـ كلية الآداب ـ قسم اللغة العربية عام ١٩٦٧ .
- عمل فى التدريس بين ١٩٦٣– ١٩٧٩ .
- أسس دار الحوار للنشر والتوزيع عام ١٩٨٢ فى اللاذقية.
- متفرغ للكتابة منذ عام ١٩٨٩ .

المؤلفات :

١– ينداح الطوفان: الطبعة الأولى ١٩٧٠م.

٢– السجن: الطبعة الأولى ١٩٧٢ م.

٣– ثلج الصيف: الطبعة الأولى ١٩٧٣م.

٤– جرماتي: الطبعة الأولى ١٩٧٧م.

٥– المسلّة: الطبعة الأولى ١٩٨٠م.

٦– هزائم مبكرة: الطبعة الأولى ١٩٨٥م.

٧– قيس يبكي: الطبعة الأولى ١٩٨٨م.

٨– مدارات الشرق: الجزء الأول: الأشرعة ـ الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

٩– مدارات الشرق: الجزء الثاني: بنات نعش ـ الطبعة الأولى ١٩٩٠ م.

١٠– مدارات الشرق: الجزء الثالث: التيجان ـ الطبعة الأولى ١٩٩٣ .

١١– مدارات الشرق: الجزء الرابع: الشقائق ـ الطبعة الأولى ١٩٩٣ .

١٢– أطياف العرش: الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

١٣– مجاز العشق: الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

١٤– سمر الليالي: الطبعة الأولى ٢٠٠٠ .

١٥– في غيابها : الطبعة الأولى ٢٠٠٣ .

١٦– درج الليل... درج النهار ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٥ .

١٧– دلعون ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٦ .

كتاب الهلال

د. عبد الرؤوف الضبع

مداد القلم ودم الشهيد

رصد وتحليل للأحداث قبل أن تكتبها الدماء



هذه الرواية

نديدا شابة مطلّقة وأم ومقبلة على عشق جديد، ونديدا محامية ضد الاستبداد، وقد ورثت من الأحجار الكريمة. مقداراً مثل الكهرمان والعقيق واللازورد، ومثل ذلك الحجر الذي لا اسم له، ولذلك اختارته لعقدها، وهي التي سمّته حجر السرائر، أي حجر الروح والقلب والحنايا والأحلام والأوجاع والأسرار.

في نهاية الرواية صفحة تمثّل روحها، حين تغفو نديدا، وربما تظل ساهرة، لكنها ترى نفسها أمام البحر، حيث نقرأ هذا الحلم:

ظلت ساهرة بعينين مغمضتين، لترى نفسها في غروب رطب تمشي حافية على الرمل، وتلوح للبحر بفستان مشجر وهفهاف ترفعه أصابعها حتى تسطع الركبتان. وبعد خطوات تبدأ ذبالة موجة تلحس قدمي نديدا، كما تبدأ ذبالة موجة تطرطش ساقيها. وفي غفلة مسحورة يتبدل الفستان السابغ بتنورة قصيرة زرقاء ومزبدة، كأنها من نسل هذا البحر الذي تشلح الشمس على وجهه جديلة موشاة بالذهب الأصفر، وجديلة موشاة بالذهب الأحمر.

إلى الخلف واليمين - حيث التفتت نديدا - كانت شجيرات الصنوبر الفتيّة تتسامق خلل أعشاب جهولة، في منتهى الرمل. وإلى الخلف واليسار - حيث التفتت نديدا - التمعت وضحة من تراب التبست ألوانه: بنيّ هو أو أشهب، وأياً يكن فله مثل ملاسة الحصيات المموهة اللاهية التي تدغدغ قدمي نديدا وهي تتقدم خطوة راغبة، فخطوة عاثرة، فخطوة خائفة، فخطوة سكرى، حتى إذا بلغ الماء فخذيها، عرّاها البحر من التنورة ومن الفستان معاً، فاندفعت فيه لعله يغطي عريها، لكنه لم يبق لها على ورقة تين.

كان الماء قد بلغ سرتها، وكانت خطواتها قد أخذت تتزعزع، فأسرعت أصابعها إلى العقد، وناشدت الحجر الذي بلا اسم أن ينجدها، فجعل لها من الأمواج محملاً، وتمتم: بسم الله مُجراها ومرساها، ثم ناشدها أن تسميه، فقربته من شفتيها وتمتمت: حجر السرائر.

روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العربي والعالمي تصدر عن مؤسسة دار الهلال

الإدارة

القاهرة: ١٦ شارع محمد عزالعرب بك (المبتديان سابقا)

ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).

المكاتبات: ص.ب: ٦١العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدي ١١٥١١ ـ تلغرافيا: المصور ـ القاهرة ج.م.ع.

تلكس: Telex 92703 hilal u n

فاكس: FAX: 3625469



الاشتراكات

قيمة الإشتراك السنوى ٧٢جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية– البلاد العربية ٣٥ دولاراً – أوروبا وآسيا وأفريقيا ٤٠ دولاراً – أمريكا وكندا والهند٤٥ دولاراً – باقى دول العالم ٧٥ دولاراً.
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الإشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

الغلاف جمال عبدالنبى

الاصدار الأول/ ينــاير ١٩٤٩

العدد ٧٥٦- يناير٢٠١٢م- صفر١٤٣٣هـ

البريد الإليكترونى: helalmag@yahoo.com

بريد الاشتراكات subscription_dep@yahoo.com

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة – لبنان ٦٠٠٠ ليرة – الأردن ٢٢٥٠ فلس ـ الكويت ١,٢٥٠ فلس – السعودية ١٢ ريالا البحرين ١,٢ دينار– قطر ١٢ ريالا – الإمارات ١٢ درهما – سلطنة عمان ١,٢ ريال – اليمن ٤٠٠ ريال – المغرب ٤٠ درهما – فلسطين ٢دولار – سويسرا ٤ فرنكات – السودان ٣,٥ جنيه.